د. محمد عمارة

الغزو الفكري

وهم أم حقيقة

دار الشروق

الغزو الفكري

وهم أم حقيقة

طبعة دار الشروق الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

طبعة دار الشروق الثانية
١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إنها واحدة من « القضايا ـ المشكلة » ، التى تشغل العقل العربى المسلم ، ويثور من حولها الجدل ، ويحتدم الخلاف .. فكثيرون هم الذين يحذرون وينذرون من « الغزو الفكرى » وعواقبه ومخاطره .. وكثيرون هم الذين يسفهون من هذا التحذير والإنذار ، منكرين ومستنكرين وجود هذه « القضية » من الأساس ! ..

بل إننا لا نغالى إذا قلنا إن الجدل حول هذه القضية ـ قضية « الغزو الفكرى .. وهم ؟ .. أم حقيقة ؟؟ » ليس خاصية من خصائص الحياة الفكرية لوطن العروبة وعالم الإسلام .. بل هو معلم من معالم الحركة الفكرية فى بلاد « العالم الثالث » ، وكل مواطن الأمم والحضارات التى اصيبت بهيمنة الاستعمار الغربى خلال القرنين الماضيين .. بل لقد ارتفعت وترتفع بالشكوى من « الغزو الفكرى » أصوات فى مواطن العراقة للحضارة الغربية ـ مثل فرنسا ـ محذرة من « الوافد الأمريكي » الذى يهدد بـ « أسلوب الحياة الأمريكية » القيم والأعراف الثقافية التى ترسخت فى القارة الأوروبية منذ عصر نهضتها الحديث ! ..

ولما كان الهم الذي يشغلنا ، والمسئولية التى نجاهد كى نسهم فى حمل تبعاتها .. معنية أساساً بالهم العربى الإسلامى ، وتبعات النهضة العربية الإسلامية ، كان توجهنا هنا ، إلى نظر هذه القضية فى هذا الإطار .. مع إدراكنا أن نتائج هذا النظر حافلة بما يصلح للاستلهام والتعميم ، وخاصة فى مواطن الأمم ذات الحضارات العريقة التى شهدت بلادها هيمنة الغرب الحضارية مع الغزوة الاستعمارية الغربية التى أصابت تلك البلاد فى عصرنا الحديث .

* * *

وإذا كانت الفطرة الإنسانية السليمة ، قد كانت ولا تزال من أقوم السبل وأضمنها وأقصرها لبلوغ الحقيقة فى أعقد القضايا المشكلة .. فإننا سنختار سبيلها لجلاء وجه الحقيقة فى هذا الموضوع .

ولذلك .. فنحن ـ بادىء ذى بدء ـ إذا تصورنا وطناً من الاوطان ، بحدوده « الجغرافية ـ السياسية » ، وشهدنا تحرك جيش هذا الوطن أو مواطنيه داخل هذه الحدود ، فلن يكون ثمة مجال لحديث عن «غزو » لهذا الوطن .. لأن الحركة طبيعية ، فى الإطار الطبيعى ، للحدود الطبيعية .

كذلك ، إذا نحن تصورنا الخريطة السياسية لـ « الدول » التى تقتسم ارض الكوكب الذى عليه

نعيش .. ثم نظرنا إلى حركة « الهواء » وتيارات الرياح ، التى تعبر « حدود » هذه الدول .. وكذلك التيارات المائية التى تأتى إلى « المياه الإقليمية » من « المياه الدولية » .. فلن يتسنى لقائل أن يصف عبور « الهواء والماء » لهذه « الحدود » بأنه « غزو » يستدعى المنع والإنكار والاستنكار ! .

وعند هذا الحد من التصور .. لابد لنا من أن نتساءل ـ كى ندخل إلى موضوعنا ـ : هل « الفكر » ـ على هذا الكوكب الذى نعيش فيه ـ بمثابة « الهواء .. والماء » ، لا يعرف ولا يعترف « بالحدود » ، ومن ثم فإن عبوره ـ سواء أكان بالهدوء أو بالاقتحام ـ لحدود الدول والأوطان ، لا يحمل شيئاً من سمات « الغزو » التى تستدعى المقاومة ؟ .. أم أن هذا الفكر هو بمثابة « الجيش » ، لابد وأن يلزم إطار « وطنه » وحدوده ، فإذا تعدى « الحدود » كان « غزوا » يستحق المقاومة والإجلاء ؟ .. أم أن من هذا « الفكر » ما هو بمثابة « الهواء والماء » ، لا يعرف ولا يعترف بالحدود والسدود والقيود .. ومن ثم فإن عمومه لوجه الكرة الأرضية ، بدولها وأوطانها المتعددة ، لا يعد « غزواً » .. ومنه ما هو بمثابة « الجيش » ، لابد وأن تتخصص حركته وتختص حريته بحدود دولته ، دون أن يتعدى هذه الحدود ؟ !.

وكما حددت « بداهة الفطرة » هذا التصور لقضيتنا ـ قضية « الغزو الفكرى » ـ .. فإنها قادرة ـ بل الأقدر والأجدر ـ على قيادة العقل العربى والمسلم إلى الإجابات على هذا السؤال : « الغزو الفكرى .. وهم ؟ حقيقة ؟؟ » ..

* * *

والأمر الذى يؤكد جدارة هذا التصور ليكون مدخلاً الحقيقة فى موضوعنا .. أن الذين ينكرون ويستنكرون « الغزو الفكرى » ، معتبرين الحديث عنه مجرد « وهم » الأوهام ، إنما ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم باعتبار ـ رغم الحدود الدولية السياسية والحواجز الجغرافية وبسبب من التقدم الهائل فى ثمرات « ثورة الاتصال ـ ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم باعتباره « وطناً واحداً لـ « حضارة واحدة » ، يسمونها : « حضارة العصر » « الحضارة العالمية » أو « الحضارة الإنسانية » ، ويتصورو الأمم والشعوب والقوميات مجرد درجات ومستويات فى الواحد لهذه الحضارة الواحدة .. ومن ثم ، فليس فى هذ التصور حدود ـ لها حرمة الحدود ـ تميز « أوطاناً » متعددد لحضارات متميزة .. ولهذا ، فإن عبور الفكر ـ كل الفكر للحدود ـ كل الحدود ـ ليس فيه ، عندهم ، شبهة « غزو ولا أثر « عدوان » ! .

أما الذين ينكرون أن يكون عالم اليوم وطناً حضارياً واحداً لحضارة عالمية واحدة ، فإنهم يدعون إلى ضرورة احترام « الحدود الحضارية » .. لأن العالم فى تصورهم ، هو أقرب ما يكون إلى « منتدى عالمى لحضارات متميزة » .. تشترك أممها فى عضوية هذا المنتدى ، ومن ثم فإن بينها ما هو « مشترك حضارى عام » .. وأيضاً ، فإن هذه الأمم تتمايز حضارياً ، الأمر الذى ينفى الوحدة الحضارية ، ويستدعى الحفاظ على « الهويات » الحضارية المتميزة .. لا لمجرد الحفاظ عليها ـ رغم أهميته ـ إنما لأسباب وطنية ، وقومية ، وعقدية ، تلعب دورها فى إنهاض أمم كثيرة من كبوتها وتراجعها ، لما لهذه الخصوصيات من قدرات على شحن شعوب هذه الأمم بالكبرياء المشروع ، والطاقات المحركة فى معركة الإبداع .. ولما للتعددية الحضارية من دور فى إثراء مصادر العطاء العالمى ..

وأيضاً لما نلإعتراف بهذهالتعددية من كشف وتعرية لروح الهيمنة والعدوان والاستعلاء ، التى تخفيها الحضارة المتغلبة على عالمنا المعاصر ـ وهى الحضارة الغربية ـ تحت ستار « وحدانيتها .. وعالميتها .. وإنسانيتها » .. ولما لهذا الكشف من دور فى إذكاء روح المقاومة عند الأمم المستضعفة حضارياً ، ضد السمات والقسمات التى مثلت وتمثل « مأزق الحضارة الغربية » ، الذى يمسك اليوم بخناق إنسانها ، وذلك حتى لا تعم مأساته كل بنى الإنسان ؟ ! .

فهنا .. ومنذ البدء .. يرفض الذين يعترفون بوجود « الغزو الفكرى » ، وينبهون على مخاطره ، دعوى « **الوطن الحضارى الواحد لعالمنا المعاصر** » ، ودعوى « **الحضارة العالمية الواحدة** » لهذا الوطن الواحد .. ويقدمون بديلا لها : دعوى أن عالمنا هو أقرب ما يكون إلى « **منتدى عالمى لحضارات متميزة** » .. وأن الأمم المستضعفة حضارياً لابد لها من النضال الحضارى ضد نزعة التفرد والهيمنة التى تمارسها الحضارة الغربية المتغلبة ـ بالاستعمار القديم والجديد ـ على غيرها من الحضارات .. فالتعددية ، لا الواحدية ، هى الحقيقة الممثلة للواقع الحضارى فى الكوكب الذى نعيش عليه .. ومن ثم فإن هناك حالات لتعدى « الحدود الحضارية » ، تمثل « غزواً فكرياً » لا شك فيه ! .

* * *

ويبدو أن « الواقع » ـ مع « الفطرة » ـ ينهض ، هو الآخر ، شاهدا على صدق هذا التصور الأخير ! .

فالذين يعايشون الشعوب والأمم ذات الحضارات الغنية والتاريخ القديم والتراث العريق .. أو يغوصون فى تراث هذه الأمم وفلسفاتها ومذاهبها وتقاليدها وأعرافها ، يدركون أن عالمنا به ـ حقا ـ أمم متعددة ، تتميز كل منها بشخصيتها القومية والحضارية المتميزة ، وإننا إذا نظرنا فى مذاهب هذه الأمم وأعرافها ، وفى معايير الحلال والحرام والمشروع

والممنوع لدى أبنائها ، وفى موازين الأذواق والحاسة الجمالية ، وفى تصوراتها لمكان الإنسان من الكون ، وتصوراتها لمصيره بعد الموت ، وتصوراتها الفلسفية لهذا الكون وما وراء المادة والطبيعة .. إذا نحن نظرنا إلى مذاهب هذه الأمم فى هذه القضايا الأمهات ، أدركنا السمات التى تمايز بينها ـ جنباً إلى جنب مع سمات تشترك فيها فتجمع بينها ـ واستطعنا ، بسبر أغوار المواريث الفكرية لهذه الأمم ، أن نتتبع خيوط هذا التمايز الحضارى إلى حيث تضرب بجذورها فى أعمق أعماق التاريخ ... ولعل نظرة فاحصة إلى أمم مثل . الصين .. والهند .. واليابان ، ستفضى بنا إلى الاجتماع على حقيقة تميز الشخصيات القومية ، والمواريث الحضارية ، وطرائق العيش ، والفلسفة فى الحياة وفى النظرة للكون وتصوره ، لدى شعوب وأمم هذه الحضارات ... وكذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية ، منذ اليونان وحتى نهضتنها الحديثة . والحضارة العربية الإسلامية ، منذ تبلورها كثمرة لاندماج المواريث القديمة للشعوب التى دخلت الإسلام ـ بعد الإحياء الإسلامى لهذه المواريث ـ كثمرة لاندماج هذه المواريث فى الفكر الإسلامى ، الذى استصفاها وطورها وفقاً لمعاييره الاعتقادية .. وحتى عصر النهضة الذى نتلمس سبله وننسج خيوطه الآن ! .

إنه التمايز الحضارى .. والتعددية الحضارية ، التى لا تنفى واقع « المشترك الإنسانى العام » ، فتقع فى وهم الاختلاف الكامل ، والانغلاق التام ، وتصور علاقات الأمم كما لو كانت تدابراً وإدارة الظهر للغير ، وأسواراً صينية تفصل ما بين الحضارات ... كما أنها لا تنفى واقع « التميز الحضارى » ، الذى يزكى « التعددية » ، وينفى « الواحدية » فى هذا الميدان .

إذن .. فمذهبنا ، الذى نلتزمه ، ونزكيه ، ونبشر به .. هو الذى يتخذ من هذه القضية موقفاً وسطا ... أى عدلا .

● فنحن ننكر تصور العالم : وطنا حضارياً واحداً ؛ لحضارة واحدة .. وهو تصور الذين ينكرون وجود « الغزو الفكرى » ، ويرونه مجرد « وهم » من الأوهام ..

ونرى ـ كما سيأتى الحديث بعد ـ أن هذا الموقف ـ حتى مع افتراض حسن النية ـ مكرس وموظف لخدمة تمام الانتصار للحضارة الغربية المتغلبة على عالمنا المعاصر ، انتصارها ـ بالمسخ والنسخ والتشويه ـ على الحضارات العريقة التى ابتليت هى وشعوبها وأممها بغزوة الاستعمار الغربى فى عصرنا الحديث ... إنه طريق التبعية الحضارية ، الذى يحولنا إلى « هامش » لحضارة الغرب ، فنفقد خصوصيتنا الحضارية ، ونفتقد تواصلنا

الحضارى ، لنؤب ـ فى النهاية ـ بأوزار المازق الحضارى الذى يجاهد الغرب ذاته كى يجد السبيل إلى الخلاص منه ! .

● ونحن ننكر ـ أيضاً ـ تصور العالم : حضارات منعزلة تماماً ، ومكتفية بذاتها كلية .. لأن هذا التصور ، فضلاً عن تجاهله لواقع « المشترك الحضارى الإنسانى » ، فإنه يقود الأمم التى تفرض العزلة الحضارية على نفسها إلى ما يشبه « الانتحار الحضارى » ، عبر الجفاف والذبول الذي يقود إليه هذا الطريق ... هذا إذا تصورنا إمكانية سلوك مثل هذا الطريق ، مع ثمرات « ثورة الاتصال » التى تقتحم مغاليق النوافذ والأبواب على الأمم والشعوب ! .

● ونقف ، بين هذين الموقفين ، الموقف « الوسط ـ العدل » .. فنبصر ما هو عام ومشترك فى الفكر الإنسانى .. فندعو أمتنا إلى طلبه وتحصيله واستلهامه وتمثله ، لتقوى به ذاتيتها ، وتزدهر به خصوصيتها ، ويشتد به عود تميزها .. مع إدراك سمات الخصوصية الحضارية وقسماتها ، نحددها ، ونشير إلى سبل الحفاظ عليها ودعمها وتنميتها .. استهدافاً لنهضة حديثة ، تمثل الطور المعاصر لحضارتنا العريقة ، وابتغاء لابداع جديد تسهم به امتنا فى إثراء الفكر الإنسانى المعاصر ، كما

صنعت من قبل فى عصور الإزدهار التى صنعها أسلافنا العظام .

ذلك هو الموقف الذى نجتهد لنقيم عليه الأدلة والبراهين .. الموقف الذى يرى أن من « الفكر » ما هو بمثابة « الجيش » ، لابد وأن تلتزم حركته « الحدود » ، وإلا كانت هذه الحركة « غزوا فكرياً » ، تستوجب الرفض والصد والمقاومة والتحصين .. ومن هذا « الفكر » ما هو بمثابة « الهواء » ، لن يؤدى منعه من عبور « الحدود » ـ على افتراض تصور إمكانية هذا المنع ـ إلا إلى الاختناق ! ..

ذلك هو المدخل ، الذى يمهد بين يدى مبحث هذه « القضية ـ المشكلة » ، التى يدور من حولها الجدل ويحتدم الصراع ، فى وطن العروبة وعالم الإسلام .. على وجه الخصوص .

شهادة الفكر
على
المشترك الإنساني العام
والخصوصية الحضارية

علـوم طبيعية عامــة ..
وأخرى إنسانية متميــزة

نعم .. هناك فى الفكر ، إذا نظرنا إليه على المستوى الإنسانى والعالمى ، سواء أكان إبداعاً للإنسان المعاصر أم ميراثاً وتراثاً لأسلافنا ، فى الحضارات المختلفة .. هناك فى هذا الفكر ما هو « مشترك إنسانى عام » لا يختص بحضارة بذاتها ، أو قومية بعينها ، أو أهل ديانة دون غيرها .. فهو كالماء والهواء ، تحتاجه كل نفس ، وينهض بمهمة الإحياء لدى الناس أجمعين .. ومن هذا الفكر ما يتميز بالخصوصية والاختصاص بإطار حضارى بعينه ، وشخصية قومية بذاتها ، ويقوم الاتساق بينه وبين تكوين عقدى دون سواه .. فيصبح وجوده وفعله طبيعياً فى إطار بعينه ، حتى إذا تعدى هذا الإطار غدا نشازاً وضاراً ، يصطدم بالخصوصيات الطبيعية صدام الجيوش الغازية بالكبرياء الوطنى النافر والمتضرر من عوامل الغزو والقهر والاحتواء .

ولحسن الحظ ، فإن التمييز ـ فى الفكر ـ بين ما هو « مشترك إنسانى » ، وبين ما هو « خصوصية حضارية » ، إنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية ، لا تدع مجالاً للبس أو الغموض أو الاعتباط .. **فكل العلوم التى موضوعها الطبيعـة وظواهرها والمادة وخصائصها ، هى من قبيل**

الفكر الذى هو مشترك إنسانى عام ، وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمى ، ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية هى السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم ، تلك الحقائق التى هى بنت الدليل ، والتى لا تختلف باختلاف مذاهب وعقائد وأجناس وفلسفات المكتشفين ، ومن ثم فهى لا تتغاير بتغاير القوميات والحضارات .. بل هى واحدة على المستوى الإنسانى ، كما أن موضوعاتها ـ المادة وظواهرها ـ واحدة هى الأخرى ، لا تختلف ولا تتغاير باختلاف وتغاير الحضارات .. فعلوم مثل الرياضيات ، بفروعها ، ومثل الكيمياء ، والطبيعة ، والطب والچيولوچيا .. لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الحضارات .. قد تتمايز وظائف استخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها ، لكن حقائق علومها ، أى « فكرها العلمى » ، سيظل واحداً مهما اختلفت المذاهب والعقائد والحضارات .

ويلتحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية ، الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها ، على نحو ما وإلى حد كبير ، العديد من ثمرات التجارب الإنسانية فى الوسائل والنظم والمؤسسات والخبرات ، التى ترشد أداء الإنسان وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات .. فعلى الرغم من تمايز المقاصد والغايات والمثل ، فإن تجارب

الإنسانية فى الوسائل والنظم والمؤسسات ، قد تكون صالحة ، فى احيان كثيرة ، للاقتباس ـ مع التطويع ـ وللتمثل والاستلهام .. فتجارب الأمم الحرة فى تمييز ممثلى الشعب واختيارهم .. وتراثها فى المؤسسات النيابية والديمقراطية .. وتجاربها فى تحديد الحدود لسلطات الدولة : التنفيذية ، والتشريعية ، والقضائية .. والمؤسسات التى تبلورت على ارضها لتنهض بمهام البحث العلمى والتنوير الثقافى .. الخ .. الخ .. جميعها تجارب إنسانية ، تمثل سبلا وأدوات واوعية ، من الممكن الاستفادة منها وبها ، مع تعدد وتمايز المضامين والمثل والغايات .. فسيان أكان الهدف « الديمقراطية الغربية » ، التى تطلق العنان لحاكمية الأمة من أى قيد لأية شريعة إلهية ، أم كان الهدف « الشورى الإسلامية » ، التى تقيد سلطان الأمة بمقاصد الشريعة الإلهية ، فإن خبرات الأمم في المؤسسات النيابية تظل « وعاء » صالحاً كى يؤتى ثماره ، رغم اختلاف المقاصد والمثل والمضامين والغايات التى توضع فى هذا « الوعاء » ، والتى تستهدف من وراء استخدامه .

هذا عن العلوم الطبيعية ، والتجارب المادية ، التى تمثل حقائقها وخبراتها فكراً عالمياً ، هو من صميم « المشترك الإنسانى العام » .

* * *

أما الشق الآخر من « الفكر » ، الذى يدخل فى صميم « الخصوصية الحضارية » ، التى تتمايز بتمايز الحضارات ، فهو ذلك الذى تكون « النفس الإنسانية » موضوعاً لعلومه وفنونه وآدابه .. فهذه « النفس الإنسانية » ، التى تتميز مكوناتها وطبائعها ومفاتيح عوالمها ، بتميز المذاهب والبيئات والفلسفات والمعتقدات ، اى بتمايز الحضارات ، لابد وأن تتمايز علومها ـ سياسة ، واجتماعاً ، وفلسفة ، واقتصاداً سياسياً ـ تبعا لتمايز « مادة » هذه العلوم .. فكما تميزت علوم « المادة » الثابتة بالعالمية ، فغدت حقائقها وقوانينها « مشتركاً إنسانياً عاماً » ... تميزت وتتميز علوم « النفس الإنسانية » بالخصوصية الحضارية ، التى تجعلها وثيقة الصلة بطبائع الأمم ومعتقدات الشعوب ومثلها وطرائقها فى الحياة .

ونحن إذا شئنا أن نضرب الأمثال على تميز العلوم والفنون والآداب إلى هاتين المنظومتين ، ومن ثم تميز فكر كل منظومة منهما عن الأخرى ، وجدنا الأمثال الكثيرة الشاهدة على صدق هذا الذى نقول :

● فالعالم والمثقف المسلم لن يشعر بأى قدر من النفور أو الغربة أوالاستغراب ، إذا هو نظر فى الحقائق والقوانين التى

أبدعتها الحضارة الغربية فى الكيمياء والطبيعة والجبر والحساب والهندسة والطب والچيولوچيا والطاقة .. الخ .. الخ .. وكذلك عندما يضع حقائق هذه العلوم فى الممارسة والتطبيق .. كما أنه مستطيع ـ دونما حرج أو تعديل ـ أن يبدأ إبداعاته وإضافاته فى ميادين هذه العلوم من حيث انتهى الابداع الغربى في ميادينها ... لأنه هنا أمام « فكر » هو « مشترك إنسانى عام » .

لكن هذا العالم والمثقف لن يجد هذه الألفة عندما ينظر فى كثير من « المكونات الثقافية » ، التى هى طبيعية فى إطارها الغربى .. ففنون الغرب التى لا تحرم العرى ، بل تقيم تماثيله فى الميادين والمتنزهات .. وفلسفات هذا الغرب التى لا تحرم « الحرية الجنسية » طالما خلت من الجبر والإكراه والاغتصاب .. ولا تعيب حرية الزندقة والإلحاد ، ولا الدعوة إليهما والتبشير بهما .. والتى تؤسس علومها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على النزعة المادية ، التى ترى فى الإنسان سيداً لهذ الكون والمحور الحاكم بإطلاق فى هذا الوجود ... هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والفنون والآداب .. وما ماثلها ـ لابد وأن تثير فى نفس العالم والمثقف

المسلم من النفور والغربة والغرابة ما لا يجده عندما ينظر فى إبداع الغرب بميادين علوم المادة وظواهر الطبيعة .. لأنه أمام هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والفنون والآداب ، يجد نفسه بإزاء « خصوصية حضارية غربية » ، تتميز عن « الفكر » الموضوعى ، الذى هو « مشترك إنسانى عام » ..

إذن ، فهناك على وجه التحقيق ، فى الفكر الإنسانى ، ما هو « مشترك » .. وما هو « خاص » .. وإذا كان هذا هو القول العام والمجمل .. فلا بد له من التفصيل الذى يضع النقاط على الحروف !

وحدة فى النوع الإنسانى
وتعددية فى تحديد مكانة الإنسان

إذا كان الله سبحانه وتعالى ، قد خلق الإنسان ـ مطلق نوع الإنسان ـ من أب واحد وأم واحدة .. الأمر الذى يعنى وحدة النوع الإنسانى فى خصائص الإنسانية ومقوماتها ، رغم تمايز الحضارات ، وتعدد الألوان والأجناس ... فإن فلسفات الحضارات المختلفة تتمايز فى تحديد مركز هذا الإنسان فى الكون ودرجته فى سلم الوجود .

فمن الحضارات من ترى فلسفتها أن رقى الإنسان إنما يتحقق بالقدر الذى يحقق فيه هذا الإنسان « فناءه فى ذات الله » .. ولذلك نراها تضع تعذيب الجسد ، وتحقير المادة ، وإدارة الظهر للدنيا ، كمراتب للتقدم الإنسانى ولارتقاء النفس على طريق « الفناء فى الله » .

ومن الحضارات ـ كالحضارة الغربية مثلاً ـ من تنزع بطابعها المادى إلى ما يشبه « تأليه الإنسان » .. فهى تجعله محور الكون ، وسيد الوجود ، حتى لقد ابتدعت مقولة تجسد الله فى الإنسان ـ تلك التى « غَبَّشَتْ » بها توحيد المسيحية الأولى ـ فأنزلت الإله إلى الأرض ، عندما زعمت اتحاده بالإنسان وحلوله فيه .. فأنسنت الإلهْ عندما ألّهت الإنسان ! .. واستوت فى ذلك « كهانتها » عندما أعطت

العصمة للبابا الذى حكم بالحق الإلهى .. و« علمانيتها » التى أطلقت حرية الإنسان ، فى التشريع ، من إطار الدين .. و« غنوصيتها » التى جعلت « الحرية » للإنسان و« الجبر » لله ! .

ومن الحضارات ـ كحضارتنا العربية الإسلامية ـ من تنزع ـ بالوسطية ـ إلى نظرة لمكانة الإنسان فى الكون ، هى وسط بين الدعوة إلى تلاشيه واحتقاره وفنائه فى ذات المعبود ، وبين تأليهه وتحويله إلى مركز للكون وسيد للوجود ، يبلغ به الغرور حداً كاد فيه أن يكون المعبود ؟ ! فالإيمان فيها يعنى انتماء الإنسان للكون ، من خلال إسلام الوجه لسيد هذا الكون ، سبحانه وتعالى .. وإسلام هذا الإنسان المؤمن وجهه لله ، لا يعنى الاستسلام والفناء ، وإنما يعنى ـ بسبب من أنه خليفة عن الله فى عمارة الكون ، وسياسة الدولة ، وتنظيم المجتمع ، والنهوض بمهام الوكالة وأمانة الخلافة .. يعنى إسلام الوجه لله : الطاعة فى المغيبات والسمعيات التى لا يستقل العقل بإدراكها ، مع الإبداع الحر فيما هو معقول ومقدور لهذا الإنسان ، فى إطار المقاصد والحدود التى

رسمتها شريعة الله ، سيد الكون ومبدع الوجود وراعى الكائنات .

فهى مرتبة وسط ، تلك التى حددتها حضارتنا العربية الإسلامية لمكان الإنسان ومكانته ودرجته فى سلم الوجود .. فهو ليس الحقير الذى يتحقق وجوده بالفناء فى ذات المعبود .. كما أنه ليس سيد الوجود .. وإنما هو سيد فى هذا الوجود ، ينهض بأمانة الخلافة عن سيد الوجود ! .

هكذا .. اتفقت الإنسانية فى « وحدة النوع الإنسانى » ... ثم تمايزت حضاراتها فى فلسفة النظر إلى مكانة « النوع الإنسانى » فى هذا الوجود .

الاتفاق على مبدأ التدين

والاختلاف على مكانته فى الحياة

إذا نحن نظرنا ، نظرة مقارنة ، إلى موقف كل من الحضارة الغربية ، وحضارتنا العربية الإسلامية من « **مكانة الدين فى الحياة** » .. فسنجد مثالاً شاهداً على تمايز الحضارتين فى هذا الميدان .

إن الذين يتتبعون نشأة الفلسفة الغربية وتطورها ، منذ جاهلية الغرب ـ فى الحقبة اليونانية ـ وحتى نهضته الحديثة ، يرون فى هذه الفلسفة تياراً مادياً متبلوراً وبارزاً ، منذ « ديموقريطس » [القرن الخامس ق . م] وحتى كارل ماركس [١٨١٧ ـ ١٨٨٣] وفردريك انجلز [١٨٢٠ ـ ١٨٩٥ م] وغيرهما من الفلاسفة الماديين المحدثين .. وهذا مالا مثيل له ولا مقابل فى حضارتنا العربية الإسلامية ، ولا فى المواريث الشرقية التى أحيتها الفتوحات العربية الإسلامية وأدخلتها فى نسيج الحضارة الجديدة ، بعصر التدوين .. فتدين الشرق عام وشامل وعميق ، كما أنه قديم وعريق .. فهو مهد الديانات ، ومركز النبوات ، ومهبط الرسالات .. وأينما قلبت صفحات فلسفات مصر القديمة ، وبابل ، وأشور ، فستجد التوحيد النقى ـ فى عصر الإزدهار الديني ـ أو المشوب

بالوسائط والرموز ـ فى عصور « الغبش » الذى ران على نظرة الشرقى إلى توحيد المعبود ! .

وحتى تلك النماذج الشاذة والنادرة ، التى ركز الاستشراق وتلامذته عليها الأضواء ، فزعموها تياراً للمادية والإلحاد فى تراثنا الفكرى والفلسفى ، ما هى ـ عند التحقيق ـ إلا نزوات « **شك عبثى** » تندرج تحت باب النزوع إلى التحلل من التكاليف الدينية ، أكثر مما تندرج تحت « **الإلحاد الفلسفى** » .. أما الآراء والمقولات التى أثرت عن بعض فلاسفتنا ، والتى زعم المستشرقون وتلامذتهم أنها نزعات فلسفية مادية .. فإنها ـ عند التحقيق ـ تضع يدنا على نزعة فلسفتنا كلها إلى « **المادية ـ المؤمنة** » ؟! .. ففلسفة الإسلام لم تعرف ثنائية الفلسفة الغربية التى أقامت التناقض بين « **المادة** » وبين « **الفكر** » ، والتضاد بين « **الواقع** » وبين « **المثال** » .. حتى لقد وجدنا فى فلسفتنا أن القائلين بـ « **قدم العالم** » يتحدثون عن هذا « **العالم القديم** » باعتباره مخلوقاً لله سبحانه وتعالى .. وعندهم أن فعل القديم قديم .. لكنه مخلوق ـ على نحو ما ـ وموضوع للرعاية الدائمة لخالقه القديم ؟! .. وليس كذلك حال الذين قالوا بقدم المادة والعالم من فلاسفة الغرب ، القدماء منهم والمحدثين .. فتلك هى القضية التى شطرت فلسفة الغرب إلى « مادية » « ومثالية » .. وقسمت فلاسفته إلى « ماديين » و « مثاليين » .

وحتى القطاع المتدين والجمهور المؤمن فى الحضارة الغربية ، فإنا واجدون فى نظرته إلى الدين ، وفى مكانة الدين من عالمه الفكرى وسلوكه العملى ، شاهدا على تميز حضارتنا العربية الإسلامية عن حضارة الغرب فى هذا الميدان .

فنحن نعرف أن المسيحية الحقة ، كما أوحى بها الله إلى رسوله عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، وكما تبلور فكرها فى الشرق ، كانت المثال المجسد « للسلام المتصوف ، وللصوفية المسالمة ! » .. لقد بقيت كذلك إلى أن أصابتها رياح الحضارة الغربية بما أخرجها عن هذا « المثال » .

وهذه المسيحية الشرقية ، التى تجسدت مهمتها فى « خلاص الروح » وإعداد الروح الإنسانية لملكة السماء ، رأيناها بعد أن دخلت إطار الحضارة الغربية ، وغدت ديانة الامبراطورية الرومانية منذ عهد الامبراطور « قسطنطين ـ الكبير » [٢٧٤ ـ ٣٣٧ م] تتحول عن جوهرها الروحى ، لتطوع للطابع المادى لهذه الحضارة الغربية ، ولينتهى بها المطاف هناك إلى مجرد قسمة ، أفرغت ـ تقريباً ـ من جوهرها الروحى ، لتصبح قسمة ـ من بين قسمات عدة ـ فى حضارة غلب عليها طابعها المادى الأصيل .. ولقد صدق فيلسوف المعتزلة ، قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد [٤١٥ هـ ١٠٢٤ م] عندما سبر غور هذه « الحقيقة الحضارية » ، فعبر عنها بعبارته الجامعة التى تقول · « **إن النصرانية عندما**

دخلت روما لم تَتَنَصَّرْ روما ، ولكن المسيحية هى التى تَرَوَّمَتْ » ؟! .

نعم .. لقد غلب الطابع المادى للحضارة الغربية ، منذ ذلك التاريخ ، على ديانة « السلام المتصوف ، والصوفيـة المسالمة » .. فكان أن تميزت مسيحية الغرب ورهبانيتها وكهنوتها ولاهوتها عن المسيحية الأولى التى بشر بها عيسى ، عليه السلام ! .

لقد قرأت الكنيسة الغربية المصطلحات الرمزية والمجازية فى الإنجيل ـ مثل « الأب » و« الابن » ، « قراءة مادية » ، فجسدت الرمز ، و« حققت » المجاز ؟ ! .. ثم جاءت مجامعها فجعلت من ذلك مذهباً وقانوناً للإيمان ..

وبعد ان سادت هذه التفسيرات الغربية للعقيدة المسيحية فى الغرب ، حملتها هذه الكنيسة ومجامعها إلى الشرق ، الذى كان خاضعاً للتسلط السياسي لبيزنطة ، وللهيمنة الفكرية للهلينية[1] فطاردت هذه التفسيرات المادية الطابع التوحيدي للعقيدة المسيحية الأصلية ..

---

(١) الهلينية : هى حضارة الإغريق « اليونان » ، ومثلهم وفلسفتهم ونمط معيشتهم .. أى النموذج اليونانى فى النظرة للكون والحياة ، والعلاقات الإنسانية ، ومكونات العقل ، ومعايير السلوك ، ومنظومة القيم .

وعندما انهزمت النزعة الآريوسية(٢) ، التى قاومت فى بسالة ، هذا الانحراف ، كانت هزيمتها إيذانا بعموم البلوى .. بلوى تغبيش الغرب لجوهـر الاعتقاد التوحيدي الذى جاءت به المسيحية مصححة انحراف اليهود المادى عن شريعة موسى ، عليه السلام ، وعن ناموس التوراة ! .. فكانما انتصرت كنيسة الغرب لنزعة اليهود الماديين ؟ ! ..

ومؤسسات « الرهبنة » ، التى ابتدعتها المسيحية الشرقية فراراً بالدين إلى الله ، وخلاصا للنفس من سلطان الدنيا وتسلط الدولة ، عندما هيمن عليهما الغرب البيزنطى .. هذه الرهبنة ومؤسـسـاتها قد حولها الغرب إلى « مؤسـسـات للتنمية المادية » ، تزرع وتصنع ، مع الافتقار إلى الروحانية المسيحية ، بل وإلى الأخلاق المسيحية ؟! ..

---

(٢) الاريوسية الاتجاه الموحد فى المسيحية الشرقية . منسوب إلى أريوس . وفى ميلاده خلاف بين سنوات ٢٥٦ ، أو ٢٧٠ ، أو ٢٨٠ م . وكانت وفاته عام ٣٣٦ م . جمع بين علوم مدرسة انطاكية ومدرسة الإسكندرية . وكان واحداً من رجال الدين بالاسكندرية . وتتميز نزعته بإنكار الوهية المسيح ، فالله ، عنده ، جوهر ازلى احد ، لم يلد ولم يولد ، وكل ما سواه مخلوق ، حتى « الكلمة » ، فإنها كغيرها من المخلوقات ، مخلوقة من لا شىء وليست من جوهر الله فى شىء . ولقد أدانه وأتباعه ونزعته مجمع « نيقية » الذى دعا إليه الامبراطور قسطنطين عام ٣٢٥ م . ثم نصره مجمع القدس بعد عشر سنوات . لكن الاريوسية اضمحلت بعد مجمع القسطنطينية عام ٣٨١ م .

ثم مضت الحضارة الغربية على درب تطويع الروحانية المسيحية للطابع المادى ، فصبت فى « الأوعية » المسيحية الرموز والمضامين الغربية الوثنية .. فالقيصر ، الذى كان ، فى الوثنية ، ابن السماء ، يحكم باسمها ، ويستأثر بالحق الالهى ، ويحتكر التفويض المطلق .. قد غدا ، فى المسيحية ، رأس الكنيسة ، يتمتع بقداستها ، ويمارس ذات الاختصاص .. وحتى عندما نازعته البابوية سلطان الدولة والدنيا ، مارست ، هى الأخرى ، ذات المهام .. فكانت « القيصرية ـ البابوية » ثم « البابوبة ـ القيصرية » : المضمون الغربى الوثنى فى أوعية وأشكال مسيحية ، لم تغير جوهر هذا المضمون ! .

وبعد أن كانت المسيحية ديانة الروحانية الخالصة والشاملة اختزلت الحضارة الغربية مهام « المؤمنين » ، أبناء الكنيسة إلى ساعة من يوم كل أسبوع ؟! .. فيها « يمارس » « المؤمن» « **طقوساً** » لا « **شعائر** » ؟ ! .. و« **يؤدى** » صلاة ، وليس « **يقيمها** » ؟ ! .. حتى لقد انعدمت فعالية وتأثير هذه « الساعة » على سلوك وفكر ومثل وتصورات ذلك « المؤمن » فى غيرها من ساعات الحياة ! .. وإلا فمن الذي يستطيع أن يدلنا على أثر المسيحية الحقة فى فكر وسلوك ابن الكنيسة الغربية الذى :

* إذا درس الطبيعة وظواهرها ومادتها ، رأيناه يدرسها

دراسته لعالم بلا خالق .. فأنت لا تشعر فى دراسة الغرب لعلوم الطبيعة أن علماءه ـ حتى المؤمنين منهم ـ يستحضرون بأى شكل وعلى أى نحو ، أن لهذا العالم الذى يدرسونه خالقاً فاعلاً .. حتى أن كتبهم هذه ، وإن لم تُعَلِّم المتتلمذين عليها الزندقة والإلحاد ، فإنها تصوغ عقلاً لا يشعر بالحاجة إلى الإيمان بالله وهو يدرس الطبيعة ويكتشف أسرارها . فلما علا صرح هذا اللون من العلم فى الحضارة الغربية ، علت أصوات كثيرة بأنه بديل عن الله ، وسمعنا الصيحات المنكرة تقول : « لقد مات الله » ؟ ! ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً .. !

* وإذا نظر المسيحي الغربى فى المسبِّبات ، فأرجعها إلى أسبابها ، وجدناه يقف عند الأسباب المادية لا يعدوها .. وكأنما نسخت مادية حضارته ما فى المسيحية عن خالق كل الأسباب ، الذى أودعها ما فيها من قوة وفعل وتأثير ، سبحانه وتعالى ! ..

* وإذا مارس هذا المسيحى الغربى شئون المال والاقتصاد ، رأيناه يقيم حياته الاقتصادية على « الربا » ، الذى حرمته وتحرمه المسيحية .. وهو لا ينظر إلى هذا « الربا » كضرورة دنيوية تبيح المحظور الديني .. وإنما يراه حلالا وطبيعياً .. بل ويستنكر أى حديث عن إلغائه استنكاره للخطايا المحرّمات ؟ !

* وإذا نظرنا إلى مذهب هذا المسيحي الغربى فى

« الجنس » وعلاقة الذكر بالأنثى .. خيل إلينا أن الروح البهيمية ما زالت سارية فى عقل وكيان هذا « المتحضر ـ العصرى » .. لا لأنه يتفرد دون غيره بممارسة الزنا أو الشذوذ الجنسى ـ فكل بنى آدم خطاء ـ ولكن لأنه « يحلل » هذا « الحرام » ، وينظر إلى هذا « الشذوذ » باعتباره « الطبيعي » ، ويرى فى « الإباحية الجنسية » حقه الطبيعي فى الحرية كإنسان .. بل ويناضل لتضمن له المواثيق والقوانين والدساتير هذه « الحقوق الطبيعية » ؟! .. فالشواذ جنسياً يتظاهرون لتسن القوانين التى تتيح لهم « الزواج » الرسمى المشروع ! .. وتنتصر إرادتهم ، فيصبح الشذوذ هو القاعدة التى يحميها القانون ! .. والحرية الجنسية مكفولة للفتاة إذا بلغت السادسة عشرة ، دون استئذان للأسرة .. أما إذا هى استأذنت الأسرة فحريتها الجنسية مكفولة قبل أن تبلغ السادسة عشرة .. وفى بعض المجتمعات الغربية ـ ومنها انجلترا ذات « التقاليد المحافظة » ؟! يتشاورون فى استبدال سن الثالثة عشرة بالسادسة عشرة لتبدأ منه حرية الفتاة فى الاستمتاع بجسدها دون أن تستأذن أسرتها ؟! .. والزنا ، إذا تم بالتراضى ، ليس منكراً ولا مستنكراً ، حتى ولو كانت الزانية متزوجة ، طالما تمت المواقعة فى غير فراش الزوجية ! .. ويدخل فى هذا الباب « تبادل الزوجات » .. إلى غير ذلك من صور البهيمية التى تقطع بأن تدين الغرب بالمسيحية لم يعد « الشكل » الذى جرد هذه الديانة من « الجوهر »

و« المضمون » ، فطوّعت للحضارة الغربية ذات الطابع المادى والنزعة الإلحادية .

* وعندما تعامل هذا المسيحي الغربى - الأبيض - مع الأجناس الأخرى ، رأينا العنصرية ، والتفرقة بين بنى الإنسان على أساس الجنس واللون .. حتى لقد فصلوا بين الأجناس والألوان فى الكنائس عندما يقف المؤمنون بين يدى الله ! .

* ولأن هذا المسيحي الغربى هو الابن البار لحضارته الغربية ، ذات الطابع المادى الأصيل .. وليس الابن البار للمسيحية الحقيقية ، كما أوحى بها الله إلى عيسى عليه السلام .. فلقد فصل « العلم » عن « الحكمة » منه ، والغاية الخيرة التى كان ولابد أن يتخذ سبيلاً إليها .. فساد فى استخدامات العلوم عزلها عن « الأخلاق » و« المثل » ، حتى غدت أداة للدمار الذى يهدد البشرية كلها .. كما سادت فى السياسة الفلسفة الميكيافيلية ، التى جعلتها : « فن الممكن من الواقع » ، فغدت الغايات تبرر الوسائل ، بصرف النظر عن حظ الغايات أو الوسائل من « الأخلاق » ؟ ! .

كل ذلك قد صنعه الغرب ويصنعه ، رغم الكنائس والكاتدرائيات ، والأديرة ، والمجامع المسكونية ورجال الكهنوت وفلاسفة اللاهوت .. لقد وقف من التدين بالمسيحية عند « الشكل » ، وأهدر المضمون .. بل ومسخه ونسخه

وأحل محله المضمون والطابع المادى لحضارته الغربية .. وهو قد أفسد بصنيعه هذا المسيحية الحقيقية .. افسد عقيدتها ، ورهبانيتها .. وفرغ شعائرها ـ عندما حولها إلى « طقوس » ـ من روحانية المضمون .. وهو قد اختزل حتى هذا التدين الشكلى إلى ساعة من يوم فى الأسبوع ، يتحرك فيه « الجسد » إلى الكنيسة ، دون أن يطول « الروح » من هذه الكنيسة شيء .. لأن هذه الكنيسة قد غدت هى الأخرى ، فى الغرب ، هيكلاً بلا روح ، حتى لقد أوشكت أن تضاهى معابد اليهود التى ثار عليها المسيح ، عليه السلام ، عندما عمرت بالكذبة وأولاد الأفاعى واللصوص ! .

ذلك هو مكان الدين والتدين فى الحضارة الغربية .. وهو ـ برأينا ـ « خصوصية حضارية غربية » ، تميزت وتتميز بها الحضارة الغربية المادية .. ولا تشاركها فيها حضارتنا العربية الإسلامية ، فنحن إزاءها أمام قسمة من القسمات التى تتمايز فيها الحضارات ـ رغم اشتراكها جميعاً فى مبدأ « التدين » ـ ويشهد على ذلك تميز موقف الحضارة العربية الإسلامية فى هذا الميدان .

* * *

إن تدين الشرق ـ ويتمثل اليوم أصدق ما يتمثل فى التدين بالإسلام ـ يمتاز ويتميز بـ « العراقة » .. و« العمق » .. و« الشمول » .

فالشرق مهد الديانات ، ومهبط الوحى الإلهى ، وأرض النبوات ، وميدان الرسالات الإلهية ، التى أشارت إليها الكتب السماوية على امتداد تاريخ علاقة السماء بهداية الإنسان .. فكل الديانات والشرائع الإلهية التى أشارت إليها الكتب السماوية ، اتخذت من الشرق منطلقاً .. والتوحيد الديني ـ توحيد الله ، سبحانه وتعالى ، فى الألوهية ـ تعلمنا الرسالات الدينية أنه بدأ فى الشرق برسالة آدم ، عليه السلام ، ويعلمنا التاريخ الدينى أن نقاء هذا التوحيد قد كان دائماً خاصية شرقية ، تألق نقاؤه فى الشرق ، وتمت دورات التجديد له ، وأيضاً التصحيح للانحرافات الوثنية التى أصابته فى الشرق ، وحتى وثنية الشرق ، فإنها لم تعد اتخاذ الرموز والوسائط التى تقرب أصحابها ـ بزعمهم ـ إلى الله الواحد ، شفاعة وزلفى ! .. فمنذ فجر الضمير الإنسانى كان تدين الشرق ، بديانة التوحيد ، مَعْلَماً من المعالم البارزة فى حضارات أممه وشعوبه .. وكانت النهضات الفكرية لهذه الأمم والشعوب ، بل وكانت ثوراتها السياسية والاجتماعية لابسة لباس الدين ، متخذة من لغته الأدوات والسبل لفتح مغاليق القلوب وتحريك الأمم والشعوب نحو المقاصد والغايات ! .

ومن يقرأ أناشيد أخناتون [١٣٧٢ ـ ١٣٥٤ ق . م] ثم يقارن بين رقى ونقاء التوحيد فيها وبين عقائد الأمم الأخرى

فى الالوهية فى عصره ، بل وبعد عصره بأحقاب طويلة ، يدرك مقدار الصدق فى هذا الذى نقول .. فمنذ ذلك التاريخ ، كانت عقيدة التوحيد فى هذا النقاء الذى يعبر عنه هذا النشيد عندما يخاطب الله فيقول :

« إنك الإله الذى دان الجميع بحبك ..
أنت إله ، يا أوحد ، ولا شبيه لك ..
لقد خلقت الأرض حسبما تهوى ، أنت وحدك خلقتها ولا شريك لك ..
خلقتها ، مع الإنسان والحيوان ، كبيره وصغيره ..
خلقتها ، وكل ما يسعى على قدميه فوق الأرض ، وكل ما يحلق بجناحيه فى السماء ..
خلقت بلاد سورية ، والنوبة ، ومصر ..
واقمت كل إنسان فى مكانه .. ودبرت لكل إنسان ما يحتاج إليه ..
وجعلت لكل منهم أيامه المعدودة ..
لقد تفرقت السنتهم باختلاف لغاتهم ..
كما اختلفت أشكالهم وألوان أجسادهم ..
لأنك أنت الذى يميز أهل الأمم الأجنبية ..
أنت الذى يعطى الحياة لكل البلاد الأجنبية البعيدة ..
لقد خلقت الفصول لكى تحيى كل مخلوقاتك ..
وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك ..

ثم جعلت لهم الصيف ليتذوقوا حرارتك ..
لقد خلقت من نفسك تلك الأشكال التى تعد بالملايين ..
مدناً وقرى وقبائل وجبالاً وأنهاراً ..
كل العيون ترنو إليك ..
أنت الذى صنعت الدنيا بيديك ..
وخلقت الناس كما شئت أن تصورهم ..
إنك أنت الحياة ..
ولا يحيا الناس إلا بك ..

إلى هذا الحد من الرقى فى « التنزيه » و« التجريد » بلغ « التوحيد » فى الألوهية ، فى الشرق ، منذ فجر الضمير الإنسانى .. وإلى هذا الحد وجدناه فى نشيد اخناتون ، الذي لا يعدو أن يكون قبساً من جوهر الرسالات السماوية التى تتابعت فى الشرق منذ آدم عليه السلام .

ويلفت نظرنا فى هذا المقام ، وعندما نتأمل نشيد اخناتون ، أن الله فى هذا النشيد ، هو مصدر كل شىء وصانع كل شىء ، وراعى كل شىء .. وأن هذا المستوى من التوحيد ، الذى يسلم فيه الإنسان الوجه لله ، قد تألقت أنواره فى مصر القديمة ، حيث بلغ العلم والاختراع والإبداع فى العلوم الطبيعية شأواً طوع المادة وظواهرها لقدرات هذا الإنسان ، الذى أسلم - مع ذلك - وجهه إلى الله ؟ ! .. لقد بلغ من العلم بالكيمياء حداً اخترع به الألوان التى لا تزال زاهية حتى يومنا

هذا ؟! .. وفى الطب درجة ضمنت ، بالتحنيط ، أرقى درجات الخلود النسبى التى تحققت للأجساد عبر التاريخ كله والحضارات جميعها ؟! .. وفى الهندسة .. والفلك .. والميكانيكا ، الحد الذى تجسد فى « الأبنية المعجزة » ، التى ترمز لها الأهرامات ؟ ! .. وفى الزراعة .. والصناعة .. والتجارة .. والفنون .. والفلسفات .. والآداب ، درجات عرفنا من أخبارها ـ طرفاً ، لا يزال يثير العجب والإعجاب ، وجهلنا منها أكثر الكثير؟ ! .

ومع هذا العلم الإنسانى الخارق ، وقدراته التى طوعت للإنسان الطبيعة وقواها وظواهرها ، وجدنا هذا الإنسان ذاته ، هو المتبتل ، الموحد ، الذى يسلم الوجه لله .. مصدر كل شىء ، وخالق كل شىء .. وراعى كل شىء .. وهنا تاتى خصيصة التدين فى حضارتنا ، لا فى طورها الإسلامى فحسب ، بل ومنذ المواريث القديمة التى أحياها المسلمون وادخلوها فى النسيج الجديد لحضارتهم العربية الإسلامية .

وعندما كان « الغبش » يعدو على نقاء هذا التوحيد .. كما حدث فى يهودية الشتات .. كانت المسيحية تأتى كرسالة تصحيح .. فلما أفسدت الهلينية اليونانية على المسيحية نقاء توحيدها .. جاءت الرسالة الخاتمة ، بمحمد بن عبد الله ﷺ فبلغ التوحيد فيها قمة النقاء فى « التنزيه »

و« التجريد » .. وبذلك تواصلت مسيرة الشرق الحضارية فى ظلال التدين بعقيدة التوحيد ! ..

وغير « العراقة » و« العمق » فى التدين .. نجد أنفسنا ـ فى حضارتنا العربية الإسلامية ـ أمام « شمول التدين » لكل جوانب حياة الإنسان ! ..

فالتدين ليس « شكلاً » فارغاً من « المضمون » .. وليس ساعة من يوم فى الأسبوع .. وإنما هو كل شىء يأتيه الإنسان فيحقق به نفعاً له أو لغيره ، أو يدفع به ضرراً عن نفسه أو عن غيره ، إنساناً كان هذا الغير أو حيواناً أو نباتاً أو طبيعة أوجماداً .. حتى الاستمتاع بطيبات الدنيا المشروعة ، هو تدين وعبادة يثاب عليها الإنسان .. فكما أن كل شىء يسبح بحمد الله ، فإن كل فعل طيب هو عبادة لله .. وليست العبادات فقط ، الشعائر التى نصت عليها الشريعة كى تتكرر فى انتظام ، صلاة وصوماً وحجاً إلى بيت الله الحرام .. وصدق الله العظيم إذ يحدد أن العبادة هى الرسالة التى تنحصر فيها مهمة الخلق ، فيقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[3] .. ثم هو عندما يحدد للإنسان التكاليف والفرائض الاجتماعية

---

(٣) الذاريات : ٥٦ .

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ ﴾ (٤) ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (٥) .. **يعلمنا شمول التدين والعبادة لكل عمل خير يأتيه الإنسان .**

* * *

وإذا كان « التدين » فى « فكر » الحضارة الغربية قد وقف عند « علم اللاهوت » ، بينما سادت النزعة المادية ومناهجها سائر العلوم الأخرى ، حتى الإنسانية منها ، عندما ذهبت تدرس الظواهر المادية والطبيعية والإنسانية ، وكأنما هى ظواهر ليس وراءهـا سوى الأسباب المادية والمحسوسة ، ولا علاقة لها بإله هو مسبب هذه الأسباب .. إذا كان هذا هو مبلغ « التدين » فى « فكر » الحضارة الغربية .. فإنه لم يقف فى حضارتنا العربية الإسلامية عند هذه الحدود .. ففى حضارتنا شمل « التدين » كل ميادين « الفكر » وجميع أنواع العلوم .

● فالنظر الفلسفى .. الذى عرفته الحضارة الغربية باباً للفلسفة الناقضة والمناقضة للدين .. وجدناه فى حضارتنا العربية الإسلامية : فريضة إلهية ، وأول واجب شرعى على الإنسان(٦) ؟ !

---

(٤) الشرح : ٧ .

(٥) الجمعة : ١٠

(٦) د . على فهمى خشيم [الجبائيان : ابو على وابو هاشم] ص ٣٢٣ طبعة طرابلس . ليبيا عام ١٩٦٨ م .

● والشك .. الذى عرفته الحضارة الغربية مزلزلا لقواعد اليقين الديني .. وجدناه فى حضارتنا العربية الإسلامية السبيل الشرعى إلى هذا اليقين .. فالإيمان ، إسلاميا : هو تصديق بالقلب يصل إلى مرتبة اليقين .. وهذا اليقين لن يتأتى إسلامياً ، إلا إذا سبقه شك ، يقود إليه ، عبر البحث وتجريب الفروض .. فإبراهيم الخليل عليه السلام ، يسأل ربه :

– [أرنى كيف تحيى الموتى] ؟ . .

– فيسأله ربه : [أولم تؤمن] ؟ . .

– فيجيب : ﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[7] :

ورسول الله ﷺ ، عندما يأتيه نفر من الصحابة دفعتهم الوساوس إلى الشك فى جوهر الدين .. حتى لقد استعظموا أن تنطق ألسنتهم بهذا الذى يجول فى صدورهم ، مفضلين عذاب النار على التصريح به ؟ ! .. رسول الله ﷺ ، يصف هذا « الشك » الذى يبحث أصحابه عن سبل اليقين ، بأنه « محض الإيمان .. وصريح الإيمان »[8] ، باعتبار ما سيقود ويفضى إليه ! .

لقد نظرت حضارتنا إلى هذا « الشك المنهجى » ، باعتباره

---

(٧) البقرة : ٢٦٠ .

(٨) رواه مسلم والإمام احمد .

ـ كما يقول الجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩ م] ـ علما ، يجب تعلمه كما نتعلم غيره من العلوم .. فهو يتوجه إلى قارئه قائلاً : « .. فاعرف مواضع الشك ، وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين ، والحالات الموجبة له . وتعلّم الشك فى المشكوك فيه تعلُّماً ، فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرّف التوقف ، ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه .. فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شك ، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك ! .. » (٩) .

● والفلسفة الغربية .. التى كانت ، منذ اليونان وحتى النهضة الأوروبية الحديثة ، سبيل العقل الغربى إلى زعزعة الإيمان بالدين .. قام أساسها فى حضارتنا على قواعد الدين ؟ ! .. حتى لقد سميت فلسفة أمتنا : « علم التوحيد » ! .. الأمر الذى استوقف المستشرقين ولفت منهم الأنظار ، فقال ـ بلسانهم ـ ألفريد جيوم ALfred Guilluume

: « إن قوة الحركة الاعتزالية ـ [التى صاغت علم الكلام الإسلامى] ـ مردها جهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما فى طوقهم **إقامة علم الكلام الإسلامى على أسس ثابتة من الفلسفة ، مصرين فى الوقت نفسه على أن تكون تلك**

---

(٩) [كتاب الحيوان] جـ ٦ ص ٣٥ ، ٣٦ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون طبعة القاهرة ، الثانية .

الأســس منطقيـة ، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة ، التى يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية » (١٠) .

● والعلوم الطبيعية .. التى وجدناها فى الحضارة الغربية تكرس أعظم الجهود والطاقات ـ بشكل مباشر أو غير مباشر ـ لتكوين « عقلية ملحدة » ، وذلك من خلال دراستها للعالم وكأنه عالم بلا خالق ، وتناولها للمادة وظواهرها من خلال الأسباب المادية المحسوسة وحدها ، دونما إشعار للدارس والقارىء أن هناك قوة غير ملموسة وراء هذه الأسباب الملموسة .. هذه العلوم الطبيعية ، لا نبالغ إذا قلنا إنها الأخرى تَدَيَّنَتْ فى حضارتنا العربية الإسلامية ! .. فهى قد درست وتم إبداع المسلمين بميادينها ، تحقيقاً لفريضة إلهية تدعو إلى النظر فى خلق السموات والأرض .. وليس التماساً لسبل تناهض الدين وتزعزع الإيمان .. ثم هى قد عرضت حقائقها وقوانينها لا كبرهان على إمكانية استغناء العقل بالعلم عن السمعيات والغيبيات .. وإنما باعتبار أنها خطوة على درب العلم الإنسانى الممتد إلى غير حدود .. والذى هو نسبى ، بالقياس إلى العلم المطلق الذى استأثر به الله ، سبحانه وتعالى ، ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥ ﴾(١١)

---

(١٠) [الفلسفة وعلم الكلام] ص ٣٧٩ . ترجمة جرجيس فتح الله . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ م ضمن كتاب [تراث الإسلام] بإشراف : سير توماس ارنولد .

(١١) الإسراء : ٨٥ .

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾[١٢] حتى لقد رأينامؤلفات علماء هذه العلوم فى حضارتنا تعرض للظواهر والحقائق والقوانين بروح الفقهاء والمتكلمين .. يبدأون بحمد الله ، والصلاة والسلام على رسوله .. وكذلك ينتهون .. ويؤكدون أن « الله أعلم » كلما فتح الله عليهم بفتح علمى جديد ! ..

فالتيفاشى [٥٨٠ ـ ٦٥١ هـ ـ ١١٨٤ ـ ١٢٥٣ م] عندما يكتب فى « الجيولوجيا » كتابه [أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار] يفتتحه بـ « الحمد لله . بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين »[١٣] .. كما يصنع الفقهاء والمتكلمون المسلمون ؟ ! .. وكذلك يصنع كل علماء العلوم الطبيعية فى حضارتنا الإسلامية .. والذين كان الكثيرون منهم علماء فى علوم الشريعة أيضاً ، فقهاً ، وكلاماً ، وتفسيراً ، وحديثاً .. بل ومتصوفة يعيشون تجارب المتصوفة ويسلكون طريقهم بالرياضات الروحية والمجاهدات ؟ ! .

والإمام الظاهرى ابن حزم الأندلسى [٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م] ـ وهو الفقيه والمتكلم ـ عندما يكتب فى « فن الحب ! » كتابه الفريد [طوق الحمامة فى الألفة والألاف] ، نراه يستفتح الحديث فى الحب بقوله : « بسم الله

---

(١٢) يوسف : ٧٦ .

(١٣) انظر ص ٣٧ من هذا الكتاب . طبعة القاهرة عام ١٩٧٧ م . تحقيق : د . محمد يوسف حسن ، د . محمود بسيونى خفاجى .

الرحمن الرحيم . وبه نستعين .. أفضل ما أبتدىء به حمد الله عز وجل بما هو أهله ، ثم الصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله خاصة ، وعلى جميع أنبيائه عامة »[١٤] .. وفى ختام كتابه هذا عن « الحب » يقول : « .. جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين ، آمين آمين . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً ! ..»[١٥] .. فكأنه يصنف فى الإلهيات .

نعم .. لقد تدينت كل العلوم فى حضارتنا الإسلامية .. فاشتغل بها علماؤها امتثالاً لأمر الله .. وجدوا السير على دروب اكتشاف أسرارها لتحقيق مهمة عمارة الكون تحقيقا لأمانة خلافة الإنسان عن الله .. ثم هم قد وظفوا حقائق هذه العلوم جميعها فى زيادة اليقين بالإيمان بالله .. فكان « العلم » مشتركاً إنسانياً فى سلوك الحضارات المختلفة سبيله ، والسعى على دربه ... ثم كان « تدين العلم » ، حتى ما تعلق منه بالطبيعة وظواهرها والفلسفة ومقولاتها ، خاصية من خصائص حضارتنا العربية الإسلامية ، افترقت فيها وبها عن حضارات أخرى ، وعن الحضارة الغربية على وجه الخصوص .

---

(١٤) انظر [رسائل ابن حزم] جـ ١ ص ٨٤ . تحقيق د . إحسان عباس . طبعة بيروت عام ١٩٨٠ م .

(١٥) المصدر السابق . ص ٣١٠ .

العقلانيـة الاسـلامية

لأن الإسلام دين الفطرة ، فلقد قضت أصول شريعته بامتناع أن يكلف الله الإنسان مالا يطيق﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(١٦) . وتأسيسا على هذه القاعدة قضى الإسلام بأن العقل هو مناط التكليف .. فلا تكليف ولا حساب على غير العاقل فى نظر الإسلام .

ولأن الرسالة والشريعة عامة لجمهور الخلق ، اقتضت حكمة الخالق – كى يرفع الحرج عن عباده – أن يهب كل مكلف من « العقل » الحد الذى ييسر له النهوض بضرورات التكليف .. فالناس يتفاوتون فى درجات العقل ، دون أن يفتقر صحيح مكلف إلى الحد الأدنى الذى يتيح له التمييز والوفاء بضرورات التكليف .

تلك خصيصة إنسانية عامة ، يستوى فيها البشر من كل القوميات والمعتقدات والحضارات .. ومع ذلك ، فإن مذاهب الحضارات فى الموقف من « العقل » ، ومقامه ، وسلطانه ، هى من الخصوصيات التى تتمايز فيها وبها بعض الحضارات .. وحضارتنا العربية الإسلامية متميزة فى عقلانيتها عن الحضارة الغربية تميزاً لا سبيل إلى إنكاره أو التشكيك فيه .

---

(١٦) البقرة : ٢٨٦

ففى الحضارة الغربية ، منذ تبلور فلسفتها فى الحقبة اليونانية وحتى نهضتها الحديثة ، تميز ويتميز موقفها من هذه القضية « بالثنائية » التى ميزت مواقف هذه الحضارة فى كثير من القضايا والمشكلات .

ففلسفتها وعلومها لم تعرف غير العقل وبراهينه سبيلاً ودليلاً تركن إليه وتستخلص به القوانين والمقولات .. فالفلسفة - فى المصطلح اليونانى - هى « تفسير المعرفة عقلياً .. هى الوقوف على حقائق الأشياء كلها بالبراهين العقلية » وحدها .. أى أن « العقل » هنا يتفرد وينفرد ، لا يزامله « نقل » ولا « وحى » ولا « مأثورات » .

ولقد كان طبيعياً أن يكون هذا هو الحال والموقف فى الحقبة اليونانية .. فالقوم قد أبدعوا مذاهبهم الفلسفية فى مجتمع وثنى لا يعرف « النقل » الدينى ، ولا « الوحى » الإلهى ، ولا « المأثورات » الشرعية .. فكان الاعتماد على « العقل » وبراهينه هو سند التفلسف الوحيد .

فلما جاءت حقبة النهضة الأوروبية الحديثة ، والتى كانت إحياء لتراثهم اليونانى فى الأسس والمنطلقات ، وجد رواد هذه النهضة وفلاسفتها أن اللاهوت الكنسى المسيحى إنما يمثل « نقلاً » لا أثر فيه للعقل ولا اعتماد له على براهينه ، فكان أن استمرت هذه « الثنائية .. الانشطارية » ، كخصيصة غربية فى هذا الميدان : « **لاهوت وإيمان » لا ينطلق من « العقل »**

و لا يتاسس على براهينه .. و« فلسفة وعلوم » لا تعرف غير « العقل » سبيلاً للبرهنة والاستدلال .. « فالعقل » و« النقل » مثلا خطان متوازيان ، لا يلتقيان .. لقد ظلت الفلسفة هى « تفسير المعرفة عقلياً . والوقوف على حقائق الأشياء كلها بالبراهين العقلية » وحدها .. كما ظل الإيمان والتدين غريباً عن طريق العقل وبراهينه .. وعلى حد تعبير القديس انسلم Anselme [١٠٣٣ ـ ١١٠٩ م] ـ وهو يعلم المتدين طريق تحصيل الإيمان الديني ـ : « يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك ، بدون نظر ، ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت ، فليس الإيمان فى حاجة إلى نظر عقل .. »(١٧) ! .

على هذا النحو كان موقف الحضارة الغربية من هذه القضية .. قضية « العقل » و« النقل » وعلاقة « الفلسفة » بـ « الدين » .. فعامة المتدينين سبيلهم إلى « الإيمان » النقل والوجدان وحدهما .. وصفوة العلماء والفلاسفة سبيلهم إلى العلم والفلسفة العقل الخالص والخالى من النقل والوجدان .

* * *

والأمر الذي يشهد على أن هذا الموقف من علاقة « العقل » بـ « النقل » ـ كما أشرنا ـ هو « خصيصة غربية » من

---

(١٧) الإمام محمد عبده [الاعمال الكاملة] جـ ٣ ص ٢٦٢ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ م .

خصائص الحضارة الغربية .. هو تميز حضارتنا العربية الإسلامية عنه وفيه فالعلاقة العضوية والمزاملة والإخاء ما بين « العقل » و« النقل » .. « الحكمة » و« الشريعة » هى من خصائص حضارتنا العربية الإسلامية ، كادت أن تجمع عليها ـ بدرجات متفاوتة ـ التيارات الفكرية الأساسية فى تراثنا الفكرى والحضارى .

● ففلسفة أمتنا ـ وهى « علم التوحيد ـ علم الكلام » ـ التى ابدعها وبلورها التيار العقلانى ـ وفرسانه « المعتزلة ـ أهل العدل والتوحيد » ـ هذه الفلسفة العقلانية قد انطلقت من القرآن وتأسست على « النقل » ، حتى لقد سميت بـ « علم أصول الدين » ! .

وكما سبق واشرنا ، فلقد لفتت هذه الخصوصية أنظار المستشرقين ، فنبهوا ـ فى استغراب ـ على نجاح التيار العقلانى الإسلامى فى تأسيس « **فلسفة منطقية .. تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية** »[18] ..

وبعض الناس ـ من الذين لا يدركون غير ما هو على نمط الثنائية الانشطارية الغربية يحسبون هذه الخصيصة العربية الإسلامية تلفيقاً لا عقلانياً .. على حين نراها نحن ـ كما رآها

---

(١٨) جيوم [الفلسفة وعلم الكلام] ص ٣٧٩ بحث منشور فى كتاب [تراث الإسلام] تحت اشراف أرنولد . ترجمة جرجيس فتح الله . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ م .

أسلافنا ـ بديهة فكرية تقتضيها الفطرة السليمة التى تفقه حقائق خصوصيات الإسلام .

فإذا كانت الألوهية هى جوهر الإيمان الديني ، فإن سبيل الإنسان إلى إدراك الألوهية هو « العقل » ، وليس النصوص ولا المأثورات .. لأن التسليم بصدق النصوص المقدسة ـ « النقل ـ الكتاب ـ السنة » ـ مترتب على التسليم بصدق الرسول الذى جاء بها .. والتسليم بصدق الرسول مترتب على التسليم بوجود الإله الذى أرسل هذا الرسول ، وأوحى إليه بهذا « النقل ـ الكتاب » .. فلا بد من الإيمان أولاً بوجود الإله ، المرسل والموحى ، والمؤيد للرسول بالمعجزة : ـ « النقل ـ الكتاب » ـ وسبيل ذلك هو « العقل » .. فهو طريق الإيمان ، وسبيل الإنسان إلى تحصيل جوهر الدين ! .

وإذا كانت أمتنا قد عبرت عن هذه « البديهة ـ الفلسفية ! » فى حكمتها الشعبية التى تقول : « ربنا ، عرفوه بالعقل » ؟! .. فإن فلاسفة الإسلام ، من علماء الكلام والتوحيد ، قد أفاضوا فى شرحها والحديث عنها .. وقاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد [٤١٥ هـ ١٠٢٤ م] ـ الذى يبلغ فى العقلانية الإسلامية مبلغ أرسطو [٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م] فى العقلانية اليونانية ! ـ يعرض لهذه القضية ، عندما يتحدث عن الأدلة التى يتخذها الإنسان سبلاً لتحصيل المعرفة وحقائقها وعلومها ، فيضع « العقل » فى مقدمة هذه الأدلة ـ **والعقل**

هنا ليس وحده ، كما هو الحال فى العقلانية اليونانية - الغربية .. وإنما معه « الكتاب » و« السنة » و « الإجماع » .. فالمؤاخاة والتزامل والعلاقة قائمة ومتحققة ، هنا بين « العقل » و « النقل » كسبيلين للبرهنة والاستدلال .

يقول القاضى عبد الجبار : « إن الأدلة ، أولها : دلالة العقل ، لأن به يميز بين الحسن والقبيح ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والإجماع .. »

ثم يناقش القاضى عبد الجبار هؤلاء الذين قد يتعجبون من هذا الترتيب للأدلة ، فينبه على أن تقديم « العقل » على « الكتاب » ليس تقديم « **تشريف** » ، وإنما هو تقديم « **ترتيب** » .. فالخارج من منزله يسعى إلى « المسجد » ، لابد وأن يصل « إلمسجد » عبر « الطريق » ، فالمرور « بالطريق » قبل « المسجد » ، لا يعنى تفضيل الأول وتشريفه على الثانى ، وإنما هو الترتيب المنطقى للأمور ! .. يناقش القاضى عبد الجبار هذه القضية فيقول مستطرداً : « .. وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم ، فيظن أن الأدلة هى : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، فقط ، أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر ، وليس كذلك ، **لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والإجماع ، فهو أصل فى هذا الباب** . وإن كنا نقول : إن الكتاب هو الأصل ، من حيث أن فيه « التنبيه على

ما فى العقول ، كما أن فيه الأدلة على الأحكام . وبالعقل يميز بين أحكام الأفعال وبين أحكام الفاعلين ، ولولاه لما عرفنا من يؤاخذ بما يتركه أو بما يأتيه ، ومن يحمد ومن يذم ، ولذلك تزول المؤاخذة عمن لا عقل له . ومتى عرفنا بالعقل ، إلها منفرداً بالإلهية ، وعرفناه حكيماً ، نعلم فى كتابه أنه دلالة ، ومتى عرفناه مرسلاً للرسول ، ومميزاً له ، بالأعلام المعجزة ، من الكاذبين ، علمنا أن قول الرسول حجة ، وإذا قال ﷺ : « لا تجتمع أمتى على خطأ .. وعليكم بالجماعة »[19] .. علمنا أن الإجماع حجة .. »[20] .

فالعقلانية هنا عقلانية إسلامية ، تتميز بها حضارتنا العربية الإسلامية عن الحضارة الغربية ، لأن مصدرها ومنطلقها وسبيلها ليس برهان العقل وحده ، وإنما معه فى ذلك « النقل .. والوحى .. والمأثور » .. فالتميز قائم فى المكونات والمنطلقات ، كما هو قائم فى الثمرات ! ..

وإذا كانت « الشريعة » فى لاهوت الحضارة الغربية « نقلية .. سمعية .. وجدانية » ، لا أثر فيها لبراهين العقل .. فإن حضارتنا قد عرفت فى شريعتها : « العقلى »

---

(١٩) فى الترمذى والدارمى والإمام احمد « إن الله لا يجمع أمتى على ضلالة » وفى البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم » .

(٢٠) [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] ص ١٢٧ تحقيق · فؤاد سيد . طبعة تونس عام ١٩٧٢ م

و« السمعى » .. وحددت عقلانيتها أن العقل هو السبيل إلى معرفة الأصول الشرعية .. وبعبارة الماوردى [٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ ـ ٩٧٤ ـ ١٠٥٨ م] « فإن السبب المؤدى إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها شيئان :

أحدهما : علم الحس ، وهو العقل ، **لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول ، إذ ليس تعرف الأصول إلا بحجج العقول ..**

وثانيهما : معرفة لسان العرب ـ وهو معتبر فى حجج السمع خاصة .. »[٢١] ..

بل لقد وجدنا فى تراثنا العقلانى من تحدثوا عن « شريعة عقلية » ، يدركها ذوو العقول ، دون حاجة إلى « السمعيات » ، ثم تأتى السمعيات لتؤكد ما أدركته منها العقول ، ولتحدد الأحكام التى لا تستقل العقول بإدراكها ـ وكذلك مقاديرها وأوقاتها ـ ومثلها فى ذلك « الغيبيات » التى يستأثر بأخبارها الوحى والنقل والمأثورات .. ووجدنا الاتفاق على أن الإلهيات ، فى شريعتنا وحضارتنا ، هى من « فن المعقولات »[٢٢] .

وإذا كانت الحضارة الغربية قد استبعدت « الروح

---

(٢١) [أدب القاضى] جـ ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ . طبعة بغداد عام ١٩٧١ .

(٢٢) التهانوى [كشاف اصطلاحات الفنون] جـ ١ ص ٤٦ ـ ٦٢ طبعة القاهرة عام ١٩٦٣ م

الإيمانية » من نطاق العلوم الطبيعية والتجريبية ، استبعادها « للعقلانية » من نطاق اللاهوت والإيمان .. فإن العقلانية الإسلامية فى حضارتنا قد سلكت الطريق « المتميز » ـ على صعوبته ـ فجمعت بينهما .. وشاعت الكتابات المعبرة عن هذه الخصوصية فى تراثنا الفكرى .. من مثل تلك التى تمثلها عبارة الجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩ م] التى يقول فيها عن علاقة الفلسفة الدينية ـ علم التوحيد ـ الكلام ـ بالعلوم الطبيعية ـ والقوى الذاتية المودعة فى المادة ـ القوانين ـ الطبائع ـ .. « **وليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام ، متمكناً من الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة** . والعالم عندنا هو الذى يجمعها ، والمصيب هو الذى يجمع تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال . ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام فى التوحيد ، وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصلح إذا قرنها بالتوحيد ، ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام فى الطبائع . وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوافر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع ، لأن فى رفع أعمالها رفع أعيانها ، وإذا كانت الأعيان هى الدالة على الله ، فرفعت الدليل ، فقد أبطلت المدلول عليه ! .. ولعمرى إن فى الجمع بينهما لبعض الشدة ؟! .. وأنا

أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتى باب من الكلام صعب المدخل ، نقضت ركنا من أركان مقالتى ، ومن كان كذلك لم ينتفع به ! .. »[٢٣] .

فعلى حين كانت « الطبائع » ، واكتشاف « القوى الطبيعية » فى المادة ، سبيل الحضارة الغربية وعقلانيتها إلى الإلحاد وإنكار إبداع الله ، بل ووجوده .. كان ذلك فى حضارتنا ، الدليل على وجود الله .. لأن رفع ـ أى إلغاء ـ اعمالها ، هو رفع ـ وإلغاء ـ لأعيانها .. وهذه الأعيان هى الدالة ـ كمصنوعات ـ على وجود الصانع القادر ، سبحانه وتعالى ! ..

ولذلك ، جاءت كلمات أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨ م] فى هذا المقام جامعة ومعبرة ، عندما قال : « إنا ، معشر المسلمين ، نعلم ، على القطع ، أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له .. أعنى أن الحكمة هى صاحبة الشريعة ،والأخت الرضيعة .. »[٢٤] ! ..

* * *

---

(٢٣) [كتاب الحيوان] جـ ٢ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢٤) [فصل المقال بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٣١ ، ٣٢ ، ٦٧ . تحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت عام ١٩٨١ م

وإذا كانت هذه هى حقيقة تميز حضارتنا العربية الإسلامية ، فى عقلانيتها ، عن نظيرتها فى الحضارة الغربية ، وأدلة انفراد حضارتنا « بخصوصيتها الحضارية » فى العقلانية ، رغم « المشترك الإنسانى » فى اعتماد العقل أداة للنظر والبحث والاستدلال .. فإن هذه الحقيقة ، الشاهدة على هذه الخصوصية ، لابد وأن تؤكد لنا « أصالة » مذهبنا فى العقل والعقلانية ، وأن تنفى ذلك الزعم الاستشراقى القائل : إن عقلانيتنا الإسلامية لا تعدو أن تكون أثراً من آثار عقلانية اليونان ! .. فإذا كان هذا هو مبلغ الاختلاف بينهما ، فكيف يكونان نمطاً واحداً ومذهباً فرداً ؟ ! .

وغير هذا الاستدلال المنطقى على أصالة وتميز عقلانيتنا الإسلامية .. فإن هناك أدلة أخرى تشهد لهذا الذى نقول .

● فالقرآن الكريم ـ معجزة الإسلام العظمى ـ رغم أنه هو « النقل » ـ إلا أنه قد جاء « معجزة عقلية » ، جسدت الوحدة الجدلية بين « العقل » و« النقل » فى الأساس الجامع الذى ولدت من بين دفتيه حضارتنا .. فالعقل فيه هو مناط التكليف .. وهو الحكم الحاكم فى رد المتشابه من آياته إلى المحكمات ، بتأويل الراسخين فى العلم .

وإذا كان « العقل » فى المصطلح العربى ليس عضواً من أعضاء الجسم الإنسانى ، وإنما هو فعل التعقل .. و « جوهر مجرد عن المادة فى ذاته مقارن لها فى فعله .. يتعلق

بالبدن تعلق التدبير والتصرف .. يدرك الغائيات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة .. »[٢٥] ... فإن مادة هذا المصطلح ، التى تتحدث عن عملية « التعقل » قد وردت فى القرآن الكريم فى مائتين وسبع وستين موضعاً .. تسعة وأربعون منها بلفظ المادة « عقل » .. وتسعة عشر بلفظ « الحكمة » .. وستة عشر بلفظ « اللب » - أى الجوهر - فالعقل هو لب الإنسان وجوهره المميز له عن غيره من المخلوقات .. وموضعان بلفظ « النُّهى » .. وأربعة مواضع بلفظ « التدبر » .. وسبعة مواضع بلفظ « الاعتبار » .. وعشرون موضعاً بلفظ « الفقه » .. وثمانية عشر موضعاً بلفظ « التفكر » .. ومائة واثنان وثلاثين موضعاً بلفظ « القلب » الذى به يفقهون ويعقلون ويتدبرون ! ..

● وكذلك صنعت السنة النبوية الشريفة ، عندما زخرت أحاديثها بذكر العقل والحكمة والتفكر والتدبر .. وكل المصطلحات التى جاءت فى القرآن دالة على عملية التعقل والتدبر والتفكير .. فمن قول النبي ﷺ : « .. العقل أصل دينى » .. إلى قوله : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن »[٢٦] .. و« نعم المجلس مجلس ينشر فيه الحكمة .. »[٢٧] .. إلى قوله :

---

(٢٥) [التعريفات] للشريف الجرجانى طبعة القاهرة عام ١٩٣٨ م - مادة « عقل » - .

(٢٦) رواه الترمذى وابن ماجة .

(٢٧) رواه الدارمى .

« عليكم بالقرآن ، فإنه فهم العقل ، ونور الحكمة ، وينابيع العلم ، وأحدث الكتب بالرحمن عهداً .. »[٢٨] .

● ولذلك ، فانطلاقاً من القرآن والسنة .. واستجابة لضرورة تاريخية وواقعية وحضارية ، تمثلت فى الحاجة إلى استخدام البرهان العقلى فى عرض حجج الإسلام والدفاع عنه تجاه المؤسسات اللاهوتية المسيحية واليهودية ومذاهب الغنوص[٢٩] والمجوس ، التى كانت تستخدم المنطق الأرسطى فى الدفاع عن مذاهبها ، التى تركها الإسلام قائمة وترك أصحابها بمنجاة من الإكراه الديني ، وفق القاعدة الإسلامية الحاكمة ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [٣٠]

.. استجابة لهذه الضرورة التاريخية ، انطلق المتكلمون المسلمون من القرآن والسنة فأبدعوا العقلانية الإسلامية ، التى استوت مذهباً مكتملاً على يد مدرسة « أهل العدل والتوحيد » منذ النصف الثانى من القرن الأول

---

(٢٨) رواه الدارمى .

(٢٩) الغنوصية ، نسبة إلى « غنوصيص » ، اى « المعرفة » . وهى نزعة فلسفية ودينية ، ، ازدهرت فى المناخ الحضارى الهليني ، وفكرتها المحورية قائمة على أن « المعرفة » هى طريق الخلاص ، وليس الإيمان الديني ، سواء اكانت النصوص او العقل او هما معاً سبيل هذا الإيمان .. وإذا جاز للغنوصية ان تكون سبيل الخلاص للقلة التى تسلك طريق التجربة الروحية الذاتية سبيلاً للخلاص بالمعرفة ـ كالصوفية مثلاً ـ فإن اعتمادها كطريق لخلاص الجمهور ـ الذى هو هدف الشريعة ـ يؤدى إلى إفساد عقائدهم ، دون تقديم البديل الذى يحسنونه ويقدرون عليه .

(٣٠) البقرة : ٢٥٦ .

الهجرى ، وقبل ترجمة الفلسفة اليونانية ، التى لم يعرفها العرب قبل الفيلسوف الكندى [٢٦٠ هـ ـ ٨٧٣ م] وعصر الخليفة المأمون [١٧٠ ـ ٢١٨ هـ ـ ٧٨٦ ـ ٨٣٣ م] .

لقد بدأت هذه العقلانية الإسلامية المتميزة فى التبلور ، إنطلاقاً من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، منذ أواخر عصر الصحابة وأوائل عهد التابعين .. ونحن نقرأ فى كتب السنة ، كيف ذهب بعض التابعين إلى الصحابى عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، يسألونه عن مذهب فريق من أهل النظر ، لا يقفون عند ظواهر النصوص القرآنية ، وإنما هم يبحثون عن غامضه ، ويستخرجون خفيه .. فقالوا له : « يا أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قِبَلَنَا ـ [أى فى البصرة] ـ ناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم .. »(٣١) .. أى يتتبعون العلم ويطلبونه ، فيأتون بالغامض ويستخرجون الخفى الغريب ، من قعر النصوص وما وراء ظواهر الآيات .. فلا يقفون عند حدود « القراء » ، وإنما يذهبون مذاهب « الحكماء » ! ..

ولم يكن هذا النظر الفلسفى الإسلامى ، المنطلق من « النقل » القرآنى ، بمقاييس الإسلام ، بدعاً ولا شاذا .. فرسول الله ﷺ هو الذى علمنا ضرورة غوص الراسخين فى

---

(٣١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

العلم على المعانى الكامنة خلف ظواهر آيات القرآن ، وذلك بـ « تثوير » القراءة للقرآن ، أى الغوص وراء معانيه ! .. فقال ﷺ : « من أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن » وقال : « أثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين » ! .. والثورة والتثوير - قرآنياً وعربياً - تعنى قلب الظاهر وتجاوزه إلى العمق .. فبقرة بنى إسرائيل كانت ﴿ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾ (٣٢) .. أى لا تحرثها .. والحرث هو الانقلاب فى الأرض ، لتجاوز الظواهر إلى الأعماق ! ..

هكذا ، انطلقت حضارتنا من منابعها الفكرية الأصلية ، ومن واقع الضرورات التى جابهت الإسلام بعد فتح البلاد ذات المواريث الحضارية العقلانية ، فأبدعت عقلانيتها الإسلامية المتميزة « كخصوصية حضارية » رغم ما يمثله « العقل » ، كأداة نظر ، من « مشترك إنسانى عام » .

وإذا كان شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء أبو العلاء المعرى [٣٦٣ - ٤٤٩ هـ ٩٧٣ - ١٠٥٧ م] قد قال :

الناس صنفان ، ذو عقل بلا دين وآخر دَيِّنٌ لا عقل له !

فإن « الناس » هنا ، الذين يصنعون هذا التقسيم ، وهذه

---

(٣٢) البقرة : ٧١ .

الثنائية ، هم « العوام » ، وأكثرهم ـ بمعايير النظر ـ لا يعقلون ! ..

أما أهل الفكر والنظر ، فى حضارتنا ، فلقد أبدعوا عقلانيتنا الإسلامية ، التى جمعت بين الحكمة والشريعة ، بين العقل والدين .. وفيها تفلسف الدين وتدينت الفلسفة ! .. فقول المعرى هو نقد للانحراف عن هذا النهج ، وليس تقريراً لطبيعة الأمر فى حضارتنا ، كما يحسب الذين لا يعقلون ! .

ويشهد على ذلك ، أن أصحاب المذاهب النصوصية ، الذين اتخذوا موقف العداء من العقل وأدواته فى تراثنا ـ والإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ ـ ٢٤١ هـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م] فى مقدمتهم ـ سرعان ما تبنى خلفاؤهم فى ذات المذهب قدراً من العقلانية طويت به صفحة المنهج النصوصى إلى حد كبير .. فبعد الإمام أحمد ، الذى وقف عند النصوص وحدها ، ورفض التأويل والقياس فى أغلب الأحيان .. جاء شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م] الذى عقد المصالحة ما بين « العقل »

و« النقل » ، وحكم بضرورة الوفاق والاتفاق ما بين « صريح المعقول وصحيح المنقول » .. فكان ذلك شاهدا على أن « النصوصية الخالصة » ، فى تراثنا ، لم تكن إلا نتوءا عارضاً أفرزته خصوصيات آنية من الظروف والملابسات ..

وكذلك صنعت حركة الإحياء والتجديد التى بدأت بجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م] والإمام محمد عبده [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] عندما طوت صفحة « الجمود النصوصى » التى سادت فى حقبة حكم المماليك والعثمانيين .

القومية بين

« المذهب » و « دائرة الانتماء »

فطرة فطر الله الناس ـ كل الناس ـ عليها ـ على اختلاف الأجناس والألوان والحضارات .. حب الإنسان لأهله وعشيرته وقومه وأمته .. وهو حب فيه الكثير من معانى الانتماء والولاء .. يولد وينمو كثمرة لعديد من العوامل والأسباب والمكونات ، المادية والمعنوية .. فالألفة مع المكان والناس عامل من عوامل هذا الحب ، ترسب فى النفس وتراكم فى الوعى واللاوعى ، وعلى مر الأيام ، مكونات هذا الحب والولاء والانتماء . والوعى بتراث الأسلاف الفكرى وإبداعهم المادى ، وذكريات صراعهم مع أعداء الأهل والقوم والأمة والوطن .. وما فى هذا الصراع من انتصارات وتقدم ، أو هزائم وتراجع ـ يضيف إلى الحصيلة الذاتية رصيداً ينمى هذا الحب والولاء والانتماء .. ومشاركة الإنسان وإسهاماته فى صنع حاضر أهله وقومه وأمته ووطنه ، وكذلك فى تشكيل صورة المستقبل ، يزيد من رصيد هذا الحب والولاء والانتماء .. وكذلك يصنع وفاء الأهل والعشيرة والقوم والأمة والوطن بما يجب عليهم إزاء الإنسان ، من حقوق له عليهم وواجبات عليهم نحوه .. فهذا الوفاء بحقوق الإنسان على أمته ووطنه يزيل أسباب « غربته » عن محيطه ، وينفى عوامل

« اغترابه » عن الوطن الذي يعيش فيه ، وذلك بتحقيق « المضمون » لفكرة المواطنة وشعارات الانتماء .. ولقد صدق الإمام على بن أبى طالب عندما أصاب كبد الحقيقة فى هذه القضية فقال : « **إن الغنىٰ فى الغربة وطن .. والفقر فى الوطن غربة .. وإن المقل غريب فى بلدته** » ؟ ! ..

لكن النفوس السليمة ، التى لم يفسد فيها صفاء الفطرة التى فطرها الله عليها فى العلاقة بالأهل والعشيرة والقوم والأمة والوطن ، حتى وإن أصاب النقصان درجة انتمائها وولائها وحبها لمحيط الأهل والقوم والوطن ، بسبب تخلف العوامل التى تنمى وتزيد هذا الحب والانتماء .. فإنها لا تستطيع أبداً أن تتجرد منه فتسقط هذه الدائرة من الحساب والحسبان .. فقسوة الأهل أو العشيرة .. وظلم النظم السائدة فى الوطن وإجحافها بحقوق الإنسان ، لا يدفع بأصحاب الفطرة الإنسانية السليمة إلى قطع العلائق كلية ، ولا إلى الكفران بهذا الانتماء .. بل قد يكون ذلك دافعاً إلى الجهاد لتصحيح الأخطاء القائمة والجور السائد ، بدافع تخليص هذا المحيط المحبوب من النواقص والسلبيات ، تمكيناً للعوامل الطبيعية والفطرية من أداء دورها فى تنمية الحب وزيادة الانتماء وتعميق الولاء للأهل والعشيرة والقوم والأمة والوطن ... وعن هذه الحقيقة عبر الشاعر بقوله :

بلادى ، وإن جارت علىّ عزيزة ..
وأهلى ، وإن ضنوا علىّ كرام !

ومن قبل ذلك ، تعلمنا هذه الحقيقة الفطرية الإنسانية من رسول الله ﷺ الذى لم يدعه كفران أهل مكة برسالته ، وإهانتهم لذاته الشريفة وتعذيبهم للقلة المؤمنة المستضعفة التى اهتدت إلى الإسلام ، ومحاصرتهم دعوته حصاراً فظاً وعنيفاً ومحكماً كاد أن يخنقها ... لم يدعه كل ذلك إلى أن يغفل ، فى اللحظة الحرجة التى هم فيها بمغادرة مكة ، سراً متخفياً ، ليلة هجرته إلى المدينة فرارا بدعوته من هذا الحصار الفظ والعداء الغليظ والحرب الشاملة .. لم يدعه كل ذلك إلى أن يغفل عن الإعلان عن هذه الفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس ـ كل الناس ـ عليها .. فطرة الحب والولاء والانتماء للمحيط وأهله ، والمجتمع وقومه ، والوطن وأمته .. فرنا ببصره الشريف إلى مكة وشعابها فى لحظة الوداع ، وخاطبها فقال :

« والله إنى أعلم أنك أحب بلاد الله إلى قلبي ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت ! .. » .

فهى ، وإن جارت عليه ، عزيزة .. بل أحب بلاد الله إلى قلبه ، عليه الصلاة والسلام .. بل لقد كان ، وهو بالمدينة ، المؤمنة ، يحن إلى مكة وشعابها ومراتع صباه فى دروبها ومواطن ذكرياته فى أنحائها ، حتى قبل أن تفتح ، ويدخل أهلها فى دين الله .. وكان يطلب إلى الله أن يحبب إليه المدينة ، كى لا تستأثر مكة بحب الوطن لديه .. وعندما قدم الصحابى أصيل بن عبد الله الهذلى من مكة إلى المدينة ، حرص

النبي ﷺ - كعادته مع القادمين منها - على معرفة آخر أحوالها وأحدث تطوراتها ووصف الجديد من معالمها ! .. فسأله :

ـــ « يا أصيل ، كيف عهدت مكة ؟ ! »

فلما وصف له أصيل شعابها ودروبها وأشجارها وثمارها ! .. تملكه الحنين الشديد ، حتى بلغ مبلغ الحزن على فراقها .. فأوقف أصيل عن الاسترسال ، قائلاً :

ـــ « حسبك يا أصيل .. دع القلوب تَقَرّ ! .. لا تحزنا ؟ ! .. »[٣٣]

تلك ، إذن ، فطرة إنسانية ، فطر الله الناس - كل الناس - عليها ، يستوى فى ذلك البشر أجمعون ، من كل الأجناس والألوان والحضارات ، أن تنعقد أواصر وأسباب وخيوط الحب والانتماء والولاء بين الإنسان وأهله وعشيرته وقومه وأمته ووطنه .

إنه « مشترك إنسانى عام » ..

* * *

لكن الحضارة الغربية ، مع هذا الاشتراك والعموم فى هذه السمة .. قد تميزت بمميزات فى الفكر القومى وممارساته ،

---

(٣٣) ابن الأثير [أسد الغابة فى معرفة الصحابة] جـ ١ ص ١٢١ ، ١٢٢ . طبعة دار الشعب . القاهرة ود . محمد عمارة [الإسلام والعروبة والعلمانية] ص ١٧١ . طبعة بيروت عام ١٩٨١ م .

لا نراها متسقة مع نظائرها فى فكر حضارتنا العربية الإسلامية فى ذات الموضوع ، ثم هى قد حملت خصائصها السلبية هذه ، ضمن فكرية التغريب ، لتغزو بها العقل العربى والمسلم ، محاولة جعله يتبنى مفهومها فى « القومية » و« الأمة » والولاء والانتماء .

وهذه « الخصائص الغربية » فى « القومية » و« الأمة » ، ليست ، بالطبع ، وليدة « ابتداع » غربى ، وإنما هى ثمرة طبيعية لتطور متميز عن تطورنا نحن ، ونتيجة منطقية لتميز الحضارة الغربية عن حضارتنا العربية الإسلامية فى عدد من القسمات والسمات .. فهى ، من ثم ، وإن كانت طبيعية فى الإطار الغربى ، فإن زرعها فى محيطنا تعسف يأباه المنهج العلمى السليم .

لقد تشكلت الأمم والقوميات ، وقامت « الدول القومية » فى إطار الحضارة الغربية ، فى العصر الحديث .. وارتبط ذلك - وفق كل مذاهب الفكر الغربى - بنمو الطبقة الوسطى الجديدة - البورجوازية - وانحلال الرابطة العامة - التوحيدية - التى كانت تربط الغرب بالكنيسة ، واللاتينية ، ونظام الإقطاع ، فكان تكون الأمم والقوميات ، وسيادة لغاتها المتعددة ، ونشأة دولها المختلفة ، ظاهرة انسلاخية تجزيئية عن الكيان الواحد والعام .. وكما لعبت « اللهجات » التى تحولت إلى « لغات قومية » دورها فى

رسم حدود هذه الانسلاخات القومية ، كذلك لعبت « السوق الاقتصادية » للطبقة البورجوازية دوراً رئيسياً فى تحديد معالم هذه الحدود ، الأمر الذى جعل أغلب هذه الأمم والقوميات تولد من « رحم الصراع المادى » على الموارد والامكانات والزبائن والمواد الخام .. فكان أن طُبعت مذاهب الغرب فى الفكر القومى بالتعصب ، الذى استخدم العنصرية وعوامل الافتراق وأسباب التميز فى شحن جماهير كل قومية بالكراهية تجاه جماهير القوميات الأخرى .. وساعد على ذلك ـ بدلاً من أن يحد من آثاره ـ الطابع المادى للحضارة الغربية الواحدة .. ووقوف التدين بالمسيحية هناك عند « الشكل » .. فلم تفلح وحدة الحضارة ـ لأنها مادية ـ ولا وحدة الإيمان بالمسيحية ـ لوقوفه عند شكل التدين ـ فى تخليص مسيرة الغرب القومية ، والمخاض الذى ولدت أممه من خلاله ، من العنصرية والتعصب والبحث عن عوامل التميز ومبررات التجزئة والانسلاخ .

فالصراع بين فرنسا وألمانيا على مقاطعتى الإلزاس واللورين ، مثلاً ، كان المنبع للمشاعر القومية فى الأمتين ، والمكون لمذهب كل منهما فى الفكر القومى .. فلأن لغة المقاطعتين هى الألمانية ، أقام الألمان مذهبهم فى القومية والأمة على عامل اللغة وحدها ، أو بالدرجة الأولى .. ولأن أهل المقاطعتين ـ إبان تبلور الفكر القومى فى الدولتين ـ كانوا

يعيشون فى كنف فرنسا ، أقام الفرنسيون مذهبهم فى القومية على « الإرادة » ، لأن إرادة سكان الإلزاس واللورين كانت العيش فى إطار الوطن الفرنسى .. فكان هذا الصراع ، ذا الطابع الانسلاخى ، والغارق فى المطامع المادية هو الرحم الذى كون فكر ألمانيا وفرنسا ـ بل وفكر أمم الحضارة الغربية ـ فى القومية ، شروطاً وسمات ، منطلقات وغايات ! ..

وعلى عكس هذه « الخصوصية الغربية » فى نشأة القوميات ، وأسباب هذه النشأة ، واتجاه ريح هذه الظاهرة ، والفكر المكون لمذاهب الغرب فيها .. على عكس كل ذلك كانت خصوصية حضارتنا العربية الإسلامية ومسيرتها التاريخية فى هذا الموضوع .

● فنشأة الأمة فى مسيرتنا الحضارية ليست ظاهرة حديثة ارتبطت بسيادة الطبقة الوسطى فى العصر الحديث .. فأمتنا قد اكتسبت وحدة اللغة والعادات والتقاليد ، ووحدة الانتماء لتراث واحد ، والولاء لتكوين فكرى واحد ، وامتلاك الوطن المتحد ، ذى الاقتصاد المشترك أو المتكامل .. منذ تاريخ قديم .. لقد بدأت هذه المسيرة عندما أقامت الفتوحات العربية دولة الخلافة قبل أربعة عشر قرناً .

● واتجاه هذه الظاهرة فى نشأة أمتنا ، لم يكن ـ كحاله فى الغرب ـ اتجاهاً إلى الانسلاخ والتميز والتجزئة .. بل كان على العكس من ذلك تماماً ، فهذه الأمة العربية الإسلامية قد ولدت

من بين دفتى القرآن الكريم ، وتبلورت كهبة من هبات الإسلام ! .. ولقد جاء الوحى بهذا الكتاب إلى « الفرد » المصطفى ﷺ .. فكلفه إبلاغ الرسالة ، فكانت المسيرة :

إنذار العشيرة الأقربين .. ثم دعوة قومه العرب .. ثم دمج الموالى فى العرب ، ليصبحوا ، بالولاء للعروبة الحضارية والثقافية . وبالإنتماء للإسلام امة واحدة .. ثم بإدخال غير العرب ـ من الشعوب التى أسلمت ـ مع القبائل العربية ـ بالتعارف ، ووحدة العقيدة ، والمثل الحضارية ، والأصول والفلسفات ، والقيم والأعراف ـ فى إطار أمة وجنسية وقومية الإسلام .. فكل الذين شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قد غدوا ـ على اختلاف الأجناس والألوان ـ خيوطا فى نسيج الأمة الواحدة ، والدائم الاتساع ، والذى ينمو ويتحقق باستمرار .. فمن الفرد المصطفى ﷺ إلى العشيرة الأقرب .. إلى القوم القريبين .. إلى توسيع نطاق العروبة ـ بتغيير مفهومها ومعيارها ـ لتشمل الموالى .. إلى دمج الشعوب المسلمة مع القبائل العربية ـ بالتعارف ـ فى أمة واحدة ، ذات حضارة متحدة .. كانت مسيرة التكوين لأمتنا ، وكان اتجاه ريح الظاهرة القومية فى حضارتنا نحو الامتداد والاستيعاب والتحقق الدائم ، وليس باتجاه التشرذم والتجزئة والانسلاخ ! ..

● ولذلك . فلقد وجدنا تعريف الأمة ، فى تراثنا الحضارى ، متميزاً عن تعريفها فى الفكر القومى الغربى . فلقد اجتمعت مذاهب الفكر القومى الغربى ، على اختلافها ، اجتمعت على تضمين تعريف الأمة والقومية الشروط التى تجعل هذا التعريف جامعاً مانعاً ، لأنها كانت تبحث عن عوامل التميز وأسباب الاختلاف ومبررات الانسلاخ .. أما فى تراثنا اللغوى والحضارى ، فلقد وقف تعريف الأمة ومضمونها عند حدود « الجماعة » .. أية جماعة يربطها رابط بعينه ويجمعها جامع ما .. لأن البحث قد كان عن عوامل التأليف ، لا الفصل ، وأسباب الربط ، لا التجزئة ، وخيوط الوحدة ، لا الانسلاخ ... وكذلك كان تعريف « القوم » ـ وإليه تنسب القومية .. فالقوم بمعنى الإقامة فى المكان ، فكل الذين تقيم معهم ويقيمون معك ، والذين تكسبهم هذه الإقامة فى المكان ـ وطن الأمة ـ الرباط الجامع للأمة ، هم قومك وقوميتك ، فى اصطلاح حضارتنا العربية الإسلامية .

وأنت إذا نظرت فى القرآن الكريم ستجد هذا المضمون المرن لمصطلح « الأمة » فى المواطن التى ورد فيها ، والتى تبلغ أربعة وستين موضعاً .. ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾[٣٤] .. فجامع « الأمة » هو رباط

---

(٣٤) البقرة . ١٢٨ .

إسلام الوجه لله .. ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ .. ﴾(٣٥) .. ورباطها هو أنها جماعة الدعوة ..

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾(٣٦)

فرباط الجماعة هنا التواجد على بئر الماء طلباً للسقى .. فكانت هذه المرونة التى تميز بها مصطلح الأمة فى القرآن الكريم - وكذلك فى السنة النبوية ، والشعر العربى ، ومعاجمنا اللغوية - وثيق الصلة وبالغ الدلالة على النمط المتميز لمسيرة تبلور الأمة فى حضارتنا .. **أمة دائمة النمو ، باحثة عن الروابط الجامعة المؤلفة ، دائمة التحقق والانفتاح والاستيعاب .**

● وعلى عكس موقف الفكر القومى الغربى من الرابطة الدينية الجامعة والرباط الإيمانى الأشمل كان موقف فكرنا القومى من جامعة الإسلام .. فقومية الغرب كانت ولا تزال علمانية ، تنحى الدين جانباً ، ولا تعترف به مكونا من مكوناتها ولا قسمة من قسماتها ، لأن هذه القومية الغربية كانت كتيبة من كتائب النهضة الغربية الحديثة الثائرة على كهانة الكنيسة الغربية وكهنوت المسيحية الغربية ، الذى

---

(٣٥) يونس : ٤٧ .

(٣٦) القصص : ٢٣ .

أصاب أوروبا بالانحطاط عندما أضفى قداسة الدين وثباته على متغيرات الدنيا ، سياسة واجتماعاً واقتصاداً وفكراً .. ولأن هذه القومية الغربية ـ كما أشرنا ـ كانت حركة انسلاخية عن الرابطة المسيحية الأشمل ... ولذلك فلقد تراوح موقف القومية الغربية من الدين والتدين ما بين الإسقاط والعزل ، كما في القوميات البورجوازية ، ومذاهبها الفكرية .. وما بين العداء والسعى إلى الاقتلاع ، كما في الممارسات الشمولية الماركسية المادية .. التى وقفت حتى من القومية ـ بمفهومها الليبرالى البورجوازى ـ موقف العداء .

على عكس هذا الموقف كانت علاقة القومية ، في حضارتنا ، بالإسلام ، فكراً دينياً وحضارياً ، وجامعة تضم كل المؤمنين بالإسلام .

فالقومية ، في الإطار الحضارى الإسلامى ، ليست مذهباً فكرياً ولا هى أيديولوچية مذهبية ، حتى نتصور قيام التناقض بينها وبين الإسلام ، الذى هو فكرية الأمة وأيديولوچيتها .. وإنما القومية دائرة من دوائر الانتماء ، يثمرها ويحددها الواقع ، الذى لا يلغيه الإسلام ولا يقفز عليه .. وإذا كان الإسلام هو دين الفطرة ، واستفتى المسلم فطرته السليمة ، فإنه واجد نفسه منتمياً إلى الإقليم والوطن الذى تربطه به أخص الروابط والذكريات .. ثم إلى الوطن القومى الذى تحقق

له وحدة اللغة قدراً أكبر من التفاعل بين الذين يتكلمون هذه اللغة الواحدة .. ثم إلى الوطن الإسلامى العام الذى يجمع عبر المحيط الإسلامى الأشمل كل الجزر القومية التى يحتضنها هذا المحيط .. فهى دوائر انتماء تلى كل منها الأخرى ، تبدأ من الأخص ، إلى الخاص ، إلى العام .. بل وتمتد بها العلائق والخيوط إلى المحيط الإنسانى الأعم الذى يربط الإنسان ، عبر « الوطن » الإقليمي ، فالوطن القومى ، فالوطن الإسلامى ، بكل بنى الإنسان .. دون أن يكون هناك تناقض أو تضاد بين هذه الدوائر والحلقات .

ويزيد هذه الحقيقة عمقاً وجلاء ما يمكن أن نسميه : **المضمون الإسلامى المتميز لمصطلح القومية ..** هذا المضمون الذى مكن جامعة الإسلام من أن تمثل « القومية الإسلامية العامة » التى تحتضن « القوميات الخاصة » للأقوام الذين يتدينون بالإسلام .. وإذا شئنا نموذجاً نسبر به غور هذه الحقيقة . فإن فى إبراز المفهوم الإسلامى للعروبة ، ومن ثم لدائرة الانتماء العربية السبيل لجلاء هذه الحقيقة التى تميزت بها قوميتنا عن نظائرها فى الحضارة الغربية .

لقد كانت العروبة فى حقبة الجاهلية العربية عصبية مؤسسة على العرق والدم والجنس ، تتميز بالعنصرية وضيق الأفق القومى ، بل ويمزقها التناحر القبلى شر تمزيق .. وكما مثل الإسلام ودولته ثورة فى العلاقات القبلية ، جعلت القبيلة

مجرد لبنة فى بناء الأمة ذات الدولة المتحدة ، بعد أن كانت كياناً مستقلاً فى السياسة والحرب والاقتصاد .. مثّل الإسلام ، كذلك ، ثورة فى مفهوم العروبة ومضمونها ، فبعد أن كانت مؤسسة على « عصبية العرق والدم والجنس » ، أقامها على معيار « ثقافى ـ حضارى » تمثل فى « اللغة ـ اللسان » ، وفى الولاء لما تمثله هذه اللغة من وعاء لفكر الإسلام وعلوم الحضارة العربية الإسلامية وانتماء إلى هذا النمط الفكرى الجديد .

ولقد حدث يوماً أن تعجب بعض الصحابة ، الذين لم يكونوا قد تشربوا بعد هذا المضمون الجديد للعروبة ، من حماس الموالى ، المنحدرين عرقياً من أصلاب غير عربية ـ مثل بلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ـ تعجبوا من حماسهم لدعوة النبي العربى وبناء الدولة العربية التى أقامها المسلمون ، وذلك حسبانا منهم أن عروبة هذا الإنجاز الإسلامى مؤسسة على العرق والجنس ، كما كان حال هذه العروبة قبل ظهور الإسلام .. وعندما بلغ أمر هؤلاء الصحابة رسول الله ﷺ ، بدا غضبه ، وأمر بدعوة الناس إلى المسجد ، ثم صعد المنبر ، ليعلن إدانة هذا المضمون الجاهلى للعروبة ، وليزرع فى تربة المجتمع الجديد والحضارة الجديدة ذلك المعنى والمفهوم الحضارى والثقافى للعروبة وللانتماء العربى

منذ أكثر من اربعة عشر قرناً .. صعد رسول الله المنبر ، وخطب الناس فقال :

« أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد ، وإن الدين واحد . **وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى** »[٣٧] ففى هذه العبارة النبوية الجامعة إعلان عن مفهوم جديد ومعيار إسلامى للعروبة وللقوم والقومية .. **فكل من استعرب ، وغدا ولاؤه للعروبة ، وانتماؤه للحضارة التى تتخذ اللسان العربى أداة ووعاء للفكر والتفكير ، فهو من « القوم العرب » و « القومية العربية » .. وإذا علمنا أن العربية هى لسان الإسلام ، لأنها وحدها السبيل إلى فقه إعجاز القرآن العربى ، والسبيل إلى تحصيل أدوات الاجتهاد فى علوم الشريعة .. أى أنها هى الشرط ليكون المسلم مجتهداً يسن القانون الإسلامى ، ويقضى بما أنزل الله ، ويفتى فى شئون الدين الإسلامى وقضايا الدولة الإسلامية ، أدركنا أن « دولة » الإسلام ، بمعنى جهازها التشريعي والقضائى ، وكذلك إمامها وخليفتها ـ الذى لابد وأن يبلغ فى علوم الإسلام درجة الاجتهاد ـ علمنا أن هذه « الدولة » لابد وأن تكون « عربية » ، بهذا المعنى**

---

(٣٧) [تهذيب تاريخ ابن عساكر] جـ ٢ ص ١٨٩ . طبعة دمشق .

الحضارى والثقافى للعروبة .. وعلمنا كذلك أن كل من استعرب ، وأصبح ولاؤه للعربية والعروبة ، بهذا المعنى ، فإنه من « القوم العرب » .. فهذه « العروبة الإسلامية » ، وهذا « الإسلام ذو اللسان العربى » كيان حضارى واحد ، لا سبيل إلى فصم عراه بأى حال من الأحوال .

ثم توالت أحاديث الرسول ﷺ التى تدين هذا المفهوم الجاهلى للعروبة وللرابطة القومية ولمعيار العصبية .. والتى تدعو إلى طى صفحتها ، قائلة للمسلمين : « ... دعوها فإنها منتنة ! »[٣٨] .. وذلك دون أن تسقط فطرة حب الإنسان لقومه ، أو تدعو إلى إهمالها ، بل كانت الدعوة إلى تطوير « معيار القوم » ، وجعل « العدل » معيارا للمناصرة أو المعاداة .. فعندما يسأل الصحابى واثلة بن الأسقع رسول الله ﷺ :

— « يا رسول الله ، أمن العصبية أن يحب الرجل **قومه** ؟ »

— يقول الرسول ﷺ : « لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل **قومه** على الظلم .. »[٣٩] .. فالعصبية المرذولة هى عصبية الجاهلية .. هى « أن تعين قومك على الظلم .. وليس

---

(٣٨) رواه البخارى والترمذى .

(٣٩) رواه ابن ماجة والإمام أحمد .

منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية »[٤٠] ـ كما قال رسول الله ﷺ .

ولقد غدا هذا الفكر الإسلامى الذى استحدث للعروبة مضموناً جديداً ومعياراً جديداً .. والذى جعلنا ويجعلنا نقول دون مبالغة : **إن عروبتنا ـ بهذا المعنى ـ هى عروبة إسلامية ، من صنع الإسلام** .. غدا هذا الفكر ممارسة وتطبيقاً فى واقع الدولة الجديدة والأمة العربية الإسلامية الوليدة ، ولم يكن مجرد « فكر نظرى » معزول عن الممارسة والتطبيق .. فالموالى الذين أصبحوا عرباً بالاستعراب اللغوى ، وبالولاء والانتماء للبناء الحضارى العربى الإسلامى ، وللإسلام ذى اللسان العربى ، وللقوم العرب الذين حملوا رسالة الإسلام إلى العالمين .. هؤلاء الموالى قد تم دمجهم وتوحيدهم عضوياً في القبائل العربية التى كانوا فيها بالأمس أرقاء ، والتى مثلت لبنات بناء الأمة فى دولة الإسلام .. وتوالت أحاديث الرسول ﷺ ، التى قننت هذا الواقع الجديد ، وذلك من مثل أحاديث : « مولى القوم منهم »[٤١] .. و« الولاء لُحمة كلُحمة النسب ، لا يباع

---

(٤٠) رواهما ابو داود .

(٤١) رواه البخارى .

ولا يوهب »[٤٢] .. وعندما امتدت الفتوحات بحدود الدولة والأمة إلى خارج شبه الجزيرة العربية ، طبق عمر بن الخطاب [٤٠ ق ـ هـ ـ ٢٣ هـ ـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤ م] هذا الفكر على الموالى الجدد ، وأدخلهم فى إطار هذا التنظيم « الاجتماعى ـ القومى » ، عندما أصدر إلى قائد الفتح فى بلاد فارس أمره : « ... وانظر من قِبَلَك من الحمراء ـ [موالى الفرس] ـ فألحقهم بقبائلهم ، وإن أرادوا أن يكونوا قبائل مستقلة فأجبهم ، وسوِّ بينهم وبين غيرهم .. » !

لقد أنجز الإسلام هذه الثورة فى الفكر القومى ، عندما انتقل بمعيار العروبة والقوم من عصبية العرق الجاهلية إلى معيار الثقافة والحضارة المرتكز على العربية ، لسان الإسلام .

* * *

وإذا كانت مسيرة العرب نحو وحدتهم القومية ـ تلك التى أنجزها الإسلام ـ على قاعدة هذا المعيار الحضارى الجديد ـ قد شهدت تطورات سبقت ظهور الإسلام ، كانت لهذا الحدث العظيم بمثابة المقدمات والإرهاصات .. من مثل :

● تبلور اللغة العربية الواحدة ـ لغة الفكر والأدب ـ ذات الطابع القرشى .. كعامل توحيد للعرب ، جاء القرآن ليجعلها

---

(٤٣) رواه ابو داود والدارمى .

عامل توحيد لكل مسلم أراد الفقه الحقيقي لحقيقة الإسلام .

● والاتفاق على أشهر حرم ـ [رجب ، وذى القعدة ، وذى الحجة ، والمحرم] ـ تضع فيها الحرب أوزارها ، وتقام فيها أسواق التجارة والشعر والحج إلى بيت الله الحرام .. فتنمو عوامل الألفة وسمات الوحدة بين قبائل العرب جميعاً .

● وعلاقات المودة والتضامن بين حكومة مكة ، على عهد رئيسها عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف [١٢٧ ـ ٤٥ ق . هـ ٥٠٠ ـ ٥٧٩ م] وبين حكومة اليمن ، بعد تحريرها بقيادة سيف بن ذى يزن [١١٠ ـ ٥٠ ق هـ ٥١٦ ـ ٥٧٤ م] .. وذلك لمواجهة خطر الروم والفرس على شبه الجزيرة ، ولتأمين طرق التجارة فى رحلتى الصيف إلى الشمال والشتاء إلى الجنوب .

● ثم .. باتفاق القبائل العربية على وضع نماذج لأصنامها فوق الكعبة .. حتى تحولت إلى « مجمع » لديانة العرب الوثنية ، وذلك حتى يكون الطواف حولها ، بموسم الحج ، تجسيدا لتقارب الهوية الدينية لعبدة هذه الأصنام ، التى كان تعددها تجسيداً للتمزق القبلى وللتشرذم الصارخ فى شبه الجزيرة العربية .

إذا كانت مسيرة العرب ، قبيل ظهور الإسلام ، قد شهدت هذه المقدمات والإرهاصات على درب الوحدة .. فلقد جاء

الإسلام ، كدين ودولة ، ثورة عظمى ، إن فى الفكر أو التطبيق ، بهذا الميدان .

● فالتوحيد الدينى ـ الذى بلغ فى الإسلام الذروة فى التنزيه والتجريد ـ قد كان الإنجاز الإسلامى الأعظم الذى وحد هوية الأمة ، بعد أن كانت تجسد تشرذمها التعددية في « المعبودات ـ الوسائط ـ الأصنام » .

ولقد أسهم هذا التوحيد الدينى ـ الذى وحد هوية الأمة ومثلها وفلسفتها وتوجهاتها ـ فى توحيدها قومياً ، كأمة واحدة من دون الناس .. وتحدث القرآن الكريم عن هذه الوحدة العربية كمعجزة حققها الإسلام ، وآية من آيات الله سبحانه ما كانت لتتم دون هذا التوحيد في الدين والمعبود .

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٤٣) .

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (٤٤) .

---

(٤٣) آل عمران : ١٠٣ .

(٤٤) الأنفال : ٦٣ .

● ومع وضوح عالمية الإسلام .. وإعلانه أن البّر ليس فى تولية الإنسان وجهه قبل المشرق والمغرب .. ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (٤٥) .. فإن الفكر لا يخطىء « الدلالة القومية » لتحويل « القبلة » من بيت المقدس ـ التى لم تكن خالصة العروبة ولا إسلامية يومئذ ـ إلى بيت الله الحرام ـ الذى لم يكن أهله قد أسلموا يومئذ ـ .. وذلك لما له فى تراث العرب ومجدهم من ذكر وشرف ، كأول بيت وضع للناس ، ورفع قواعده أبو الأنبياء إبراهيم وأبو العرب العدنانيين إسماعيل ، عليهما السلام .. ولقد كان تحويل القبلة إلى هذا الرمز العربى استجابة لطموح النبي العربى ﷺ ، عبر عنه القرآن الكريم فقال :

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ
قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾
وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ
ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى

---

(٤٥) البقرة : ١١٥ .

ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ
قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ
فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (٤٦) .

● وعلى ذات الدرب القرآني ، تعبيراً عن آثار التوحيد الديني على التوحد القومى ، وارتباط وحدة الهوية الدينية وتجسيدها لوحدة الأمة قومياً ، كوجهى عملة واحدة ترمز لإنجاز الإسلام ، كدين ودولة وحضارة .. على ذات الدرب نجد دلالات الكثير من أحاديث رسول الله ﷺ .

فكما مَنَّ الله ، سبحانه وتعالى ، على العرب بآية توحيده لهم ، ذلك التوحيد الذي أنقذهم من الاستضعاف الذى طالما عانوا منه معاناة الفريسة بين مخالب الجوارح - [الفرس والروم] - ..

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن
يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٤٧) .

---

(٤٦) البقرة . ١٤٢ - ١٤٤ .
(٤٧) الانفال . ٢٦ .

كذلك ينبه الرسول ﷺ قومه على أن وحدتهم القومية بمضمونها الإسلامى ، فى إطار الأمة المسلمة هى الطريق إلى الانتصاف لهم ولأسلافهم من القهر والظلم اللذين أصابهم بهما الفرس والروم طوال أحقاب التمزق والتشرذم التى سبقت ظهور الإسلام .. فيحدث عمه أبا طالب عن دلالة كلمة التوحيد وشهادته وتأثيراتها فى هذا الميدان ، فيقول : « ياعم ، الا أدعوهم إلى كلمة يقولونها ، تدين لكم بها العرب ، وتؤدى إليكم العجم الجزية ؟ ! .. والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر فى سبيل الله ! .. » .. كما يتنبأ بالإنجاز التوحيدي القادم فى ركاب التوحيد الديني ، وآثاره القومية والسياسية على تغيير « خريطة المنطقة » و« رياح الحضارة » فيقول : [إن أمتى ستظهر على « الحيرة » ، وقصور كسرى ، وأرض الشام والروم ، وقصور « صنعاء » . وبشر المسلمين بذلك ! ..](٤٨) .

إنه التوحيد الديني .. الصانع للوحدة القومية العربية .. المنجزة رسالة الإسلام ، دينا ودولة وحضارة .. على النحو الذى غير وجه التاريخ ! ..

---

(٤٨) ابن الاثير [الكامل فى التاريخ] جـ ٢ ص ٦٧ ، ٢٤ ، ١٢٣ . [اى ان رياح التغيير الإسلامى ، ستقذف قوة الامة الجديدة فى وجه الخطر التقليدي المحيط بوطنها من الشرق ـ الفرس ـ ومن الغرب والشمال ـ الروم ـ ومن الجنوب ـ الاحباش ـ].

هكذا مثل الإسلام « النواة » التى تبلورت من حولها حضارة عربية إسلامية ، دخلت في نسيجها مواريث عربية سبقت ظهور الإسلام ، ومواريث غير عربية لشعوب فتحها العرب المسلمون .. كما أسهم في بنائها ، مع المسلمين ـ من العرب وغيرهم ـ عرب وغير عرب لم يتدينوا بالإسلام ... كما مثلت الجماعة العربية المسلمة « نواة » الأمة الجديدة ، التى اندمجت فيها والتحمت بها الجماعات والقبائل والشعوب التى انخرطت في هذا المد الجديد .. من الأعراب الذين انخرطوا فى « أمة السياسة » و« رعية الدولة » ، ولما يدخل الإيمان بالدين الجديد فى قلوبهم .. ومن المؤلفة قلوبهم .. ومن العرب المتهودين أهل الكتاب .. ومن الموالى الذين استعربوا لغة وأخلصوا الولاء والانتماء للوليد الحضارى الجديد .. فتحقق للأمة نموذج جديد وفريد .. أمة الامتداد ، والتفتح ، والاستيعاب .. لا أمة الإنسلاخ والانقسام .. وقامت هذه الأمة على معيار متميز لمعنى القومية ومفهوم الأمة ، ارتبط فيه ما هو دينى بما هو قومى ، فكان التوحيد

الديني أحد وجهي العملة التى يمثل التوحيد القومى وجهها الثانى .. وكانت العربية ـ خصيصة القوم العرب وعامل فخارهم ـ لسان الإسلام ، وسبيل فقه القرآن والتفقه فى علوم الإسلام .

فكان أن تميزت حضارتنا العربية الإسلامية فى الفكر القومى ، وفى المسيرة القومية ، عن نظيرهما في الحضارة الغربية ، رغم اشتراك الفطرة الإنسانية فى الولاء والانتماء والمحبة للأقوام ! .. وكان أن استطاعت جامعة الإسلام احتضان الخصوصيات القومية للأقوام المسلمين ، مع الأقليات غير المسلمة التى اشتركت فى السمات القومية مع هؤلاء الأقوام .. على عكس الذى حدث عند نشأة القوميات الغربية ودولها ، عندما مزقت الوحدة العامة المؤسسة على الإيمان المسيحي .. بل وعلى عكس « الأممية الماركسية الغربية » ، التى اتخذت إلى العالمية سبيل العداء والقهر للقوميات ! .

إنها ـ مرة أخرى ـ « الخصوصية الحضارية » ، رغم « المشترك الإنسانى العام » .. **فالذين يعون أن دائرة**

الانتماء القومي هى واحدة من دوائر الانتماء ، تلى دائرة الانتماء الوطنى والإقليمي ، وتليها دائرة الانتماء الإسلامى .. ويعون أن القومية ليست « مذهباً » ولا« أيديولوچية » حتى توضع موضع النقيض من فكرية الإسلام ، التى هى « أيديولوچية » الأمة .. ويعون أن هذا المفهوم المتميز للقومية إنما هو ثمرة إسلامية متميزة ، عن مفهومها الجاهلى ، وعن مفهومها الغربى ـ الذى هو جاهلى كذلك ؟ ! ـ .. الذين يعون هذه الحقائق لن يجدوا تناقضاً بين وطنيتهم وقوميتهم وإسلاميتهم ، وإنسانيتهم ايضاً .

أما الذين يتبنون مفاهيم الغرب فى القومية ، فيقيمونها على العرق والعنصر والعصبية الجنسية .. ويجردونها من مضمونها الإسلامى المتميز ، ويستبعدون منها ـ بالعلمانية ـ علاقتها العضوية بالإسلام .. ويقفون باهتماماتهم عند حدود الدائرة القومية ، مسقطين ـ فى الحالة العربية مثلاً ـ ما وراء الخليج والمحيط .. فإنهم ، ولا شك ، رافد تغريبى فى « المسالة القومية » ، يمثلون نموذجاً « للغزو الفكرى » فى هذا الميدان ! ..

عموم الدين والدولة
وخصوصية العلاقة بينهما

فى الصراع الفكرى ـ الخصب ـ الدائر الآن ـ ومنذ سنوات ـ على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام ، حول مكانة الإسلام من مشروع النهضة التى ترتقبها أمتنا ، وتتلمس إليها السبل والأسباب .. وفى الجدل الدائر بين دعاة « إسلامية » هذه النهضة ، وأنصار « علمانيتها » ، تتجلى آثار الغزو الفكرى ، وتأثيرات « التغريب » عندما يحتل عقل فريق من أبناء الأمة ، أوضح ما تكون هذه الآثار ، وأشد ما تكون هذه التأثيرات .

فهذه العقول التى صنعها التغريب على عينه ! .. وهؤلاء « السلفيون ـ النصوصيون ـ المتغربون » ، الذين اتخذوا من مفكرى الغرب ومذاهبه « سلفهم الصالح ! » .. نراهم ، فى هذا الصراع الفكرى ، وكأثر من آثار الغزو الفكرى الذى « ضرب » عقولهم فى مؤسساته ، وصاغها وفق مناهجه .. نراهم ينظرون إلى حضارتنا ، وديننا ، وتاريخنا بـ « عيون غربية » ، فلا يرون فى مكوناتنا إلا « صورة كربونية » لمكونات الحضارة الغربية ودينها وتاريخها والمسيرة التطورية التى سلكتها .. ومن ثم فإنهم لا يرون لمشكلاتنا حلاً إلا ذلك « الحل الغربى » الذى خرج به غرب « عصر النهضة » من مشكلات عصره المظلم والوسيط ! .

إلى هذا الحد بلغ ويبلغ إلغزو الفكرى « بالنخبة المتغربة » ...

● فالخلافة الإسلامية ـ كنمط من أنماط نظام الحكم فى تاريخ الإسلام والمسلمين ـ فى نظرهم ـ هى الصورة الشرقية للاستبداد والكهانة والسلطة الدينية والحكم بالحق الإلهى ، الذى عانت منه أوروبا عندما حكمتها « القيصرية ـ البابوية » أو « البابوية ـ القيصرية » .. حتى لقد كاد أن ينعقد إجماعهم على هذا التماثل بين صورة « الدولة الدينية » فى التاريخ الأوروبى ، وصورة « الخلافة الإسلامية » فى تاريخنا ، كثمرة من ثمرات النظر إلى الذات بعيون الآخرين ، وصبّ كل مسيرات التطور لدى الأمم المختلفة فى ذات القالب الذى سلكته أوروبا فى تطورها ، إلغاء للخصوصيات ، وإطلاقاً « للمشترك الإنسانى » على ما هو ، بالطبع والواقع ، متميز وخاص .. وهم ، في سبيل ذلك ، يهدرون أبسط **قواعد المنهج العلمي فى التفكير ، الداعية ـ عند دراسة أية ظاهرة من الظواهر إلى الانطلاق من حقائق واقعها ، لا من تصورات الآخرين عن حقائق واقع مغاير لها** ؟ ! .. ولذلك فإننا واجدون هذه « النخبة » من أسرى الغزو الفكرى وضحاياه ، يهدرون الدلالات الواضحة للحقائق الصلبة والعنيدة التى مثلت ولا تزال معالم شاهدة في التاريخ السياسي للإسلام والمسلمين .

١ ـ فإذت كان جوهر « الدولة الدينية » هو ادعاء رأس الدولة النيابة عن السماء ، وإضفاء العصمة على تصرفاته ، والقداسة على قانونه ، وثبات الدين على ما هو من متغيرات الدنيا ، بحكم قانون التطور ، الذى هو سنة من سنن الله التى لا تتبدل ولا تتغير ، الأمر الذى يفرض الثبات والجمود على المؤسسات والفلسفات والأفكار والعلوم ـ كما حدث فى أوروبا بعصورها الوسطى والمظلمة ـ .. إذا كان هذا هو جوهر « الدولة الدينية » .. فكيف نلتمسه ، ثم نزعمه قائماً متحققاً فى الخلافة الإسلامية ، التى قامت على قاعدة خلافة الخليفة ونيابته عن الأمة ، وليس عن الله ، واختياره بالشورى والبيعة ، لا بوصية الله وتعيين السماء ، والنظر إليه كأجير لدى الأمة وخادم لها ، عهدت إليه قيادتها على شروطها فى التولية والتفويض ، مع احتفاظها بمهام مراقبته ومحاسبته ، وتغييره ـ بالسلم أو الثورة ـ إن هو كفر أو فسق أو جار وظلم أو ضعف عن النهوض بالمهام التى فوضتها إليه .. لا كمجرد « حق » من حقوقها ـ هذه المهام ـ بل كفريضة شرعية واجبة بشريعة الإسلام ؟ ! ..

أين جوهر « الدولة الدينية » ـ كما عرفها الغرب فى « القيصرية ـ البابوية » وفى « البابوية ـ القيصرية » ـ فى « خلافة إسلامية » ، هذا هو جوهرها ؟ ! ..

٢ ـ وأين هى « عصمة » « القيصر ـ رأس الكنيسة » أو

« البابا ـ القيصر » ، فى خلافة إسلامية يعلن أول من تولاها ـ أبو بكر الصديق [٥١ ق . هـ ـ ١٣ هـ ـ ٥٧٣ ـ ٦٣٤ م] ـ فى أول خطاب له عند ولايته لها ، على الملأ من الناس : « أيها الناس ، إنى قد وليت عليكم ، **ولست بخيركم** ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى .. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن **عصيت الله** ورسوله فلا طاعة لى عليكم ... أيها الناس ، **إنما أنا مثلكم** ، وإنى لا أدرى لعلكم ستكلفوننى ما كان رسول الله ﷺ يطيق ، إن الله اصطفى محمداً على العالمين ، وعصمه من الآفات ، **فإنما أنا متبع ولست بمبتدع** ، فإن استقمت فاتبعونى ، **وإن زغت فقومونى** ... الا **وإنما لى شيطان يعترينى** ! .. »[٤٩] .

أين هى دعوى « العصمة » فى خلافةيقول رائدها إن العصمة خاصية نبوية ، وإن الخليفة مثله كمثل كل الناس ، بل إنه ليس بخيرهم .. وله ، ككل البشر ، شيطان يعتريه ؟ ! ..

٣ ـ وهل تكفى عبارات ـ لو جمعت لما كونت صفحة من كتاب ـ وردت على ألسنة بعض الخلفاء .. من مثل قول عثمان ابن عفان [٤٧ ق . هـ ٣٥ هـ ٥٧٧ ـ ٦٥٦ م] لمن طلبوا إليه خلع نفسه من منصب الخلافة : « لن أخلع قميصاً

---

(٤٩) النويرى [نهاية الأرب فى فنون الادب] جـ ١٩ ص ٤٢ ـ وما بعدها ـ طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة .

ألبسنيه الله ! » .. وقول معاوية بن أبى سفيان [٢٠ق هـ ـ ٦٠ هـ ٦٠٣ ـ ٦٨٠ م] : « الأرض لله .. وأنا خليفة الله .. » .. وقول أبو جعفر المنصور [٩٥ ـ ١٥٨ هـ ٧١٤ ـ ٧٧٥ م] : « أيها الناس ، لقد أصبحنا لكم قادة ، وعنكم زادة ، نحكمكم بحق الله الذى أولانا ، وسلطانه الذى أعطانا .. »(٥٠) .. هل تكفى عبارات مثل هذه ، كانت لها ملابسات خاصة ، فى أن تغير جوهر الخلافة الإسلامية ، كسلطة مدنية ، تقيمها الأمة بالشورى والاختيار والبيعة ، لتنفذ قانون الشريعة ؟ ! ..

إن وقائع التاريخ ـ حتى تاريخ الخلفاء الذين أطلقوا هذه العبارات ـ شاهدة على أن عباراتهم هذه لم تعد نطاق « المجاز البلاغى » إلى أرض « الفكر السياسي » الذى عرف طريقه إلى الممارسة والتطبيق .

فعثمان بن عفان ، الذى رأى الخلافة « قميصاً » ألبسه الله إياه ، عندما ثار عليه الناس ، فخلعوه ، بل وقتلوه .. لم يقل أحد إن قاتليه قد كفروا لأنهم خلعوا القميص الذي قال إن الله قد ألبسه إياه ، وقتلوا لابسه بعد أن مزقوه .. ولو كانت خلافة عثمان « سلطة دينية » لكان الخلاف

---

(٥٠) انظر كتابنا [الإسلام والسلطة الدينية] ص ١٦ ، ١٧ . طبعة القاهرة عام ١٩٧٩ م .

عليها ـ ناهيك عن قتل صاحبها ـ على حد الشرك بالله ؟ ! ..

ومعاوية بن أبى سفيان ، الذي قال عن نفسه : إنه « خليفة الله » ، هو الذى قبل ـ دون غضب ـ مقالة الرجل الذى دخل عليه ، فسلّم قائلاً : « السلام عليك أيها الأجير» ! .. وهو الذى لم يزعم كفر الذين عارضوه وقاتلوه .. بل إنه هو ذاته الذى كاد أن يجمع أئمة الفكر الإسلامى على انه رأس « الفئة الباغية » على أمير المؤمنين على بن أبى طالب [٢٣ ق . هـ ـ ٤٠ هـ ٦٠٠ ـ ٦٦١ م] وأول من شاب الخلافة الشورية بشائبة الملك العضود فاين هى « السلطة الدينية » فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ؟ ! ..

وابو جعفر المنصور ، الذي زعم انه يحكم « بحق الله وسلطانه » .. هو الذى وصل إلى عرش الخلافة بثورة ـ وليس بتعيين سماوى ـ .. وكانت ثورته على الدولة الأموية لأسباب كثيرة ، لم يذكر من بينها « الكفر » بحقه الإلهى ؟ ! .. كما انه هو الذى شهد عهده العديد من الثورات التى ناهضت خلافته ، دون ان يتهم قادتها بالكفر ، ولا ان يتهموه به .. بل لقد راينا ائمة مثل مالك ابن انس [٩٣ ـ ١٧٩ هـ ٧١٢ ـ ٧٩٥ م] وابا حنيفة النعمان [٨٠ ـ ١٥٠ هـ ٦٩٩ ـ ٧٦٧ م] يعارضون

خلافته وسلطته ، ويفتون بجواز الثورة عليه ، رغم يمين البيعة له ، لأنها ـ كما قالوا ـ « يمين إكراه » لا تلزم الذين أكرهوا عليها ! .. كما رأينا الإمام مالك يرفض الاستجابة لطلب المنصور أن يكون كتابه [الموطأ] قانون الدولة .. لأن (الموطأ) هو اجتهاد مالك .. وفي الأمة مجتهدون آخرون ، ولا إلزام لمجتهد باجتهاد سواه من المجتهدين ؟ ! ..

فأين هي « السلطة الدينية » في خلافة المنصور وقانون الدولة التي قال إنه يحكم فيها « بحق الله » ؟!؟! ..

لقد سقنا هذه النماذج ، حتى لا يقال لنا : إنكم تقفون ، فقط ، عند أبي بكر الصديق ، وعهد الخلافة الراشدة .. فها هي « الشبهات » و« السلبيات » ، لا دليل فيها لأسرى الغزو الفكري على دعوى التماثل أو الشبه بين « الخلافة الإسلامية » وبين « الدولة الدينية » التي عرفها واكتوى بنارها أسلافهم الغربيون ! ..

● والإسلام .. الذي أجمع علماء الملل والنحل ـ نصارى ويهود الاستشراق ـ على أنه « « عقيدة وشريعة » ، وعلى أن من شريعته ما هو « فقه معاملات » ، أي قانون للدنيا والدولة .. كما أجمعوا على أن رسوله ﷺ لم يقف عند حدود إبلاغ « العقيدة والشريعة » وإنما أقام « الدولة » التي حكمت بقانون الإسلام .. هذا الإسلام ، قد وجدناه عند أسرى الغزو

الفكرى من دعاة التغريب : مسيحية ، تدع مالقيصر لقيصر وما لله لله ! .. وديناً لا دولة ، وكأنما « الشريعة » فيه ترف فكرى وزينة ليس لها حتى الجيد الذى يتزين بها ؟! ـ رغم ما فى هذا التصور الافتراضى من تجويز العبث على الله ، إذا هو أوحى بشريعة لا مكان لها فى الممارسة والتطبيق ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً ـ ! ..

فى هذه القضية ، سبق تلامذة الاستشراق أساتذتهم ! وذلك حتى يطابقوا بين حضارتنا ومسيرتها التاريخية وبين الحضارة الغربية ومسيرتها التاريخية ، ليجعلوا من « الحل الغربى » الذى نهضت به أوروبا « الحل » المرشح لإنهاض أمتنا من التخلف والجمود .. فنظروا بعيون غربية إلى إسلامنا ، فرأوه مسيحية ! .. وإلى رسوله ، فرأوه ، فى طبيعة الرسالة وحدودها ، لا يعدو المسيح ابن مريم ، عليه السلام ! .

فقال واحد منهم ـ هو الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ ـ ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦ م] ـ : « إن محمداً ﷺ ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة ، وأنه ﷺ لم يقم بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة

ومرادفاتها . ما كان إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل ، وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة ، ولا داعياً إلى ملك » ؟!(٥١).

وقال آخر ـ مردداً ذات المعنى : ـ « إن القرآن الكريم لم يجعل النبي العربى محمد بن عبد الله ﷺ ملكاً أو رئيس دولة ، وظل ينعته بالنبي الرسول ... لم يكن نبي الإسلام فى أى وقت من الأوقات ملكاً أو رئيس دولة ، وإنما ظل دائماً النبي الرسول ... »(٥٢) .

ولو احتكموا إلى واقع التاريخ ، لرأوا دولة الإسلام ، فى المدينة ، منذ الهجرة ، قد استكملت مقومات الدولة : الدستور ـ [الصحيفة ـ الكتاب] ـ الذى يتحدث عن الرعية ، والحدود ، ويقنن للعلاقات الداخلية والخارجية ، للسلم وللحرب ، للحقوق والواجبات .. الخ .. ولرأوا معالم الدولة ـ على بساطتها ـ فى الجيش .. والولاة .. والقضاء .. وجامعي الزكاة والصدقات .. وكتبة الرسائل .. والتراجمة .. والسفراء .. وأمراء الجند .. ومنفذى العقوبات .. والنظام المالى .. الخ .. الخ .

---

(٥١) [الإسلام وأصول الحكم] ص ١٥٤ . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ م .

(٥٢) د . محمد احمد خلف الله [النص والاجتهاد والحكم فى الإسلام] مجلة « العربى » عدد ٣٠٧ رمضان عام ١٤٠٤ هـ . يونيو عام ١٩٨٤ م . ص ٤٣ .

ولو طالعوا كتب السنة والسيرة النبوية ، ومصادر التاريخ التى رصدت معالم هذه الدولة الإسلامية الأولى ، لرأوا الشواهد الصادقة على أن إسلامنا هو « دين ودولة » ، طالما أنه « عقيدة وشريعة » ، بحكم المنطق ، وواقع التاريخ الذى رصده المؤرخون (٥٣) ! .

بل إنهم لو احتكموا إلى تراث الاستشراق لرأوا إجماع المستشرقين ـ كما أشرنا ـ على أن الإسلام دين ودولة ، وعلى أن دولته لم تكن فى يوم من الأيام « دولةدينيـة »كالتى عرفها الغرب فى عصوره المظلمة والوسطى .. وإذا شئنا ـ وشاءوا ـ شهادة من هؤلاء المستشرقين ، فإننا نقدم لهم كلمات المستشرق ـ الحجة فى القانون وفى الفقه الإسلامى ـ دافيد دى سانتيلا David de Sautillana [١٨٤٥ ـ ١٩٣١ م] التى يقول فيها :

إن الشريعة الإسلامية ـ أى القانون السائد ـ هو نظام لضروب أشكال النشاط البشرى الذى يهدف إلى تيسير الحاجات الدنيويـة .. إن الفقه الإسلامى حقيقة اجتماعية ، يتعلق قسم منها بالفرد وقسم بالمجتمع ... والقانون كلمة جوفاء لا تعنى شيئاً إن لم يكن له منفذ

---

(٥٣) انظر كتاب [تخريج الدلالات السمعية] لأبى الحسين على بن محمد الخزاعى [٧١٠ ـ ٧٨٩ هـ ١٠٢٦ ـ ١١٠٢ م] فى ثنايا كتاب [نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية] لعبد الحى الكتانى ، جـ ١ ، ٢ طبعة بيروت . دار الكتاب العربى .

وحام - [دولة] - .. ولهذا فقد أكمل الله بناء القانون بالحاكم. « الإمام أو الخليفة » ، وفرض طاعته على الأمة ... فالأمير هو عماد الدولة ، ولذلك فإن تعيين الرئيس هو واجب دينى على كل مسلم حائز الصفات المقررة .. واختيار رئيس المجتمع الإسلامي لا يمكن تركه للظروف والصدف أو لأعمال العنف والطغيان .. وخلفاء الرسول ما هم بوارثى رسالته الروحية ... والخليفة والإمام هو « أمير الدولة » .. ووظائفه فى الشريعة الإسلامية (العدل ، الجهاد ، الجباية ، تحكيم العادات والتقاليد) .. وليس فى هذه الأمور ما يضفى على الخليفة صفة القداسة أو يسمه بميسم الكهنوت كما ادعت بهذه التسمية هيئات حاكمة معينة فى تاريخ العالم ، والحقيقة هى أن سلطة الخليفة ، كرئيس دينى ، لا يمكن أن تعتبر سلطة حبرية بابوية مثلاً ، فهو متجرد تماماً من صفة الكهنوت ، لأن حكومة المسلمين ما كانت فى أى زمن أو

ظرف حكومة دينية Hierarchy ولم يوجد فيها تعاقب رسولى ، والإمام فى سلطانه الدنيوى ليس سيداً « ربا » .. وإنما هو « وكيل » جماعة المسلمين ، وأعماله تستمد قوتها وقانونيتها من المبدأ القائل : إن الأمير يجب أن يضع نصب عينه مصلحة المجموع .. والزعيم والشعب ، الإمام والجماعة ، اصطلاحان بسيطان يجملان كل النظام

السياسي الإسلامي ، ويفسران معنى الدولة كذلك . إنه تمثيل الدولة وسلطة الحكومة التنفيذية .. لا يملك اية مقدرة على تحوير القانون .. والرابطة التعاونية الموجودة بين الخليفة والشعب ، تبقى متينة وثيقة العرى مادام الخليفة صالحاً للقيام بواجبه في حماية المجتمع الإسلامي ، فإذا لم يعد أهلاً لمنح شعبه ما يريد منه ، بطل سلطانه ، وفسخ العقد شرعاً بين المتعاقدين .. »(٥٤) .

لو رجعوا إلى تراث الاستشراق ، لرأوا الإجماع على أن الإسلام « دين ودولة » ، وعلى أن دولته وحكومته ـ كما قال دافيد دي سانتيلا : ـ « **ما كانت في أي زمن أو ظرف حكومة دينية** .. » ! .

ولكنه الغزو الفكري ، جعلهم يتخبطون بين إنكار علاقة الإسلام بالدولة والسياسة ، وبين اتهام الدولة الاسلامية في تاريخنا الإسلامي بالاستبداد الديني والحكم بالحق الإلهي .. لأن التغريب ، الذي احتل منهم العقل ، ولون الرؤية قد جعلهم ينظرون إلى الذات بعيون الآخرين ! .

* * *

---

(٥٤) [القانون والمجتمع] ص ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ـ ٤٢٧ . طبعة بيروت ـ ترجمة جرجيس فتح الله ـ منشور ضمن كتاب [تراث الإسلام] بإشراف سيرتوماس أرنولد ـ عام ١٩٧٢ م .

ولو احترم هؤلاء المتغربون قواعد المنهج العلمى ، الذى يكثرون من ترديد عبارته ، بأن انطلقوا من حقائق الفكر ووقائع التاريخ ، لأدركوا أن لحضارتنا فى علاقة الدين بالدولة خصوصية إسلامية ، ميزتها وتميزها عن علاقتهما فى الحضارة الغربية .

● فالمسيحية ، التى هى بحكم طبيعتها ، ووفق لاهوت كنيستها : رسالة روحية خالصة ، مهمتها خلاص الروح ، والتركيز على مملكة السماء ، والتى لذلك تركت ما لقيصر لقيصر ، ووقفت عندما هو لله ... هذه المسيحية ، التى لا علاقة لها بالدولة ، تجاوزت بها الكنيسة الغربية هذه الحدود ، عندما فرضت هيمنتها على الدولة والمجتمع ، فجمدت المتغير فى القوالب الثابتة للدين ، وأضفت قداسته على ممارساتها البشعة التى دخلت بالسياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر والإنسان عصور التخلف والرجعية والظلام .

● والعلمانية ، التى تعنى فصل الدين عن الدولة ، وإعادته إلى إطار العلاقة الفردية الخاصة بين الفرد وخالقه .. والتى أفرزها عصر النهضة الأوروبية .. هى فى الحقيقة والواقع رد الفعل لتجاوزات الكنيسة حدود مهامها واختصاصها .. ولذلك ، **فإنها هناك مفهومة ، بل ومبررة .. لأنها ـ فى الإطار المسيحي ـ لا تمثل عدواناً على المسيحية ـ التى هى دين**

لا دولة ـ بل هى حركة تصحيح تعيد المسيحية ، كرسالة روحية خالصة ، إلى إطارها الصحيح ؟ ! .

ولهذا ، فإن هذه العلمانية ، فى إطار المسيحية الغربية ، طبيعية تماماً ، بل وتقدمية .. لأنها « حل غربى ، لمشكلة غربية » .

ولما كانت طبيعة الإسلام ونطاق شريعته مغايران لنظيرهما فى المسيحية .. ولما كانت مسيرتنا الحضارية لم تشهد ذلك الذى شهدته الحضارة الغربية ، من « دولة دينية » ، أقامتها « القيصرية ـ البابوية » حينا ، و« البابوية ـ القيصرية » حينا آخر .. ولما كانت مسيرتنا الحضارية هذه قد خلت من « حكومة الفقهاء » ، ومن صراع الدين للعلم والفكر ، إلى آخر آثار وتأثيرات « الدولة الدينية » فى الغرب .. فإن قواعد المنهج العلمى ، المستند إلى حقائق الفكر والمنطلق من وقائع التاريخ ، لابد أن تقود إلى هذا الذى قلناه ، من أن علاقة الدين بالدولة ، فى الإسلام الدين ، وفى التاريخ الإسلامى هى « خصوصية حضارية » ، وليست مما هو « مشترك إنسانى عام » .. ولن يمارى فى هذه الحقيقة العلمية إلا أسرى الغزو الفكرى ، من « السلفيين المتغربين » !

* * *

إن الدولة ، فى المنظور الإسلامى هى : « إسلامية ـ مدنية » ، فى ذات الوقت .. اى انها ليست « الدولة

الدينية » ، التى تجعل « الدولة » ديناً خالصاً ، فتضفى عليها قداسة الدين وثباته .. كما أنها ليست « الدولة العلمانية » ، التى تفصل الدين عن الدولة كامل الانفصال .

إنها : « دولة : إسلامية .. » ، لأنها محكومة بمقاصد الشريعة وحدودها .. ولأن الإسلام ـ كما اجمع على ذلك العلماء ، من أهله وغير اهله ـ لم يقف عند « العقيدة » و« الشعائر » والفرائض الفردية ، وإنما هو كذلك « شريعـة » ، اشتملت على الكثـير من « الفروض الاجتماعية » ـ فروض الكفاية ـ التى هى اشد توكيداً من الفروض الفردية ، والتى يتوجه التكليف فيها إلى الامة والمجتمع ، ومن ثم فإن النهوض بها لا يتاتى إلا بقيام « السلطة » و« الدولـة » .. وبسبب من « الطبيعة الإسلامية » لهذه الفرائض الاجتماعية ـ من مثل الزكاة ، والجهاد ، والعلم ، والشورى ، والعدل الاجتماعى ، وإقامة الحدود ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر .. الخ .. الخ ـ فلا بد من أن تكون « السلطة » و« الدولة » التى تنهض بها ذات « طبيعة إسلامية » هى الاخرى ..

فليس صحيحاً ما يزعمه العلمانيون المتغربون من أن « شعائر الله ومظاهر دينه .. وصلاح المسلمين فى دنياهم » يمكن أن يتحقق بوجود مطلق « حكومة .. دستورية أو

استبدادية .. جمهورية أو بولشيفية »[٥٥] .. ذلك أن الإجماع والمنطق يؤيدان مقولات مثل : « لا يبنى الاشتراكية سوى الإشتراكيين » .. « ولا يصون الليبرالية سوى الليبراليين » .. فانى لنا ، إذن ، أن نتصور تطبيق وحماية الفرائض الاجتماعية الإسلامية دون « سلطة » و« دولة » إسلامية ؟ ! .

إن « الدولة الإسلامية » ـ على الرغم من انها ليست من عقائد الإسلام واركانه وأصوله ـ إلا أن إقامتها هى « فريضة إسلامية » و« واجب إسلامى » ، لأن إقامة الفرائض الإسلامية والواجبات الإسلامية متوقف عليها ومرهون بقيامها .. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ـ وفق قواعد المنطق الإسلامى ، والاصوليين المسلمين .

ولأن الشريعة الإسلامية ـ التى هى « وضع إلهى ثابت » ـ قد وقفت إزاء الشئون الدنيوية المتغيرة عند المقاصد والفلسفات والأطر العامة الحاكمة ، وتركت التفاصيل والنظم والتطبيقات والمؤسسات لإبداع العقل البشرى ، وفق التجربة الإنسانية ، وابتغاء مصلحة الأمة ، وفى إطار مقاصد الشريعة وحدودها .. كانت دولة الإسلام « مدنية » ، لأن الأمة فيها هى مصدر السلطة

---

(٥٥) [الإسلام واصول الحكم] ص ١٣٦ ، ١٣٤ .

والسلطان ، شريطة أن لا تتعدى سلطتها إطار الشريعة ومقاصدها .. فهى دولة « مدنية » بقدر ما هى « إسلامية » .. وليست بالدولة « الدينية » ، التى تجعل الدولة دينا ثابتاً ومقدساً ، تنتفى من شئونها سلطات الأمة وسلطانها .. كما انها ليست بالدولة « العلمانية » ، التى تطلق سلطان الأمة من قيد الشريعة الالهية وإطارها ، عندما تفصل بين الدين والدولة ، على النحو الذى ساد فى الغرب كرد فعل للكهانة والكهنوت ! .

إنها « الدولة : الإسلامية .. المدنية » .. التى تقوم العلاقة فيها بين « الدين » و« الدولة » ، مع التمييز فيها ـ بذات الوقت ـ بين ما هو دين خالص وثابت ، وما هو دولة تجرى عليها سنن الله فى التطور والتغيير .. إنها علاقة لا ترقى إلى درجة « الوحدة » والكهانة .. ولا تتدنى إلى درجة « الانفصال » والعلمانية .. فمقاصد الشريعة الإلهية الثابتة تعطى هذه الدولة طبيعتها « الإسلامية » ، واجتهاد الفقهاء المسلمين فى القانون الإسلامى ـ فقه المعاملات ـ وفق تطورات الزمان والمكان ، يعطى هذه الدولة طبيعتها « المدنية » .. الأمر الذى يبرز لكل ذى بصر وبصيرة تميزها ، « كخصوصية حضارية إسلامية » ، عن نظيرتها فى التراث الغربى ، القديم منه والحديث .

* * *

وإذا كان صحابة رسول الله ﷺ قد كانوا حريصين على التمييز فى قراراته وتصرفاته بين ما هو « دين خالص » وما هو « دنيا » .. فكانوا يسألونه فى مواطن اتخاذ القرار النبوى ، هذا السؤال الشهير : يا رسول الله ، أهو الوحى ؟ أم الرأى والمشورة ؟؟ .. فإن لهذا الأمر دلالته فى التمييز ـ لا الوحدة ولا الفصل ـ بين الدين والدولة فى نهج الإسلام .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد علّمنا ذلك ، صراحة ، عندما هاجر إلى المدينة ، ورأى أهلها يؤبرون ـ [يلقحون] ـ النخل ، فقال قولاً جعلهم يعدلون عن ذلك .. فلما « شاص » الثمر ، ووضحت سلبيات شوراه ، سألوه فى ذلك .. فقال لهم ﷺ : « إنما أنا بشر مثلكم .. وما قلت لكم : قال الله : فما كان من أمر دينكم فإلىّ ، وما كان من أمر دنياكم فشأنكم به ، انتم أعلم بأمر دنياكم ! »(٥٦) .. فإن لهذا الحديث النبوى الجامع دلالته فى موضوعنا هذا .

وإذا كان علماء الأصول فى تراثنا الإسلامى ، قد ميزوا ، فى السنة النبوية الشريفة ، ما بين « السنة التشريعية » ـ والتى تتعلق بتبليغ الرسالة ، والفتيا فى الدين ـ بياناً للغامض وتفصيلاً للمجمل .. وما بين « السنة غير التشريعية » ـ التى تتعلق بالمتغيرات الدنيوية ـ سياسة واجتماعاً واقتصاداً

---

(٥٦) رواه مسلم وابن ماجة والإمام احمد .

وحرباً .. الخ .. فحكموا بإلزام الأولى إلزام اتباع للمنطوق والمفهوم .. ووقفوا من الثانية عند حدود المقاصد والغايات التى تحقق المصالح المتغيرة ، حتى ولو غايرت أفعالنا المأثور من الأفعال فى هذه السنة غير التشريعية ... فإن فى هذا التمييز ، أيضاً ، ما يشهد على تمييز الإسلام ـ دونما فصل ـ بين ما هو « دين ثابت » وما هو « متغير من شئون الدولة والدنيا » ... الأمر الذى يجعل ـ كما قلنا ـ من علاقة الدين بالدولة فى حضارتنا العربية الإسلامية ، ـ فكراً وتاريخاً ـ « خصوصية حضارية » ، تميزت فيها وبها حضارتنا عن الحضارة الغربية ، التى تراوحت فى هذا الأمر وهذه العلاقة بين النقيضين : « الكهانة .. والدولة الدينية » و« العلمانية .. وفصل الدين عن الدولة » .. وشتان بين ما هو « خصوصية حضارية » وما هو « مشترك إنسانى عام » ! .

إن الدولة الإسلامية ـ الخلافة والإمامة ـ كما يقول أئمتنا : « .. ليست من أصول الاعتقاد(٥٧) ... وليست من أصول الديانات والعقائد ، بل هى من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين(٥٨) .. وهى ليست من المهمات ، وليست من فن

---

(٥٧) الشهرستانى [نهاية الإقدام فى علم الكلام] ص ٤٧٨ . طبعة جيوم ـ مصورة ـ بدون تاريخ .

(٥٨) الإيجى ، والجرجانى [شرح المواقف] جـ ٣ ص ٢٦١ . طبعة القاهرة عام ١٣١١ هـ .

المعقولات فيها[٥٩] .. وإنما هى من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق[٦٠] ... والإسلام لم يعرف تلك السلطة الدينية ... التى عرفتها أوروبا .. فليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر .. والأمة هى التى تولى الحاكم .. وهى صاحبة الحق فى السيطرة عليه ، وهى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه . ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج « ثيوكرتيك » ، أى سلطان إلهى ، فليس للخليفة ـ بل ولا للقاضى ، أو المفتى ، أو شيخ الإسلام ـ أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام . وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية قدرها الشرع الإسلامى ... لكن الإسلام : دين ، وشرع ، فقد وضع حدوداً ، ورسم حقوقاً .. ولا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود ، وتنفيذ حكم القاضى بالحق ، وصون نظام الجماعة .. والإسلام لم

---

(٥٩) الغزالى [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٤ . طبعة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .
(٦٠) ابن خلدون [المقدمة] ص ١٦٨ . طبعة القاهرة عام ١٣٢٢ هـ .

يدع مالقيصر ، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ، ويأخذ على يده فى عمله .. فكان كمالا للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظاماً للملك .. »[٦١] .. كما يقول أئمة الإسلام ، من الغزالى ، إلى الشهرستانى ، إلى الإيجى ، إلى الجرجانى ، إلى ابن خلدون ، إلى الشيخ محمد عبده .

هذا هو الإسلام .. وهذه هى دولته والسلطة فيه ، إذا نحن رأيناها بعيون عربية إسلامية ، لا بعيون غربية ، كما صنع ويصنع أسرى الغزو الفكرى من المتغربين !

---

(٦١) الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ ٣ ص ٢٣٣ ـ ٢٨٩ ، ٢٢٦ دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ م .

الاتفاق على مبدأ التطور..
والاختلاف فى مذاهبــه

لا أعتقد أن أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات ، قد وقفت وتقف من « النشوء والتطور والارتقاء » موقف الرفض والعداء والإنكار .. تستوى فى ذلك ـ كما أحسب ـ كل الأمم الإنسانية ، وكل الحضارات .

ذلك أن الحواس الإنسانية ، وكذلك العقول ـ وهى مشترك إنسانى عام ـ تدرك بالبداهة آثار قوانين وظواهر وأعمال النشوء والارتقاء والتطور فى كل ما يحيط بالإنسان .. بل وفى ذات الإنسان ، وفى فكره أيضاً .. ففى النبات ، نشوء وتطور وارتقاء .. وكذلك فى الحيوان .. وفى الجماد .. وفى الأفكار .. تلك حقائق بديهية ، أقام الله عليها قصة الخلق الأول .. والمستمر .. وكذلك الإعادة والبعث والإحياء .. واتخذ منها دليلاً دعا أدوات الإدراك الإنسانى ـ الحسية والفكرية ـ من السمع والبصر والفؤاد ـ إلى إدراكها وإدراك ما تعنيه .. وفاضت بالحديث عنها آيات القرآن الكريم .

فقصة الإنسان مع الوجود والتحول .. قد حكمها قانون النشوء والارتقاء والتطور والتحول .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً
فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً
فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا
ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٦٢) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٦٣) .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ
جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن
رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ
﴿٩﴾ ﴾ (٦٤) .

---

(٦٢) المؤمنون : ١٢ ـ ١٦ .
(٦٣) غافر : ٦٧ .
(٦٤) السجدة : ٧ ـ ٩ .

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً
فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن
يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٦٥) .

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ
جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ
﴿٥٤﴾ ﴾ (٦٦) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ
ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ
لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ
طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم
مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى
ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن
كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ (٦٧) .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ

---

(٦٥) القيامة : ٣٦ ـ ٤٠ .
(٦٦) الروم : ٥٤ .
(٦٧) الحج : ٥ .

﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ (٦٨) .

وفى تراثنا القديم ، نقرأ عن تجارب الأسلاف ، منذ ما قبل الإسلام ، فى تخيرهم الأرحام لنطفهم ، تحسينا للنسل وارتقاء به وتطويراً له .. وكذلك كانوا يصنعون فى الحيوان والنبات ، انتخابا فى اللقاح والتلقيح ، وتطعيماً وتهجينا .

ومع أسلافنا وأمتنا وحضارتنا ، اتفقت وتتفق ـ كما أشرنا ـ كل الأمم والحضارات فى الإيمان بحقائق وقوانين النشوء والتطور والارتقاء .. فالجميع ، إزاء المبدأ والقانون ، يجتمعون على هذا « المشترك الإنسانى العام » .

* * *

لكن للحضارة الغربية فى مذهب التطور والنشوء والارتقاء مضامين وأبعاداً هى من صميم « الخصوصية الحضارية » ، التى تميزها عن حضارتنا العربية الإسلامية ، فتنفرد بها عن هذا « المشترك الإنسانى العام » ...... وعلى سبيل المثال :

● فمن النظريات التى لعبت دوراً محورياً فى طبع فكرية الحضارة الغربية الحديثة بطابعها ، وأثرت أبلغ التأثير فى مختلف ميادين هذا الفكر ، حتى غدت بمثابة المنطق والفلسفة

---

(٦٨) البقرة : ٢٦٠ .

لكثير غيرها من النظريات الأساسية التى مثلت قسمات الفكر الغربى الحديث ... تلك التى صاغها تشارلز داروين Darwin [١٨٠٩ ـ ١٨٨٢ م] للتطور والنشوء والارتقاء فى كتابه الشهير [أصل الأنواع] .. وفى هذه « الداروينية » ـ سواء عند منشئها ، أو عند تلاميذه ، بتياراتهم المختلفة ـ لم تقف الحضارة الغربية ، فى هذه القضية ، عند « المشترك الإنسانى العام » ... وإنما ابتدعت جديداً ، هو الذى نراه « خصوصية حضارية غربية » ، لا يجب قبوله قبول « المشترك الإنسانى العام » .. وذلك من مثل :

١ ـ القول بوحدة أصل الأنواع الحية .. بدءاً بالخلية الواحدة ، التى تخلقت ذاتيا ، ومروراً بالحيوانات الفقرية ، حتى القردة ، التى هى أصل الإنسان ! .

فهذه « الإضافة الغربية » ، ذات النزعة المادية الإلحادية ـ لزعمها التخلق الذاتى للحيوان ذى الخلية المفردة ـ .. والمفتقرة إلى « الصدق العلمى » ، لاختراعها قانوناً عاماً بناء على استقراء ناقص ـ كما اثبت ذلك علماء اوربيون وغربيون ايضاً ـ .. هذه الإضافة الغربية قد اتى على بلادنا حين من الدهر ابتلعتها حياتنا الثقافية والفكرية والتعليمية مع ما هو ـ فى التطور ـ « مشترك إنسانى عام » .. وهذا لون من الوان الغزو الفكرى ،

الذى لا يميز بين « الخصوصيات الحضارية » وبين « المشترك الإنسانى العام » .

٢ ـ وقالت الداروينية ، ايضاً ، بتاسيس التطور والارتقاء على « التناقض المطلق » .. وزعمت أن قانون الحياة والأحياء هو صراع الأضداد على البقاء ، وأن البقاء فى هذا الصراع ، ومن ثم الارتقاء ، هو للأقوى ، لأن هذا الأقوى هو الأصلح ! .. فكان أن أعطت هذه « الفكرة ـ الداروينية » للحضارة الغربية فى عصر الكشوف الجغرافية والمد الاستعمارى التبرير والمشروعية لكل ما مارسه الغرب ضد الأمم والحضارات ، التى ابتليت باستعماره ، من قهر ونهب وإبادة ومسخ ونسخ وتشويه ! .

فإذا استرق الغرب الشعوب الملونة ، استرقاقا جماعياً ، فاقام رخاءه المادى على جماجمهم ، وسير سفن سعادته فى بحار عرقهم ودمائهم .. فذلك مشروع ، لأنه هو الأقوى ، فهو الأصلح للبقاء ، وفقاً لهذا القانون « العلمى » الذى زعمته الداروينية ! ..

وكذلك الحال إذا هو أباد الهنود الحمر ، ونسخ حضارتهم .. وإذا هو اقتلع شعوباً من اوطانها

واستعمرها استعماره الاستيطانى ، كما هو الحال فى فلسطين ، وجنوب افريقيا ، وكما حاول فى الجزائر .

وكذلك الحال إذا هو صنع ذات الشىء مع الأبنية الفكرية والثقافية والحضارية لهذه الشعوب التى غلبها على أمرها واقتحم عليها أوطانها بقوته .. فالقوة هى الصلاح ، والقوى هو الأصلح والأجدر بالبقاء ! .

لقد منحت هذه النظرية المشروعية « الأخلاقية » لـ « قانون الغابة » ، فاقترف الرجل الأبيض ما اقترف واجترحت يداه ما اجترحت ، وهو مرتاح الضمير ، راحة أصحاب الرسالات ! .

وانطلاقا من هذه الفلسفة الداروينية ـ التى لبست ثوب « العلم الطبيعي » زورا وبهتانا ـ لم يشعر كثيرون من مفكرى الغرب بالخجل من مشاريع الغزو والدمار ، ومن جرائم المرتزقة والأفاقين والمغامرين فى المستعمرات .. فـ « ماكس نوردو » ، [١٨٤٩ ـ ١٩٢٣ م] يتحدث عن المشروع الفرنسى لاقتلاع شعب الشمال الأفريقي العربى المسلم لحساب الاستعمار الاستيطانى الغربى ، فيقول : « إن شمال أفريقيا سيكون مهجراً ومستوطناً للشعوب الأوروبية .. وأما سكانه الأصليون فسيدفعون نحو الجنوب ، إلى الصحراء الكبرى ، إلى أن يفنوا هناك ؟ ! » .

وجابرييل هانوتو G . Hanotaux [١٨٥٣ ـ ١٩٤٤ م] ـ السياسي والمفكر الفرنسى يقول عن « رسالة » الرجل الأبيض الفرنسى فى الجزائر : « إن شعبا جمهورى المبادىء .. قد تقلد زمام إدارة شعب آخر ، منتشر فى الأرجاء الفسيحة والأصقاع المجهولة ، يتبع تقاليد وعادات غير التى نعنو لها ونحترمها ، هو الشعب الإسلامى السامى الأصل ، الذى يحمل إليه الشعب الآرى المسيحي الجمهورى الآن : ملح وروح المدنية ؟ ! .. » .

أما « سايسيمون دى » ، فيقول ١٨٣٠ م ، عن هذه المهمة الغربية ، مهمة غزو الجزائر : « هذه المملكة الجزائرية التى ستصبح بلداً جديداً يتدفق إليه الفائض من السكان ومن نشاط أبناء فرنسا ؟ ! .. » .

وكما بررت لهم الداروينية إفناء الإنسان الأقوى للأضعف .. بررت لهم ذلك أيضاً فى « صراع » الحضارات .. فكتبوا عن العربية ، لغة الجزائر القومية ، فى ١٨٤٨ م : « إن الجزائر لن تصبح فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا الفرنسية لغة قومية فيها . والعمل الجبار الذى يجب علينا إنجازه هو السعى وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالى إلى أن تقوم مقام العربية ، وهذا هو السبيل لاستمالتهم إلينا ، وتمثيلهم بنا ، وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين ؟ » .

وكتبوا عن الإسلام ، فكرية ـ أيديولوجية ـ الشعب

الجزائرى ، بلسان الكاردينال « لافيجرى » : « إن عهد الهلال فى الجزائر قد غبر ، وإن عهد الصليب قد بدأ ، وإنه سيستمر إلى الأبد .. وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهداً لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل ؟ ! .. » (٦٩) .

لقد صدرت هذه الأقوال ـ وأمثالها كثيرة ـ من هؤلاء المفكرين الغربيين ـ وأمثالهم كثيرون ـ دون أن يشعروا بالخجل ، لأنهم كانوا ينطلقون من فلسفة تقول لهم : إن تنازع البقاء ، وإفناء القوى للضعيف هو القانون العلمى الواجب النفاذ ! .

ومع ذلك ، يدعونا أسرى الغزو الفكرى ، من المتغربين ، إلى ابتلاع هذا « الطعم » ، زاعمين أنه « علم » و« مشترك إنسانى عام » ؟ ! .... غير مدركين انه جزء من **« الخصوصية الحضارية الغربية » المعبرة عن نزعة الاستعلاء والعدوان عند الرجل الأبيض الغربى تجاه الشعوب الملونة وتجاه الحضارات التى ابتليت بالاستعمار الغربى الحديث** ! .

* * *

---

(٦٩) د . محمد عمارة [العرب والتحدى] ص ٢٧٨ ـ ٢٨٠ طبعة الكويت عام ١٩٨٠ م . و[الأمة العربية وقضية الوحدة] ص ٨٨ طبعة بيروت عام ١٩٨١ م

وفى مجال « فلسفة التاريخ » و« التطور الحضارى » اجتهدت « الهيجلية » أن تنهض بذات الدور .. فإبداع الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel [١٧٧٠ ـ ١٨٣١ م] فى فلسفة التاريخ قد طبع الفكر الغربى بطابعه إلى حد كبير .. فسادت نظريته فى انبثاق الفكر ، كبناء فوقى ، من الواقع ، كبناء تحتى .. فالصور والأخيلة إنما هى بنت عصرها ، فإذا دعا التطور هذا العصر إلى أن يخلى مكانه لعصر جديد ، فلابد وأن تخلى هذه الصور والأخيلة والأفكار مكانها لأخرى منبثقة من العصر الجديد .

ولا أحد ينكر ما فى هذه النظرية من عناصر صدق نلمسها عندما ننظر فى تطور المجتمعات والأفكار والحضارات .. فحتى توالى وتغاير الشرائع السماوية ، وفكرة النسخ ، نسخ اللاحق للسابق فى هذه الشرائع ، شاهد على ما فى الهيجلية من صدق وواقعية .

لكن الأمر الذى جعل من الهيجلية ، فى تفسير التاريخ « خصوصية حضارية غربية » ، تجاوزت وغايرت ما هو « مشترك إنسانى عام » فى هذا الميدان .. هو الغلو والمبالغة فى التغير وتأثيراته ومجالاته .. فهى قد جعلت « التغيير » بمثابة « المطلق » ، ولم تعط الانتباه الكافى لعناصر « الثبات » ، التى تظل قائمة فاعلة ، رغم تغير الواقع المادى ، والتى تحفظ على المسيرة الحضارية ، رغم

التطور ، وحدتها وخصوصيتها ، كما تحفظ « البصمة » على الإنسان تفرده وتميزه ، رغم ما يتغير فيه عبر مسيرته من الولادة إلى الممات .

فباستثناء « بقايا أنقاض » من الأبنية الفكرية السابقة ، لن يبقى التطور ـ كما زعمت الهيجلية ـ من انعكاسات الواقع الغابر شيئاً .

وكما حدث بالنسبة لفلسفة الداروينية ، فلقد وظفت الهيجلية فى خدمة الاعصار الاستعمارى والغزو الحضارى والاقتلاع الثقافى والمسخ والنسخ والتشويه الفكرى الذى مارسته الحضارة الغربية الغازية ضد حضارات البلاد التى نكبت بهذا الاستعمار .

فالذين احتلوا ارضنا وهيمنوا على مقدراتنا قد صاغوا واقعنا صياغة جديدة ، وأزالوا منه البنى والمؤسسات القديمة ، إن فى الإنتاج الفكرى أو ميادين الحرف والصناعات .. لقد غيروا الواقع ، وجعلوه « متغرباً » .. وها هى الفلسفة الهيجلية فى تفسير التاريخ ، تاتى لتقول : إن الطبيعي والقانونى والعلمى ان تخلى الرؤى والاخيلة والأفكار الموروثة مكانها ، بعد ان غبر واقعها ، لأخرى مناسبة لهذا الواقع الجديد .. وبما انه ـ الواقع الجديد ـ « متغرب » ، فلابد وأن تكون الفكرية السائدة هى فكرية « التغريب » !

وهذه الفلسفة الهيجلية هى التى وقفت ولا تزال خلف ما قرأناه ومازلنا نقرؤه لأسرى الغزو الفكرى من المتغربين الداعين إلى أن نأخذ الغرب ككل : التصنيع والقيم .. العلوم الطبيعية والمُثُل .. التقدم العلمى والفلسفة والأخلاق .. لأن هذا الإطلاق الذى رجحت به الهيجلية كفة « المتغيرات » على حساب « الثوابت » قد قاد إلى محاولاتهم نفى كل ثوابتنا واقتلاع هويتنا وخصوصيتنا الحضارية من الجذور .

ونحن نعتقد أن ملابسات غربية خاصة هى التى أفرزت هذه الخصوصية الغربية فى فلسفة التاريخ .. فلا أحد ينكر وجود التناقض والمتناقضات .. ولا دور صراع الأضداد فى التطور والنشوء والارتقاء .. والله سبحانه وتعالى يشير إلى هذه الحقيقة وهذا القانون فى القرآن الكريم عندما يقول :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾(٧٠)

وعندما يقول :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ

---

(٧٠) البقرة : ٢٥١ .

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (71)

لا أحد ينكر هذا القانون الفعال .. قانون « التناقض » و« الصراع » .

لكن الحضارة الغربية التي جمدت كنيستها ـ عندما هيمنت على الدولة ـ كل المتغيرات الدنيوية ، من الواقع المادى إلى الفكر والعلم ، ففرضت « الثبات » على ما هو متطور ومتغير بحكم سنن الله فى الكون .. هذه الحضارة الغربية التى غالت كنيستها ، عندما حكمت ، فى « الثبات » على حساب « التغير » ، جاءت نهضتها ، وكرد فعل معاكس ، لتغالى فى « التغير » على حساب « الثبات » .. فكان افتقادها وافتقارها إلى « الوسطية » ـ التى هى أبرز خواصنا الحضارية ـ السبب فى مجىء فلسفة التاريخ الهيجلية على هذا النحو الذى جعلها ويجعلها « خصوصية حضارية غربية » ، وليست من « المشترك الإنسانى العام » .

* * *

---

(71) الحج : 38 ـ 40 .

● والأمر الذى صنعه داروين فى « العلوم الطبيعية » ـ الأحياء ـ .. والذى صنعه هيجل فى التاريخ والفكر .. صنعه كارل ماركس G.Marx [١٨١٧ ـ ١٨٨٣ م] فى علم الاجتماع .. **فالتناقض عنده مطلق .. وصراع الأضداد مطلق .. ولابد للصراع من ان يفضى إلى ان ينفى قطبُ القطب النقيض** .. بهذا فسر ماركس تطور المجتمع من المشاعية البدائية .. إلى العبودية .. إلى الإقطاعية .. إلى الرأسمالية .. إلى الشيوعية .. وبالتناقض المطلق ، والصراع الطبقى الذى لابد وأن « تنفى » فيه وبه « البروليتاريا » « البورجوازية »، رسم ماركس خارطة الحياة الاجتماعية ، زاعماً أنه يقدم « نظرية علمية » ، هى مما يدخل فى « المشترك الإنسانى العام » دخول حقائق العلوم الطبيعية وقوانينها فى هذا الإطار .

والحق ، أن هذا الجانب من جوانب الماركسية ، لا يعدو أن يكون « علماً » اجتماعياً ، ارتبط بخصوصيات الحضارة الغربية ، التى جمدت كنيستها المتغيرات ، والغت ـ او خيل إليها ـ التناقضات .. فجاءها رد الفعل المعاكس ممسكاً ، فقط ، بالطرف المقابل والمناقض .

إن التناقضات الاجتماعية حقيقة واقعة لامراء فيها ، وانقسام المجتمعات إلى طبقات هى الأخرى من حقائق الواقع الملموس .. والصراع بين الأضداد ، وبين الطبقات

ذات المصالح المتناقضة مما لا ينكره العقل السليم .. لكن ما ننكر عمومه فى هذه القضية ، هو القول بضرورة « نفى » طرف للطرف الآخر فى الصراع .. فالمطلوب ليس النفى للقطب الآخر ، واقتلاعه من الحياة والواقع ، وإنما المطلوب هو استخدام الصراع سبيلاً لبلوغ نقطة « التوازن » ، التى تنتفى فيها المظالم الصارخة والجور الواضح .. فعند نقطة « التوازن » هذه تلتحم عرى طبقات الأمة ، أو تتعايش ، وفقاً لمعايير العدل الممكنة التطبيق ، الأمر الذى يتيح لقوى الأمة وطبقاتها ان تسهم جميعاً فى حمل أعباء التقدم العام .. وليس ضرورياً ، بل ولا هو بالنافع ، البلوغ بالصراع نقطة « نفى » احد أقطاب الصراع القطب الآخر نفياً كاملاً ومطلقاً .

فهذه « الفكرة الماركسية » ـ والتى عجزت المجتمعات الماركسية عن تطبيقها بعد مرور ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن على سيادة الماركسية ـ حتى لقد خلقوا بديلاً ـ هو الحزب والدولة والشرائح الحاكمة ـ حل محل القطب الذى ظنوا أنهم نفوه ! ـ هذه « الفكرة الماركسية » ، مثلها كمثل الداروينية والهيجلية ، هى من « خصوصيات الحضارة الغربية » ، وليست ـ فى قضية التطور والتغير والنشوء والارتقاء ـ مما هو « مشترك إنسانى عام » .

إن تزكيتنا لـ « خصوصياتنا الحضارية » لا يعنى

انتقاصنا أو ازدراءنا بـ « خصوصيات الحضارات الأخرى » .. فقد تكون تلك الخصوصيات طبيعية وملائمة ومفيدة هناك .. والقضية الجوهرية هى : الملاءمة وعدم الملاءمة .. وليست بأى حال من الأحوال ، تعصباً أعمى للذات ، وهجاء جاهلياً للآخرين ! .. كما أنها ليست حرصاً على التميز لذات الحرص عليه وإنما هى تمسك بالسنن الطبيعية التى ميزت بين الحضارات فيما هو خاص بكل منها . كما جمعت بينها فيما هو مشترك إنسانى عام .. كما هو الحال فى تميز الإنسان الفرد عن غيره من بنى جنسه ، مع اشتراكه فى الإنسانية مع كل بنى الإنسان .

الطيب والخبيث
فى حقوق الإنسان

بين الحين والحين ، نقرأ هجوماً أو غمزاً ولمزاً ، من دوائر معادية للعرب والمسلمين ، ضد بعض الدول الإسلامية . لأن هذه الدول لا تزال ترفض أو تتحفظ فى التوقيع على « الإعلان العالمى لحقوق الإنسان » ، الذى أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٠ ديسمبر عام ١٩٤٨ م .

والبعض منا قد يريح نفسه من التوقف عند هذا الهجوم أو الغمز واللمز ، قائلاً : هذه دوائر معادية ، ومن ثم مغرضة ومتجنية ، لا تستحق وجهات نظرها التأمل والاعتبار ! .

ولكننا كثيراً ما نقرأ ذات النقد لإحجام أو تحفظ بعض دولنا الإسلامية على هذا الإعلان ، من منظمات عالمية تطوعية لا ينكر أحد جهودها الخلاقة فى الدفاع عن حقوق الإنسان ، فى كل المجتمعات ، وعبر كل الحضارات ، وفق قواعد وضوابط حددتها هذه المنظمات لهذه الحقوق .. الأمر الذى يدعونا إلى أن نأخذ هذا الأمر مأخذ الجد ، فننظر : هل هناك مجال لتمايز حضارى بيننا وبين الحضارة الغربية فى النظر إلى قضية « حقوق الإنسان » ؟! .

* * *

باديء ذى بدء ، فنحن لا نخفى إعجابنا الشديد باهتمام الحضارة الغربية ، والمنظمات الدولية التطوعية ، بخاصة التى أقامها الغربيون ، بقضية الدفاع عن حقوق الإنسان .. ولا نخفى إعجابنا الشديد بما تحقق للإنسان فى ظل الكثير من نظم الحضارة الغربية من كرامة وحقوق ، ومن الوعى الذى ترسخ فى مناهج وبرامج الأحزاب السياسية والمؤسسات الفكرية والقانونية والدستورية والقضائية والإنسانية بهذه الحقوق .. ونتمنى ، من أعماق قلوبنا أن يحظى إنساننا العربى والمسلم بما حظى ويحظى به الإنسان الغربى فى هذا الميدان .

ومع ذلك .. فنحن نضيف أمنية نتمناها ، وقضية ندعو إلى تبنيها ، هى أن يدرك مفكرونا ومناضلونا أن لأمتنا ـ فى قضية حقوق الإنسان ـ إلى جانب ما هو « مشترك إنسانى عام » مايميزها حضارياً ، فى هذا الميدان ، عن المفهوم الغربى لحقوق الإنسان .. وأن الوعى بهذه الخصوصية الحضارية ، والنضال لتحويلها إلى واقع يعيشه إنساننا العربى والمسلم ، ويستمتع بثمراته ، لن ينتقص من كرامة إنساننا وحقوقه عن نظيره الغربى ، بل يزيدهما عمقاً وقدراً وعلواً ، إلى الحد الذى نزعم فيه أن لدينا فى هذا الميدان ما هو جدير بأن يكون « الخيار المستقبلى » الذى تطمح الإنسانية فى اتخاذه نهجاً

ومعياراً لتحقيق الآمال فى ميدان حقوق الإنسان .. كل إنسان ! .

* * *

إن تاريخ الغرب مع فكر ومواثيق وتطبيقات حقوق الإنسان ، تاريخ قريب وحديث .. فإذا كانت أوروبا العصور الوسطى والمظلمة قد سادها الجهل والاستبداد وهيمنت عليها قسوة الرجعية وتحكمت فى إنسانها قيود الكهانة الكنسية وأغلالها .. فإن ما عرفته الحضارة الغربية فى حقبتها اليونانية من « الديمقراطية » لم يعد نطاق القلة القليلة من أحرار المدن اليونانية ، أما الكثرة الكثيرة فلقد كانوا أرقاء ليست لهم أية حقوق .. وعلى أكتافهم وكواهلهم كانت كل الواجبات .. فلقد كان التمييز ، بل الفصل والتناقض بين القلة من الأحرار والأغلبية من الأرقاء حاداً ، والبون شاسعاً .. وكذلك كان الحال بين « العمل الذهنى » الذى يحظى وحده مع أهله بالاحترام . على حين كان « العمل اليدوى » مع أهله ، فاقد الأهلية كلها ... وكان هذا الفكر ، وكانت تطبيقاته الشرعية التى يفخر بها ويتيه الغرب فى حقبة اليونان والرومان .. والذين يعلمون طرفاً من هذا الواقع ، ولو من خلال قصة العبيد فى تلك الحضارة ، والثورة التى قادها فيهم إسبارتاكوس [٧٣ ـ ٧١ ق . م] وما حفلت به

من آلام ، وما انتهت إليه من مأساة ، يعرفون مصداقية هذا الذي نقول :

إذن هو حديث وقريب عهد الحضارة الغربية بمواثيق حقوق الإنسان وتقنيناتها وتطبيقاتها .

لقد بدأت مسيرة الحضارة الغربية على هذا الدرب بفكر الثورة الفرنسية التى بدأت أحداثها عام ١٧٨٩ م .. فإبان هذه الثورة وضع « أمانول چوزيف سييس » [١٧٤٨ ـ ١٨٣٦ م] وثيقة حقوق الإنسان ، تلك التى أقرتها « الجمعية التأسيسية » وأصدرتها « كإعلان تاريخي » ، وكوثيقة سياسية واجتماعية ثورية ، فى ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ م .. ثم سجلت هذه الوثيقة فى الدستور الفرنسى ، الذي أصدرته الثورة عام ١٧٩١ م . ولقد كانت المصادر الأساسية لفكر هذه الوثيقة غربية فى الأساس .. فهى نابعة من فكر المفكر الفرنسي « چان چاك روسو » Rousseau [١٧١٢ ـ ١٧٧٨ م] ومن « إعلان حقوق الاستقلال الأمريكي » ، الذى كتبه « توماس جيفرسون » [١٧٤٣ ـ ١٨٢٦ م] ، والصادر فى ٤ يوليو ١٧٧٦ م .

ومن أهم المبادىء والحقوق التى تضمنتها هذه الوثيقة التاريخية : « أن الناس يولدون ويظلون أحراراً ومتساوين فى الحقوق ، وأن حقوق الإنسان الطبيعية الخالدة هى الحرية ، والملكية ، والأمن ، ومقاومة الطغيان . وأن القانون لا يحظر

إلا الأعمال الضارة بالمجتمع ، وأن السيادة للشعب . وأن القانون تعبير عن إرادته ، ولكل مواطن حق الإسهام فى وضعه ، وأن لجميع المواطنين حقوقاً متساوية فى كافة المناصب والوظائف العامة وفقاً لكفاياتهم ولا تمييز بينهم إلا بفضائلهم ومواهبهم . وأنه لا عقاب إلا على الأعمال التى يُقَرِّرُ العقاب عليها قانونٌ سابقٌ تاريخ ارتكابها . وأن كل متهم مفروض أنه برىء حتى تثبت إدانته ، وأن لكل فرد حرية الرأى والعقيدة ما لم تُخل ممارستها بالنظام العام . وأن لكل مواطن حق الكلام والكتابة ، دون إسراف فى استعماله » .

ولقد انتقلت مبادىء هذه الوثيقة إلى النطاق الدولى عندما تضمنها ميثاق « عصبة الأمم » عام ١٩٢٠ م .. ثم ميثاق « الأمم المتحدة » ١٩٤٥ م .. ثم أفردت ، دولياً ، بوثيقة خاصة هى [الإعلان العالمى لحقوق الإنسان] ، الذى أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة - كما أسلفنا - فى ١٠ ديسمبر عام ١٩٤٨ م .

ونحن نعترف ، مرة أخرى ، أن تاريخ الحضارة الغربية ، فى هذا الميدان - ميدان « حقوق الإنسان » - رغم أنه حديث ، إلا أنه غنى ورائع ومجيد .

* * *

فقط .. نريد أن نضيف ، فنقول : إن لدى حضارتنا العربية الإسلامية ، فى هذا الميدان ، « إضافات » تزيد فكر

هذا الميدان غنى وتدعم ما فيه من ضمانات .. كما أن لدينا فيه أيضاً ، « خصوصية حضارية » تميز بين فكريتنا وفكرية الحضارة الغربية فى هذا الموضوع ! .

● **إن هذا الذى عرفته فكرية الحضارة الغربية ، حديثاً ، فى باب « حقوق » الإنسان .. عرفته فكرية حضارتنا العربية الإسلامية ، بل ومارسته ، قديماً ، ومنذ ما قبل أربعة عشر قرناً ، لا كمجرد « حقوق » للإنسان .. وإنما « كفرائض إلهية وواجبات شرعية » ، لا يجوز لصاحبها ـ الإنسان ـ أن يتنازل عنها أو يفرط فيها ، حتى بمحض اختياره إن هو أراد ! .**

وتلك زاوية لرؤية القضية ، ودرجة فى تناولها ، لا شك أنها « إضافة » تزيد هذا الفكر غنى وأصالة وعمقاً ، وتوفر له المزيد من الفعالية وقوة التأثير .

● فـ « الحياة » .. ترى فكرية الحضارة الغربية فى « الحفاظ عليها » « حقا » من حقوق الإنسان .. لكن صاحب « الحق » حر فى التنازل عن حقه .. ولذلك لا تجرم هذه الحضارة ولا تؤثم من يتنازل عن « حقه » فى الحياة بالانتحار ! ... وليس كذلك موقف حضارتنا العربية الإسلامية من « الحفاظ على الحياة » لأنها تراه فريضة إلهية وواجباً شرعياً لا يجوز ، حتى لصاحبه ، أن يفرط فيه .. فهو يأثم إذا قنط من رحمة الله فانتحر .. ويأثم إذا فرط فى توفير مقومات الحياة ـ غذاء

وكساء وأمناً ـ لذاته ، حتى ولو اضطر فى سبيل ذلك إلى القتل والقتال ـ لأنه إذا طلب مقومات حياته ، حتى بالقتال ضد الظلمة والمحتكرين ، فهو فائز بإحدى الحسنيين .. إن انتصر كان مأجوراً بصيانته وأدائه واجباً شرعياً ، هو الحفاظ على حياته ، وإن قتل فى سبيل ذلك فهو شهيد ! .

و« العلم » .. فى فكرية حضارتنا ، ليس مجرد « حق » من حقوق الإنسان .. بل هو ـ كالنظر والتفكر ـ فريضة شرعية وتكليف إلهى واجب ، يأثم الإنسان إن هو فرط فيه .. ولا يجوز له التنازل عنه بحال من الأحوال .. بل إن التفقه والتخصص والبراعة فى مختلف العلوم والمعارف تزيد فى الدرجة توكيداً وفى مراتب الفريضة علواً ، إلى الحد الذى جعلها إسلامنا « فرض كفاية » ، أى « فريضة اجتماعية » ، هى أشد توكيداً من « فروض العين ـ الفردية » ، لأن إثم التخلف عنها والتقصير فيها إنما يعم ويلحق الأمة جمعاء .. وليس كفروض العين التى يقف إثم التقصير فيها عند الفرد وحده ؟! ..

و« الحرية » .. رأتها وتراها حضارتنا فريضة إلهية وواجباً شرعياً ، هى الأخرى ، لأنها مساوية « للحياة » .. ولقد نبه علماؤنا على أن حكمة جعل الشريعة « تحرير الرقبة » كفارة « القتل الخطأ » ، هو ما فى الرق والعبودية من معنى « الموت » ، وما فى العتق والحرية من معنى « الحياة » .. فمن

أخرج من الحياة نفساً بقتلها خطأ ، فَلْيُدْخِلْ فى الحياة نفساً أخرى بتحريرها من موت الاسترقاق ! .. وبعبارة الإمام النسفى [٧١٠ هـ ١٣١٠ م] : « .. فإنه - [أى القاتل] - لما أخرج نفساً من جملة الأحياء . لزمه أن يدخل نفساً مثلها فى جملة الأحرار ، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها ، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات ، إذ الرق أثر من آثار الكفر ، والكفر موت حكما

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ ﴾(٧٢) ! ..» .(٧٣)

كذلك ذهبت حضارتنا على درب تحرير الإنسان إلى الحد الذى اعتبرت فيه هذا « الواجب » جُماع رسالة خاتم الرسل والأنبياء ، محمد بن عبد الله ﷺ .. فحدثنا القرآن الكريم عن أن جُماع هذه الرسالة قائم فى :

أ - اشتغال الإنسان بشئون أمته ومجتمعه العامة ، متمثلاً فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ب - وتنظيم علاقة الإنسان بالأشياء ، ما هو حلال منها وما هو حرام .

جـ - وتحرير الإنسان من القيود والأغلال .

---

(٧٢) الأنعام : ١٢٢ .

(٧٣) النسفى تفسير [مدارك التنزيل وحقائق التأويل] جـ ١ ص ١٨٩ . طبعة القاهرة عام ١٣٤٤ هـ .

فقالت آيته الكريمة عن هذه الغايات :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾(٧٤) .

و« اشتغال الإنسان بسياسة مجتمعه وامته » .. ليس مجرد « حق » من حقوقه ، حتى يجوز له التنازل عنه بالسلبية والاعتزال للشئون العامة .. وإنما هو فريضة إلهية وواجب شرعى .. فاهتمام الإنسان بأمور الأمة « فرض عين » فـ .. « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .. أما الاشتغال بسياسة الأمة ، فهو فرض اجتماعى . أكد من فروض العين ، تأثم الأمة جمعاء إذا لم ينهض به وبتبعاته فريق أو فرقاء من ابنائها .. وتدخل فى ذلك جميع مهام السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وسائر شئون عمارة الأرض وإدارة الدولة ونظام الاجتماع الإنسانى .. التى وضعها الفكر الإسلامى تحت باب « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» .

وكذلك « العدل » .. و« الشورى » .. والكرامة الإنسانية » .. الخ .. الخ .. وكل ما تحدثت عنه الحضارات

---

(٧٤) الاعراف : ١٥٧ .

الأخرى فى باب « حقوق » الإنسان ، عرضت له حضارتنا العربية الإسلامية كواجب شرعى وفريضة إسلامية ، لا يجوز حتى لصاحب المصلحة فيها أن يتنازل عنها بحال من الأحوال ..وإلا كان آثماً ،الإثم العام الذى يلحق الجميع ! .

ولا شك أن لهذا المنظور ، ولزاوية الرؤية هذه أكبر الأثر فى إثراء هذا المبحث ، وزيادة درجته فى سلم الأولويات الإنسانية ، الأمر الذى يضيف المزيد من القوة إلى رصيد وعدة المناضلين فى سبيل رفع الإصر والأغلال عن كاهل الإنسان .

فنحن مع فكرية الحضارة الغربية فيما هو موضع اتفاق ، بهذا الميدان ، وإلى هذه الفكرية نضيف ما تميزت به حضارتنا مما يدعم النضال الإنسانى العام ، الساعى إلى تحرير الإنسان ، ووضعه حيث اراده الله : الخليفة والنائب والوكيل عن سيد هذا الوجود ! .

● أما « الخصوصية الحضارية » ، التى تميز حضارتنا ، بالمخالفة ، وليس بمجرد الإضافة ، عن الحضارة الغربية ، فى هذا الميدان .. فإننا نوجز الإشارة إلى أهم معالمها ودلالاتها فى هذه النقاط :

١ ـ فالإنسان ، صاحب « الحقوق » ، فى عرف الحضارة الغربية ، هو ، فقط ، « الإنسان الغربى الأبيض » ! .. وليس مطلق « الإنسان » ؟! .. فنحن هنا أمام « عنصرية » ، ولسنا أمام « إنسانية » حقيقية .. وهم فى هذا الموقف العنصرى ، الذى تبرزه الممارسات والتطبيقات فى الدائرة الاستعمارية ، وفى العلاقات الدولية ، يمثلون الامتداد للتراث العنصرى فى الحضارة الغربية .. فإنسان الحقبة اليونانية ، صاحب الحقوق ، كان القلة الحرة ـ السادة ـ وإنسان « التلمود » اليهودى ـ وهو من مكونات الفكرية الغربية ـ هو المؤمن بالعهد القديم .. وليس مطلق الإنسان .

ويشهد على هذا الموقف العنصرى فى تحديد الإنسان ، صاحب « الحقوق » ـ كما قلنا ـ ممارسات الغرب وتطبيقاته ـ التى تمثل القاعدة العامة ـ والتى لا تخلو بالطبع من الاستثناء ـ .. فالغرب قد صاغ مواثيقه عن حقوق الإنسان فى ذات الحقبة التاريخية التى مارس فيها الاسترقاق والاستعباد الجماعى للأمم والشعوب الملونة ، وأنجز فيها أبشع مشاريع النهب الاستعمارى التى شهدها تاريخ الإنسانية الطويل .

وحتى فى هذا القرن العشرين ، رأينا ومازلنا نرى ممارساته فى العلاقات الدولية قائمة على معايير العنصرية إلى حد بعيد ... ولم تفلح مواثيقه عن مبادىء وحقوق الإنسان فى

إخفاء المضمون العنصرى الكالح المستكن فى قلب هذه الممارسات ، والمحرك لتياراتها(٧٥) .

لقد عشنا حينا من الدهر ـ وكثمرة من ثمرات الغفلة والغزو الفكرى ـ نلقن أبناءنا فى المدارس والجامعات ، أن من أسباب نهضاتنا وثوراتنا الحديثة ما أشاعته مبادىء الرئيس الأمـريكـى ويلسـون Wilson (تـومـاس وودرو) [١٨٥٦ ـ ١٩٢٤ م] ـ الذى حكم الولايـات المتحدة الأمريكية مابين ١٩١٣ و ١٩٢١ م .. ما أشاعته مبادئه الأربعة عشر من انتعاش لحقوق الإنسان ، وخاصة فى مجال حق الشعوب فى « تقرير المصير » عقب الحرب الاستعمارية العالمية الأولى ..

لكننا عندما نتأمل هذه المبادىء ، لا يصعب علينا أن نكتشف فيها عنصرية الرجل الأبيض ، وتمييزه العنصرى لبنى جلدته وحضارته عن غيرهم من ملونى الحضارات الأخرى ! .

أ ـ فهى مبادىء التقنين لزحف الغرب القوى على مقدرات الشعوب الضعيفة .. وذلك عندما يدعو المبدأ الثالث منها إلى « إزالة الحواجز الاقتصادية بين الشعوب بقدر الإمكان » .

---

(٧٥) فى امريكا قام أستاذ القانون فى جامعة ولاية إيوا بدراسة إحصائية لاحكام الإعدام الصادرة ضد كل من البيض والسود فى ولاية جورجيا ، اتضح منها ان السود إذا قتلوا بيضاً فإن تعرضهم لحكم الإعدام يكون بنسبة إحدى عشرة مرة ، على حين تكون النسبة مرة واحدة إذا قتل البيض سوداً ؟ ! . انظر [النشرة الإخبارية لمنظمة العفو الدولية] يونيو ١٩٨٧ م .

ب ـ وهى مبادىء التمييز العنصرى بين الشعوب فى « حق تقرير المصير » ، عندما تذكر هذا الحق صراحة وتعترف به بالنسبة للشعوب الأوروبية البيضاء .. فينص المبدأ التاسع على « تعديل حدود إيطاليا بما يتفق مع توزيع القوميات الإيطالية » .. وينص المبدأ العاشر على « تقسيم النمسا والمجر تقسيماً يتفق مع توزيع قوميات الامبراطورية » .. وينص المبدأ الحادى عشر على « تعديل الحدود فى شبه جزيرة البلقان بما يتفق مع الأوضاع التاريخية وتوزيع القوميات » .. فيقرر للقوميات الأوروبية حقوق أهلها فى تقرير المصير وفق سماتها وقسماتها ومكوناتها القومية ، وأوضاعها التاريخية .

فإذا ما جاءت هذه « المبادىء » إلى الملونين ، وإلى وطن العروبة وعالم الإسلام ، على وجه الخصوص ، اختفى منها تعبير « تقرير المصير » ؟! .. ورأينا المبدا الثانى عشر يقرر تصفية الخلافة العثمانية ، دون ان يذكر لشعوب هذه الخلافة اى حق فى تقرير المصير .. فينص هذا « المبدا » على « قصر حكم الأتراك على رعايا من جنسهم . وتقرير حرية الملاحة فى مضيق الدردنيل » ؟! .. وذلك لأن إعلان هذه « المبادىء » قد تم فى ذات الوقت الذى كان فيه الغرب يمهد الطريق لتقسيم تركة « دولة الرجل المريض » بين قوى الغرب الاستعمارى .. فكان ان اعترفت هذه « المبادىء » للرجل الأبيض ـ كشعوب اوروبية ـ بحقها

فى تقرير مصيرها بنفسها .. كما اعترفت للرجل الأبيض ـ كمستعمر غربى ـ « بحقه » فى تقرير مصائر شعوبنا نحن ، رغماً عنا ، وفى غيبة منا ؟! .. فقصروا حكم الأتراك على جنسهم التركى ، واقتسموا العالم العربى وفق معاهدة « سيكس ـ بيكو » السرية التى عقدوها عام ١٩١٦ م .. وقررت الحركة الصهيونية ـ التى هى نبت غربى ـ مصير فلسطين العربية ، من خارجها ، ورغماً عن شعبها ، وذلك وفق وعد بلفور Balfour [١٨٤٨ ـ ١٩٣٠] الذى أعلن فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ م ، والذى وافق عليه الرئيس الأمريكي ـ صاحب المبادىء ـ ويلسون ، قبل إعلانه ؟! .. ثم وافقت عليه فرنسا فى ١٤ نوفمبر ١٩١٨ م .. وإيطاليا فى ٩ مايو ١٩١٨ م .. ثم وضعوه فى الممارسة والتطبيق بواسطة الانتداب البريطانى ، الذى باركته « عصبة الأمم » التى أقاموها عام ١٩٢٠ م ! .

بل إن هذا الغرب لا يزال على هذا الموقف العنصرى من حق شعوبنا فى تقرير المصير .. فكل صهيونى ، من أى جنس ووطن ولغة ، من حقه وفق القانون الصهيونى ، الذى تنفذه حراب الغرب ، أن يقرر الاستيطان بفلسطين فيقرر مصيرها ككيان للاستيطان الصهيونى .. فى الوقت

الذى يقف فيه هذا الغرب ، حتى اليوم ، موقف العداء من حق الشعب العربى الفلسطيني فى تقرير المصير ؟! .

● وخصوصية ثانية لفكر الغرب وممارساته المتعلقان بحق الإنسان فى حرية الاعتقاد وحرية الاعتقاد الدينى على وجه الخصوص .. وهى قضية تثير اللغط وعلامات الاستفهام حول موقف الإسلام منها .وخاصة أنها كانت سبب تحفظ بعض الحكومات الإسلامية على التوقيع على ميثاق « الإعلان العالمى لحقوق الإنسان » ، الأمر الذي جلب النقد والغمز واللمز على الإسلام وموقفه من حرية الاعتقاد الديني ، وتحديداً من حق المسلم فى تغيير دينه ، إن بالإلحاد أو باعتناق ديانة اخرى غير دين الإسلام ... وهى قضية ، إن صمت عن إثارتها البعض ، توهما منهم ضعف موقف الإسلام والمسلمين إزاءها ، فلا يجوز للذين يدركون تألق موقف الإسلام وامتيازه إزاءها ـ وهو الحق الذى سننبه عليه ـ أن يقفوا حيالها صامتين ، فى موقف لا يحسن فيه ولا عليه السكوت ! .

إن الإيمان بالدين ـ أى دين ـ يستحيل أن يتحصل بالإكراه ، لأن الإيمان هو : « تصديق بالقلب يبلغ مرتبة اليقين » .. سيان تم ذلك بالنظر والاجتهاد والبرهنة والاستدلال ، أو بالتقليد .. والتصديق القلبى اليقينى ،

لا يمكن تحصيله وبلوغه بالإكراه .. تلك خاصية للإيمان الديني ، يستوى فيها كل إيمان بكل دين .

وغير متصور من جميع الأديان السماوية ، يهودية ومسيحية ، وإسلاماً ، أن تدعو أصولها ومناهجها إلى استخدام الإكراه سبيلاً لاعتناقها والإيمان بها ، وذلك لاستحالة تحصيل الإيمان بواسطة الإكراه ـ كما قلنا ـ ولأن هذه الديانات قد جاءت معترفة بما سبقها من أديان .. فاليهودية يحكى كتابها قصص الأنبياء الذين سبقوا موسى ، عليه السلام ، حكاية المعترف بنبوتهم ورسالتهم .. وفيما عدا مواطن التحريف فى « العهد القديم » ، فإن الاحترام اللائق هو طابع حديث كتاب اليهودية عن الأنبياء والرسل السابقين .. وكذلك صنع إنجيل ـ أو أناجيل ـ المسيحية ، فلقد تضمنت عبارة المسيح ، عليه السلام ، التى تقول : ما جئت لأنقض الناموس ـ [قوانين وشرائع اليهودية] ـ بل لأتممه .. وفى اعتراف الدين ، أى دين ، بما سبقه من ديانات وشرائع ، ما يدعو ، ولا شك ، إلى إسقاط مبررات انفراد هذا الدين بالتدين الإنسانى على النطاق العالمى ، فضلاً عن أن يكون الإكراه هو سبيل هذا الانفراد .

تلك خاصية عامة ، لابد وأن تشترك فيها الأصول الصحيحة لشرائع ومناهج كل الأديان .

لكن الممارسة والتطبيق هى التى ميزت بين الديانات السماوية الثلاثة فى هذا الميدان .

فاليهود قد اتخذوا لأنفسهم منهاجاً شاذاً وغريباً ، عندما تحولوا إلى « جيتو » ، يعكفون على ديانتهم ، ولا يدعون ، بل ولا يرغبون فى نشرها بين الناس .. حتى لقد تحولت عقيدة التوحيد فى فكرهم الديني إلى ما يشبه الوثنية ، عندما جعلوا الله الواحد إلههم وحدهم ، وجعلوا للشعوب الأخرى آلهتها الخاصة بها ! .. وهم بهذا المسلك الشاذ لم يعرف تاريخهم إكراههم الآخرين على التدين بدينهم ، خصوصاً وأنهم قد عاشوا مجرد أقلية طوال أغلب فترات التاريخ .

أما المسيحية ، فإن تاريخها هو الذى امتلأ بالإكراه والاضطهاد للآخرين كى يدعوا ديانتهم ويدخلوا فى ديانة المسيح .. بل وامتلأ بالإكراه على التمذهب بواحد أو بآخر من المذاهب التى تنتسب جميعاً لديانة المسيح ! .

والأمر الذى يلفت الانتباه هو ان تاريخ الإكراه الديني فى المجتمعات المسيحية ، هو « تاريخ غربى » ، ارتبط بالمجتمعات الغربية وبمنهج الحضارة الغربية على وجه الخصوص ؟! .. حتى لتوحى لنا هذه الحقيقة انها « خصوصية حضارية غربية » ، لا علاقة لها بالأصول الاولى للمسيحية كما بشر بها عيسى ، عليه السلام ! .

لقد كانت الدولة الرومانية ، على عهد وثنيتها ، تكره الذين

اعتنقوا المسيحية على الارتداد إلى الوثنية ، وتستخدم فى ذلك كل سبل القهر والإكراه .. فلما تدينت هذه الدولة المسيحيين ظلت مناهج القهر والإكراه الديني قائمة وفاعلة ، مع تغير اتجاه ريحها ، فغدت تُكْرِهُ غير المسيحية على اعتناق دين المسيح ! .

ولقد استمر هذا الإكراه والقهر ، فى ربوع الحضارة الغربية ، وامتداداتها ، طوال تاريخها ، سُنَّةً سيئة مرعية ومتبعة إلى حد كبير .. ويكفى أن نطالع مرجعاً علمياً واحداً ، كتبه مستشرق منصف هو « سير توماس . و . أرنولد » ، لنرى تلك القسمة والخصوصية الحضارية الغربية ، تقابلها وتناقضها سماحة الإسلام وحضارته إزاء الديانات الأخرى وأهلها ، ورفض الحضارة الإسلامية سلوك الإكراه طريقاً إلى الإيمان ! .

فشارلمان - [٧٤٢ - ٨١٤ م] - فرض المسيحية على السكسونيين بحد السيف .. وفى الدانمرك استأصل الملك كنوت Cnut الديانات غير المسيحية من بلاده بالقوة والإرهاب ... وفى بروسيا فرضت جماعة إخوان السيف Bretheren OF The Sward المسيحية على الناس بالسيف والنار .. وفى ليفونيا فرض فرسان Drdo Fratrum Militiae Christ المسيحية على الشعب فرضاً .. وفى جنوب النرويج ذبح الملك أولاف ترايجفيسون كل من أبى اعتناق المسيحية ، أو

قطع أيديهم وأرجلهم ونفاهم وشردهم ، حتى انفردت المسيحية بالبلاد .. وفى روسيا فرض فلاديمير Vladimir عام ٩٨٨ م المسيحية على كل الروس ، سادة وعبيداً ، أغنياء وفقراء ، غداة اعتناقه لها .. ولم يعترف فيها بإمكانية تعدد الأديان إلا فى مرسوم صدر عام ١٩٠٥ م ! ... وفى الجبل الأسود ـ بالبلقان ـ قاد الأسقف الحاكم دانيال بيتروفتش D.Petrovich عملية ذبح غير المسيحيين ـ بمن فيهم من المسلمين ـ ليلة عيد الميلاد عام ١٧٠٣ م ... وفى المجر أرغم الملك شارل روبرت غير المسيحيين على التنصر أو النفى من البلاد عام ١٣٤٠ م ... وفى أسبانيا ـ قبل الفتح العربى ـ كان المجمع السادس ، فى طليطلة ، قد حرم كل المذاهب غير المذهب الكاثوليكي .. واقسم الملوك على تنفيذ هذا القانون بالقوة .. » .

وحينما امتد نفوذ ونهج الحضارة الغربية هذا ، شهد التاريخ هذا القهر والإكراه والاضطهاد .. « فاليعاقبة ، فى مصر والشرق ، اضطهدهم الأرثوذكس الملكانيون ، بالقتل والنفى والتشريد .. وقتل جستنيان الأول [٥٢٧ ـ ٥٦٥ م] مائتى ألف من القبط فى مدينة الأسكندرية وحدها ، حتى اضطر من نجا من القتل إلى الهرب فى الصحراء ... وفى انطاكية حدث نفس القهر والاضطهاد لغير المسيحيين ، ولمعتنقى غير مذهب الدولة الرومانية من المسيحيين ! ... وفى

الحبشة قضى الملك سيف أرعد [١٣٤٢ - ١٣٧٠ م] بإعدام كل من أبى الدخول فى المسيحية أو نفيهم من البلاد .. وصنع ذلك الملك چون فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى ! .. » .. ناهيك عن مأساة مسلمى الأندلس على يد فرديناندو إيزابيلا ! .

لقد سنت الحضارة الغربية سُنَّة الإكراه فى الدين ، واتخذت القهر - فى أبشع صوره - سبيلاً لانفراد المسيحية بساحة التدين ، بل وانفراد مذهب واحد من مذاهبها بعقائد الذين أكرهوا على « الإيمان » ! .. وكان شعارها كلمات « الوصية » المنسوبة إلى القديس لويس ، والتى تقول : « عندما يسمع الرجل العامى أن الشريعة المسيحية قد أسىء إلى سمعتها ، فإنه ينبغى الا يذود عن تلك الشريعة إلا بسيفه ، الذي يجب أن يطعن به الكافر فى أحشائه طعنة نجلاء » ؟!(٧٦) .

فنحن ، إذن ، امام « خصوصية غربية » ، اعتمدت سبيل القهر والإكراه لتوحيد المعتقد والمذهب الديني ،

---

(٧٦) انظر : ارنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ٣٠- ٣٢ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٢٢ ، ١٢٤ - ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥٤ - ١٥٦ ، ٢٢٣ ، ٢٣٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ . ترجمة د . حسن إبراهيم حسن ، د . عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى . طبعة القاهرة ، الثالثة عام ١٩٧٠ م .

حتى لقد خلت مواطنها المسيحية من الأقليات الدينية ، التى هى شهادة التسامح والتعايش بين الديانات .

أما حضارتنا العربية الإسلامية فإنها سلكت طريقاً آخر في هذا الميدان .

* * *

لم ينطلق الإسلام إلى رفض الإكراه الدينى من مجرد « التسامح » مع الغير ، والعزوف عن « إيذاء وجدان » الآخرين بهذا الإكراه .. وإنما كان المنطلق الإسلامى فى هذا الموقف والمبدأ والمنهج هو « بداهة المنطق » و« الواقعية الحاكمة » .. فمحال أن يكون الإكراه سبيلاً إلى تحصيل « الإيمان » ، الذى هو تصديق بالقلب يبلغ درجة اليقين .. فهو قد يثمر « نفاقاً ومنافقين » ، لكنه لا يمكن أن يثمر « إيماناً ومؤمنين » بأى حال من الأحوال ..

وواقع العقل الإنسانى ، وخبرة المسيرة الإنسانية مع الفكر والاعتقاد ، النابعة من الطبيعة الإنسانية قد أكدت وتؤكد استحالة صب الناس ، كل الناس ، فى قالب واحد ونهج مفرد .. فهناك ما يجتمعون عليه وفيه ، وهناك ما به وفيه يتميزون ويتمايزون .. فالوحدة المطلقة قسر وإكراه ، تتنافى مع الطبيعة والواقع الحاكم .. وإذا كانت التعددية هى الطبيعية فلا بد وأن يكون سبيلها الحرية والاختيار .

من هذا المنطلق والمبدأ ومن هذه الفلسفة اتخذ الإسلام سبيله إلى رفض الإكراه فى الدين ـ **فقنن بذلك رفض الإكراه فى الفكر بإطلاق** ؟! .. فتوالت فى كتابه الجامع وقرآنه الكريم الآيات المحكمات البينات ..

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ ... (77)

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .. (78)

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (79) .

وقاعدة « التعددية » الفكرية ، التى رآها الإسلام « طبيعة إنسانية » ، وسنة من سنن الله فى الإنسان ، لم ينظر إليها الإسلام نظرته إلى « الواقع ـ المُدان » ، إنما رآها « واقعاً طبيعياً » .. ففى إطار الإيمان الديني هناك جامع يجمع

---

(77) البقرة : ٢٥٦ .
(78) هود : ٢٨ .
(79) يونس . ٩٩ .

الإنسانية المؤمنة بحكم الفطرة السليمة ، وهذا الجامع يتمثل فى أصول الإيمان بثوابت ثلاثة : توحيد الله .. والاعتقاد بالبعث والجزاء ، كى لا تكون الحياة عبثاً .. والعمل الصالح ، كمعيار لتمييز ، الأبرار من الفجار ..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ﴾ (٨٠)

فى هذا الإطار تتمثل وحدة دين الله ، سبحانه وتعالى ، أزلا وأبدا .. فالدين عند الله الإسلام .. أى الطاعة فى عبودية الإنسان لله عندما يفرده بالألوهية الواحدة ، كما قال رسول الله ﷺ : « إن ذات الدين عند الله : الحنيفية المسلمة ، لا اليهودية ولا النصرانية ، من يعمل خيراً فلن يكفره »(٨١) .. وفى هذا الجامع جاء القرآن الكريم مصدقاً لما حمله الرسل السابقون لرسولنا من ذات الدين

﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾(٨٢)

، وكذلك كان رسولنا ﷺ .

---

(٨٠) البقرة ٦٢

(٨١) رواه الترمذى .

(٨٢) البقرة ، ٤١ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ (٨٣)

فالوحدة فى الدين ، الجامعة لجوهر الإيمان ، قائمة عبر رسالات كل المرسلين

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (٨٤) .

وإذا كان هذا هو جامع الإيمان ، المميز له عن الشرك ، وإذا كانت هذه هى أصول الدين الإلهى الواحد .. فلقد اقتضت معرفة الخالق بخلقه أن تكون التعددية فى الشرائع والمناهج والسبل ، هى سنته فى خلقه ، مراعاة للتمايز الإنسانى ، والحرية الفكرية ، وإعمالاً لأمانة المسئولية التى حملها الإنسان .. فكما أن دين الله واحد ، أزلًا وابداً ، **فإن التعددية فى الشرائع لدى أمم الرسالات ، هى سنة الله كذلك ، أزلًا وابداً** .. والقرآن الكريم ، بعد أن يحكى نبأ الكتب التى سبقته من التوراة والإنجيل . وكيف أنه يدعو اليهود إلى الاحتكام إلى التوراة .

---

(٨٣) البقرة : ١٠١

(٨٤) الشورى : ١٣ .

﴿ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ﴾ (٨٥) ..

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤ ﴾ (٨٦)

كما يدعو النصارى إلى الاحتكام إلى الإنجيل

﴿ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧ ﴾ (٨٧)

نراه يدعو المسلمين إلى الاحتكام إلى القرآن الكريم

﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ ﴾ (٨٨)

---

(٨٥) المائدة · ٤٣ .
(٨٦) المائدة . ٤٤ .
(٨٧) المائدة · ٤٦ ، ٤٧ .
(٨٨) المائدة : ٤٨ .

بعد حديث هذه الآيات عن منطلقات التعددية فى الشرائع - مع وحدة الدين - يأتى التوكيد القرآنى على أن **التعددية هى فى إطار الإيمان الواحد بالدين الواحد ، أى أنها الإقرار بسنة الله فى تعدد الشرائع أزلاً وأبداً ،** فتمضى الآية لتقول :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[٨٩] .

وعندما وقف مفسرو القرآن الكريم أمام هذه الآيات ، نبهوا على تقنينها للتعدية فى الشرائع ، فقالوا : إنها إرادة الله وحكمه « .. فالشرعة والشريعة : الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى النجاة .. ومعنى الآية : أنه جعل التوراة لأهلها ، والإنجيل لأهله ، والقرآن لأهله ، وهذا فى الشرائع والعبادات . والأصل : التوحيد لا خلاف فيه .. ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ : أى لجعل شريعتكم واحدة ﴿ ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ .. أى ولكن جعل شرائعكم مختلفة ليختبركم ، والابتلاء : الاختبار ! .. »[٩٠] .

---

(٨٩) المائدة ٤٨ .

(٩٠) القرطبى [الجامع لاحكام القرآن] جـ ١ ص ٢١١ . طبعة الكتب المصرية القاهرة .

النصح والنصيحة والبر دون الإثم والنصر على من حارب أهل هذا » الدستور ! .(٩٣)

ثم استمر هذا الموقف الإسلامى قائماً ونافذاً فى واقع المسلمين عبر تاريخهم السياسي والحضارى .. بل لقد اتخذ أبعاداً أوسع وآفاقاً أرحب ، عندما تمت الفتوح ، فأدخل فقهاء الإسلام فى إطار التعددية المشروعة أهل ديانات لم تكن موجودة فى شبه الجزيرة على عهد دولة الرسول ﷺ فاعتبروا المجوس الزرادشتيين وديانات شرقى آسيا - فى الهند والصين - ديانات كتابية ، أو مماثلة لديانات وشرائع الكتابيين ! .. فترسخت « خصوصية التعددية » فى الحضارة العربية الإسلامية ، فكراً وتطبيقاً .. وارتفعت شواهدها ممثلة فى بقاء واستمرار أهل الديانات والشرائع الأخرى على عقائدهم ، آمنين على شرائعهم وشعائرهم ، وأنفسهم وأموالهم ومؤسساتهم الدينية .. يجادلون المسلمين فى الدين ، بمجالس الخلفاء والعلماء والسراة والولاة ، ويسهمون جميعاً فى بناء الحضارة الجديدة التى جمعت فى نسيجها الحديث مواريثهم الصالحة للإحياء مع فكر الإسلام الجديد .. فلم تقف التعددية والحرية فيها ، فقط ، عند حدود السماح لهم « بالوجود المتميز » ، بل جعلتهم بناة فى صرح الحضارة

---

(٩٣) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٥ - ٢١ جمعها وحققها . د . محمد حميد الله الحيدر آبادى . طبعة القاهرة عام ١٩٥٦ م

فإذا كان الناموس الإلهى ، هو التعددية والاختلاف فى الشرائع والمناهج .. وإذا كان « الإيمان » و« الإكراه » نقيضان لا يجتمعان .. فأى دين بلغ ويبلغ ما بلغه الإسلام فى الانتصار لحرية الفكر والضمير بالنسبة للإنسان ، لا كمجرد « حق » من الحقوق ، وإنما كبداهة فطرية ، وفلسفة الواقع الطبيعي ، التى لا تستقيم بدونها الأمور ؟ ! .

* * *

ويزيد من أصالة وعمق وجلاء موقف الإسلام من هذه القضية ، أن موقفه هذا لم يكن مجرد فكر نظرى .. بل لقد وضع الإسلام هذا الموقف فى الممارسة والتطبيق ، منذ أن أقام رسوله ﷺ والمهاجرون والأنصار دولته الأولى بالمدينة عقب الهجرة إليها .. فلم تكن رعية هذه الدولة مقصورة على المؤمنين بالإسلام ، وإنما شملت العرب المتهودين ، فنص دستورها ـ [الصحيفة ـ الكتاب] على التعددية فى دين الرعية ، وعلى المساواة التى لن تضار بهذه التعددية .. فالجماعة المسلمة « أمة واحدة من دون الناس » ، أى أمة الإسلام الدين .. وهم مع مواطنيهم من العرب المتهودين ، يكونون أمة السياسة ورعية الدولة ؛ المتساوية فى الحقوق والواجبات .. « ويهود أمة مع المؤمنين .. وبينهم جميعاً

الجديدة ، فتجسدت ، حتى فى ميدان الحضارة ، قاعدة : الوحدة مع التمييز ، تلك التى أرساها القرآن فى ميدان الشرائع والدين .

وقرأنا شهادات الفكر التى كتبها جمهرة من المستشرقين ـ غير المسلمين ـ .. والتى أرجعت تحول الناس عن عقائدهم القديمة إلى الدخول فى الإسلام أفواجاً .. التى أرجعت هذا التحول إلى الاقتناع الحر ، المبرأ من الإكراه ، والذى لعبت فيه بساطة العقيدة الإسلامية ، مع فساد المؤسسات الكنسية ، وتشوه عقائدها بالهلينية ، الدور الرائد .. فعندما عجزت عقائد الكنيسة عن تلبية احتياجات الإنسان الشرقى البسيط ، لما غرقت فيه هذه العقائد أسرار وتعقيدات افقدتها طبيعتها التوحيدية ، كانت عقيدة التوحيد الإسلامية ، التى بلغت فى التنزيه والتجريد القمة ، جاهزة لتلبية احتياجات هذا الإنسان .. وعندما فسدت المؤسسات الكنسية ، كان الإسلام الخالى من الكهانة والكهنوت مركز جذب لا يقاوم .. فدخل الناس فى دين الله أفواجا ، بعد أن جاء نصر الله والفتح ، دونما ضغط ولا إكراه .. وكما يقول « كيتانى » Çaetani : « **فإن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحى . أما الشرق الذى عرف بحبه للأفكار**

الواضحة البسيطة ، فقد كانت الثقافة الهلينية وبالا عليه من الوجهة الدينية ، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة ، مليئة بالشكوك والشبهات ، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس ، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها . فلما أهَلّت آخر الأمر انباء الوحى الجديد فجاة من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التى اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، وتزعزت قواعدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل . وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى احضان نبى العرب ! .. »

.. لقد أقبل الناس على الإسلام ـ الذى رآوه .. كما يقول « مونتيه » : « عقلانى الجوهر ، باوسع معانى هذه الكلمة » .. اقبلوا عليه « دون أية محاولة للإرغام والاضطهاد » ـ كما يقول « أرنولد » ، فى كتابه [الدعوة إلى الإسلام][٩٤] .

---

(٩٤) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٤٥٥ ، ٩٨ ، ٩٩ .

لقد تجسدت على أرض واقعنا الحضارى هذه الخصوصية الحضارية : « مشروعية التعددية ، القائمة على الحرية ونفى الإكراه » .. كما تجسد نقيضها فى مسيرة الغرب عندما تدين ، وثنية أو مسيحية كان ذلك الدين .. وبلغ شأن هذا التميز حداً صاغه القصص الغربى أسطورة تروى إبان حروب الأتراك العثمانيين مع المجريين .. وتقول :

لقد سأل « چورچ برانكوفتش » القائد المجرى « هنيادى » :

ــ ماذا تصنع لو انتصرت على المسلمين ؟

ــ فقال : أؤسس العقيدة الرومانية الكاثوليكية » .

ثم بحث عن السلطان العثمانى ، وسأله :

ــ ماذا تصنع لدينا لو انتصرت ؟ .

ــ فأجاب : « أقيم كنيسة إلى جانب كل مسجد ، وأدع مطلق الحرية لكل فرد أن يصلى فى أيهما شاء » !(٩٥) .

* * *

لكن .. إذا كان هذا الأمر كذلك .. وكانت خصوصيتنا الحضارية هى حرية الضمير ، والاختيار فى المعتقد ، والتعددية هى الأصل والحكمة وسنة الله التى لا تتحول فى خلق الإنسان ... وإذا كانت خصوصية الغرب ، فى هذا

---

(٩٥) المرجع السابق . ص ٢٢٣ .

الأمر ، على النقيض ـ الذى روينا منه طرفا ـ .. فكيف آل الأمر إلى « مزايدة » الغرب علينا فى ميدان الحرية وحق الإنسان فى اختيار الاعتقاد ؟ .. هل انقلب الوضع ، وتبدلت مواقع الفرقاء ؟! .

نحن لا ننكر أن الإنسان المسلم ، فى واقعه الراهن ، يعيش مأساة الافتقار إلى الحدود الدنيا التى قررها له الإسلام فرائض وواجبات ـ لامجرد « حقوق » ـ فى ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد والتفكير .. لكن هذه القضية ليست مجال بحثنا فى هذه الصفحات[٩٦] .. وإنما نحن نريد أن نبحث عما يميز الخيط الأبيض من الأسود فى دعوى الغرب نكوصنا نحن عن حق الإنسان وحريته فى الاعتقاد الديني ؟ .. لنتبين الحق فنميزه من الباطل فى مقام الغمز واللمز الذى يوجه إلى الإسلام والمسلمين عندما يكون الحديث عن « الإعلان العالمى لحقوق الإنسان » ! .

وإذا نحن أردنا تشخيصاً دقيقاً للدعوى ، فإننا نقول :

إنهم لا يدّعون أن الإسلام يُكْرِهُ الآخرين على تغيير الدين والمعتقد الديني .. ولكن دعواهم أنه يكره الذات ، ذات المسلم ، على عدم تغيير عقيدتها الإسلامية ، فيحرمها

---

(٩٦) انظر كتابنا [الإسلام وحقوق الإنسان .. ضرورات لا حقوق] طبعة الكويت ـ عالم المعرفة ـ عام ١٩٨٥ م . ففيه وفاء بهذا المبحث الهام .

من حرية وحق الإنسان فى تغيير دينه إن هو اراد ، وإلا وقع تحت حد « الردة » .. فالإكراه الذى يتحدثون عنه هو « إكراه الذات » على ان لا ترتد عن دين الإسلام ! .

وعلينا ـ بمنطق الإسلام ـ أن ننظر هذا الأمر ـ أمر ما يسمونه « حق الإنسان فى الارتداد عن دينه » ـ لنرى أين الحق وأين الباطل فى هذا الادعاء .

إن النظرة الإسلامية ، التى بلغت ما بلغت فى تقديس حرية الضمير والاعتقاد ، لتأسيس الإيمان على هذه الحرية ـ كتصديق بالقلب يبلغ مرتبة اليقين ـ ولاستحالة تحققه بغير هذه الحرية تفرق ـ هذه النظرة الإسلامية ـ بين ما يمكن أن نسميه « الشك والوسوسة » ، كعارض ذاتى ، قد يصاب به إنسان ما ، نتيجة للتامل والنظر ، أو فقدان العلم والدليل ، أو بسببهما معا .. وبين الدعوة إلى طرح الإيمان جانباً ، وعلى النطاق العام ، من قبل هؤلاء الذين يصيب « الشك » معتقدهم الدينى فيقودهم إلى الكفر والإلحاد .

فلو أن « زيدا » من الناس ، عرضت له « الوساوس والشكوك » فى أصل الإيمان الديني ، فقاده ذلك ـ والعياذ بالله ـ إلى الإلحاد .. فإن الإسلام يطلب من هذا « الشاك » أن ينظر إلى حالته « كعارض مرضى » ، يجب ان يطلب له

العلاج .. فعليه ان يبحث عن سبل الهداية ، ويطلبها من جميع مظانها ، لدى العلماء وفى بطون الكتب ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ودون تهاون او تقصير .. ثم إن عليه ان يستر حالته هذه ، فلا يشيعها بين الناس ، فمثلها كمثل العورة ، يبحث لها العاقل عما يسترها ، لا أن يعرضها على الجمهور فيشيع الفاحشة بين الناس ! .

وإذا كان الله ، سبحانه وتعالى ، لا يكلف نفساً إلا وسعها .. فليس مطلوباً من « الشاك » ، الذى لم يقصر فى طلب الهداية ، ان يكون كالمؤمن سواء بسواء .. فما دام مفتقراً إلى التصديق القلبي اليقيني ، فطلب الإيمان منه لن يفضى إلا إلى الحصول على حالة من حالات « النفاق » ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ! .

والسؤال هو : ماذا إذا التمس « الشاك » ، الذى قاده الشك إلى « الإلحاد » ، كل سبل الهداية المستطاعة ، فلم يطمئن قلبه بالإيمان .. ومات دون أن يبلغ فى الإيمان مرتبة اليقين ؟ هنا ـ فى تقديرنا ـ وبناء على قاعدة ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ، واستحالة التكليف بما لا يطاق فى الإسلام ـ وطالما انه قد بذل وسعه ، وستر امره ، ولم يشع هذه الفاحشة . والحالة المرضية .. فإن معاملته الدنيوية تكون كمعاملة كاملى الإسلام .. اما

حسابه الأخروى فموكول إلى الله .. ولقد قال فقهاء كثيرون ـ انطلاقاً من قاعدة : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ـ بانه عند الله من الناجين .. لأنه ما كان مستطيعاً ان يكون مؤمناً حقيقياً ! .(٩٧)

إذن ، فالشك ، نتيجة للتامل والنظر ، إذا قاده هذا الشك إلى الإلحاد بدلاً من الإيمان .. لا تثريب عليه ، إسلامياً ، إن هو لم يقصر فى طلب الهداية والرشاد ، طالما انه قد ستر « عورة الإلحاد » كى لا تشيع فاحشتها فى مجتمع المؤمنين .

فليس ، إذن ، فى هذا المنطق الإسلامى ، والموقف الإسلامى « إكراه للذات » على الإيمان القسرى .. لأن هذا « الإكراه » تكليف بما لا يطاق يرفضه الإسلام ـ ثم هو طلب « للنفاق » ، إذ لا يحقق جوهر « الإيمان » كما يعرفه الإسلام ! .

اما إذا كان « الإلحاد » فكراً ورسالة يدعو إليها الملحدون ويشيعونها بين الناس .. فتلك قضية اخرى ، تتجاوز نطاق « حرية الاعتقاد » إلى العمل على تدمير « النظام العام » فى المجتمع الإسلامى .. إذ الإيمان واحد

---

(٩٧) يقول الإمام محمد عبده : « قال قائلون من اهل السنة : إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ، ثم لم يصل إليه ، ومات طالباً غير واقف عند الظن ، فهو ناج . » انظر [الاعمال الكاملة] جـ ٣ ص ٢٨٢ .

من أبرز سمات هذا النظام ، لما يمثله من رباط انتماء ، وعامل وحدة وتاليف ، وايديولوجية أمة ، فضلاً عن كونه كمال فطرة العقل الراشد السليم .. هنا يصبح النشاط الداعى إلى الإلحاد خروجاً على « النظام العام » ، ومحاولة لتدميره ، يدخل فى باب « الحرابة » ، المستهدفة لفساد الدنيا والدولة بإفساد الدين ! .

وحتى نلمس جليا تمييز الإسلام بين هاتين الحالتين من حالات الإلحاد والملحدين ، فإننا ندعو إلى تأمل عدد من الحقائق الماثلة فى إطار الأدلة المرجعية فى الإسلام حول هذا الموضوع ، وذلك من مثل :

١ ـ خلو الآيات القرآنية التى تحدثت عن الردة من ذكر عقوبة القتل ـ بعد الاستتابة ـ كحد لها .. لماذا ؟ ! :

لأن هذه الآيات القرآنية كانت تتحدث عن « ردة النفاق والمنافقين » .. فهى ردة ذاتية وسرية غير معلنة ، يظهر أهلها الإسلام فى مجتمع المدينة على عهد الرسول ﷺ .. فهى ، فى الحقيقة ، « زندقة » .. وكما يقول الإمام الشافعى [١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ ٧٦٧ ـ ٨٢٠ م] « فإن الزنديق هو الذى يسر الكفر ويظهر الإيمان .. » ولقد عبر الإمام مالك عن ذات المعنى فى قوله : « إن النفاق فى عهد رسول الله ﷺ هو الزندقة فينا اليوم »(٩٨) .. وهؤلاء المنافقون ، الزنادقة ، الذين أسروا الكفر

---

(٩٨) [الجامع لأحكام القرآن] جـ ١ ص ١٩٩ .

وأظهروا الإيمان ، ولم يدعوا غيرهم إلى زندقتهم ، .ولم يظهروها فيشيعوها بين الناس ، عوملوا معاملة المسلمين ، وترك حسابهم الأخروى إلى الله .. فخلت آيات القرآن التى تحدثت عنهم ، والتى استخدمت مصطلح « الردة » فى وصف حالهم ، من تقرير عقوبة الردة ، القتل بعد الاستتابة

﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾ (٩٩) .

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

---

(٩٩) البقرة : ٢١٧ .

وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ (١٠٠)

.. فهم قوم يسرون موالاة أعداء الإسلام .. فى الوقت الذي يظهرون فيه موالاة المسلمين .. بل لقد ﴿ أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم ﴾ مع المسلمين ! ....

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١٠١)

.. فهم يعيشون فى إطار الأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامى والدولة الإسلامية ، لكنهم قد ارتدوا عن كامل الولاء والموالاة للجماعة والأمة الإسلامية ، فأطاعوا الأعداء [فى بعض الأمر] سراً ؟ ! .

وعن هؤلاء الزنادقة المنافقين ، الذين لم يعلنوا ردتهم ، ولم يشيعوا فاحشتها ، والذين ـ لذلك الإسرار ـ لم تنص الآيات

---

(١٠٠) المائدة ٥١ ـ ٥٤ .

(١٠١) محمد ٢٥ ، ٢٦ .

التى تحدثت عنهم ـ بلفظ الردة ـ على عقوبة الردة فى حقهم ..
عنهم يقول الإمام ابن جرير الطبرى [٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ ـ ٨٣٩ ـ ٩٢٣ م] : « لقد جعل الله الأحكام بين عباده على الظاهر ، وتولى الحكم فى سرائرهم دون أحد من خلقه ، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر ، لأنه حكم بالظنون ، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله ﷺ وقد حكم للمنافقين بحكم الإسلام بما أظهروا ، ووكل سرائرهم إلى الله . وقد كذّب الله ظاهرهم فى قوله :
﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ﴾ (١٠٢) (١٠٣) ..» .

فمنْ ستر فى الدنيا ، ستر الله عليه فيها ! .

٢ ـ وهؤلاء « الشكاك » الذين أصابتهم الوساوس فزعزعت قواعد إيمانهم .. إذا هم التمسوا سبل الهداية وأدلة اليقين لدى العلماء ، لا يعد شىء من سعيهم هذا ، وحوارهم مع العلماء ، إظهاراً للإلحاد وإشاعة للشكوك والوساوس ، يستوجب الاستتابة وإقامة حد الردة عليهم .. بل إنه سعى يدعو إليه الإسلام ويأمر به الله .. ولقد رأينا فى عهد رسول الله ﷺ حال ذلك النفر من الصحابة الذين أصابهم شىء من

---

(١٠٢) المنافقون : ١ .
(١٠٣) [الجامع لأحكام القرآن] جـ ١ ص ٢٠٠ .

ذلك ، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون ويلتمسون سبل الهداية واليقين .. وحدثوه عما عرض ليقينهم من زلزال جعلهم يبلغون حالاً قالوا إنهم يتعاظمون أن ينطق به لسانهم ، فأهون عليهم أن يلقوا في النار من أن يتلفظوا به - وما نراه إلا الإلحاد ! - فتلقاهم الرسول ﷺ لقاء البشير ، وحدثهم عن أن شك البحث عن الحقيقة هو الطريق الآمن إلى اليقين ! .. لقد قالوا له - فيما يرويه أبو هريرة - : « يا رسول الله ، إن أحدنا يحدث نفسه بالشيء ما يحب أن يتكلم به وإن له ما على الأرض من شيء .. وإنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ! » ... فكان جوابه ﷺ : « وقد وجدتموه ؟ ! » .. قالوا : نعم .. فقال : « ذاك صريح الإيمان .. ذاك محض الإيمان ! .. »(١٠٤) .

لقد حدثوا أنفسهم بهذا الذى عرض لهم .. ثم ذهبوا يطلبون سبل الرشاد واليقين .. فلم يقل أحد إنهم قد أعلنوا شكهم أو أشاعوا وساوسهم حتى تقام عليهم العقوبات ! .

٣ - أما الردة التى يقام الحد على مرتكبها ، فإنها أشبه ما تكون بجريمة « الحرابة » ، التى هى محادة لله ولرسوله ولجماعة المؤمنين .. إنها إعلان الحرب على الإيمان ، كنظام للاجتماع الإسلامي ، تجعل من المرتدين

---

(١٠٤) حديثان ، روى أحدهما مسلم ، وروى الثانى الإمام أحمد .

معول هدم للنظام الإسلامى ! .. وليس سراً ولا هو مما تخفى دلالته أن الفقهاء الذين قرروا للردة حداً ـ هو القتل بعد الاستتابة ـ قد استندوا إلى الحديث النبوى ، لا إلى القرآن .. وأن الحديث الذى استندوا إليه لا يدع مجالاً للشك فى أن هذا هو معنى الردة التى تستحق هذا العقاب ، لأنها إعلان وإشاعة للفاحشة ، ومحاربة للأمة ، والتحاق بمعسكر العدو فى ظل ملابسات الصراع ومخاطره .. ففيها مفارقة للجماعة المؤمنة ، ودعم لمعسكر الأعداء ... « فعن عبد الله بن عمر ، قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : والذى لا إله غيره ، لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، **والتارك لدينه المفارق للجماعة ..** »[١٠٥]

وهناك حديث عن الرجل المنافق ، الذى كان يزيف فى كتابة القرآن .. فبدلاً من أن يكتب غفوراً رحيماً ، يكتب : عليماً حكيماً .. وهكذا .. ثم لحق بالمشركين ، فاستحق لقب المرتد وحكم الردة[١٠٦] ... وحديث الذين ارتدوا كفاراً بلحاقهم

---

(١٠٥) رواه الإمام أحمد .

(١٠٦) رواه الإمام أحمد وابن ماجة والترمذى والنسائى .

بالمشركين « فضرب الله أعناقهم مع أبى جهل » يوم بدر ـ كما رواه ابن عباس.(١٠٧)

ولعلنا نلمح معنى ومغزى لمجىء « باب الردة » فى كتب الفقه الإسلامى عقب « كتاب الحرابة » .. ولقول بعض الفقهاء إن آية الحرابة ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا ﴾(١٠٨) إنما، نزلت فى النفر الذين ارتدوا فى زمن النبي ﷺ واستاقوا الإبل ، فأمر بهم رسول الله ﷺ فقطعت ارجلهم وايديهم وسملت اعينهم ..(١٠٩) » جزاء ردتهم وحرابتهم وقتلهم لنفر من الصحابة غدراً ..

ونلمح كذلك مغزى قول الثورى وابى حنيفة واصحابه وابن شبرمة وابن علية وعطاء والحسن وابن عباس وعلى ابن ابى طالب .. قول هؤلاء العلماء بعدم قتل المراة المرتدة ، لعدم تحقق آثار الحرابة فى ردتها !(١١٠) .

---

(١٠٧) رواه الإمام احمد

(١٠٨) المائدة : ٣٣ .

(١٠٩) ابن رشد [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] جـ ٢ ص ٤٩٢ ، ٤٨٨ . طبعة القاهرة عام ١٩٧٤ م .

(١١٠) [الجامع لاحكام القرآن] جـ ٣ ص ٤٨ .

إذن ، فليس فى الإسلام « إكراه للذات » على « إيمان قسرى » لم يقم عليه دليل .. وإنما الذى فى الإسلام هو حماية للنظام الاجتماعي ، المؤسس على الإيمان الديني ، من هدم « المرتدين » ، الذين تحمل « ردتهم » كل معانى « الحرابة » ومحادة الله ورسوله ، ومناصبة الأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامى كل العداء .

ثم - وهذا ضرورى وهام فى موضوعنا - إننا ننبه على مخاطر وأخطاء منهج أولئك الذين ينظرون إلى « ذاتنا » بعيون غربية ، فيرون إسلامنا مسيحية ، فى صورتها الكهنوتية الغربية .. فحرام وغير موضوعى أن ننظر إلى إسلامنا العقلانى على أنه المسيحية الغربية التى حولت نقاء عقيدة التوحيد وبساطتها وعقلانيتها إلى طلسم يستعصى على فهم البسطاء والمتخصصين جميعاً ؟ ! .

إن علماء الغرب ومفكريه هم أنفسهم الذين قالوا ويقولون عن عقيدة المسيحية ، كما عرفوها وعن قانون الإيمان فيها - على حد تعبير « مراتشى » Marracci : « **إن أسرار هذه العقيدة فاقت طاقة الذكاء البشرى ، ففدت - على الأقل - من الصعوبة بمكان ، إن لم تكن مستحيلة » الفهم**(١١١) ! .. وقائل هذا القول - مع ذلك - مؤمن بهذه العقيدة المسيحية ! .

---

(١١١) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٤٥٤ - « هامش » - .

وعلماء الغرب هؤلاء ، لم يدعهم ـ وخاصة المنصفين منهم ـ اختلافهم مع الإسلام وحضارته إلى إنكار تميز عقيدة الإسلام بالعقلانية التى لا تدع مبرراً لإلحاد العقلاء فيه .. » فالإسلام ـ وفق عبارة البروفسور مونتيه ـ : فى جوهره دين عقلانى ، باوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية . فإن تعريف الأسلوب العقلى Rationalism بانه طريقة تقيم العقائد الدينية على اسس من المبادىء المستمدة من العقل والمنطق ، ينطبق على عقيدة الإسلام تمام الانطباق .. إن لدين محمد ﷺ كل العلامات التى تدل على انه مجموعة من العقائد قامت على اسس المنطق والعقل .. وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهى ، على وجه التحقيق ، من اظهر القوى الفعالة فى الدين وفى نشاط الدعوة الإسلامية .. ولقد حفظ القرآن منزلته ، من غير ان يطرا عليه تغيير او تبديل ، باعتباره النقطة الاساسية التى بدات منها تعاليم هذه العقيدة ، وقد جهر القرآن دائماً بمبدا الوحدانية ، فى عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول ، ومن العسير أن نجدفى غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا ... ولقد كان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد ، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية ، ثم هى تبعا لذلك فى متناول

إدراك الشخص العادى ، أن تمتلك ، وإنها لتمتلك فعلاً ، قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس ! .. »[112]

ولقد انتهى المنصفون من علماء الغرب ـ وهم على مسيحيتهم ـ من هذه المقارنة إلى القول بأن « من قارن بين أسرار العقيدة المسيحية .. وبساطة عقيدة القرآن ، فإنه ينصرف عن الأولى فى الحال ، ويسرع إلى الثانية فى ترحيب وقبول ! »[113] .. قالوا ذلك ، رغم افتقارهم لشجاعة تنفيذ هذا الذى قالوه ؟! .

إذن ، فإسلامنا ليس المسيحية ، حتى ننظر إليه بعيون اللاهوت الكنسى الغربى .. وإذا كانت لا عقلانية العقيدة المسيحية ـ كما انتهى إليها اللاهوت الكنسى الغربى ـ تجعل إلحاد العقل الغربى فيها وارتداده عنها أمراً وارداً ، ومن ثم يكون من الطبيعي أن يرى هذا العقل الغربى فى « الردة » حقاً من حقوق الإنسان ، فإن هذا الأمر غير وارد ، وغير جائز فى إطار إسلامنا العقلانى ، طالما أن فهمه فهم العقلاء أمر مباح ومتاح وغير محظور بل وواجب فى حق العقلاء .. وما استعارة « الردة » ، كحل لمشكلة العقل الغربى مع مسيحيته الغربية ، واستدعائها كحق من حقوق الإنسان إلى عالمنا الإسلامى

---

(١١٢) المرجع السابق . ص ٤٥٤ ـ ٤٥٦ .

(١١٣) المرجع السابق . ص ٤٥٤ « هامش » .

وحضارتنا الإسلامية وإسلامنا العقلانى ، إلا ضرب من « السفه الفكرى » الذى لا يبصر أصحابه علاقة « الفكر » بـ « الواقع » وخطأ وخطل استعارة « حل » غريب لمشكل غير موجود ؟! .

إن إسلامنا هو الذى تآخت فيه - بالوسطية - « الحكمة » و« الشريعة » ، و« العقل » و« النقل » ، حتى لقد عرفنا معجزته الكبرى - القرآن الكريم - وهى معجزة « نقلية » ، عرفناها ، كذلك ، معجزة « عقلية » ، العقل فيها هو مناط التكليف ، والحكم فى فقه مرامى النصوص ، والأداة فى رد « المتشابه » إلى « المحكم » .. كذلك عرفنا ، فى هذا الإسلام ، أن طريق معرفة الله سبحانه - وهى جوهر التدين وعماد الإيمان - هى العقل ، الذى به يدرك الإنسان ، أيضاً ، صدق الرسل وحجية الكتاب المنزل من السماء .. الأمر الذى يجعل « الإيمان الإسلامى » من كمال العقل وسلامة الفطرة الإنسانية ، فيفقد أنصار الغزو الفكرى كل مبرر لدعوى أن « الردة والإلحاد » حق من الحقوق العقلية للإنسان بالمعنى الذى تعارفت عليه الحضارة الغربية ودساتيرها ومواثيقها التى عرضت لهذا الموضوع .

إننا ندعو إلى تأمل كلمات الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - وهو من

أبرز العقول المجددة لإسلامنا فى العصر الحديث ـ التى يقول فيها عن هذه القضية :

« إن الرجوع عن الدين رجوع عن أصوله الأساسية الثلاثة ، وهى :

١ ـ الإيمان بأن لهذا الكون العظيم المتقن فى وحدة نظامه ، وبديع أحكامه ، ربا إلها أبدعه وأتقنه بقدرته وحكمته بغير مساعد ولا واسطة ، فلا تأثير لغيره فى شىء منه إلا ما هدى هو الناس إليه باطراد سننه فى الأسباب والمسببات ، فيجب عليهم أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً ، لا فى الدعاء ولا فى غيره من معانى العبادة . **وهذا الأصل هو منتهى ما يصل إليه ارتقاء العقل البشرى فى الاعتقاد ، وتطهير الأنفس من الخرافات والأوهام .**

٢ ـ الإيمان بعالم الغيب والحياة الآخرة ، ذلك أن العوالم الحية التى فى هذا الكون لا تنعدم من الوجود ولا تنفذ من أقطار ملك الله بما نراه من فساد تركيبها وذهاب صورها ، **فإذا كان العدم المحض غير معقول ، والتحول فى الصور مألوف منظور ، فلا غرو أن يكون للناس حياة أخرى فى عالم آخر بعد خراب هذا العالم . وهذا الإيمان ركن من أركان الارتقاء البشرى ، لأنه يبعث البشر إلى الاستعداد لذلك العالم الأوسع الأكمل ، ويعرفهم بأن وجودهم أكمل وأبقى مما يتوهمون .**

٣ ـ العمل الصالح الذى ينفع صاحبه وينفع الناس .. إن الرجوع عن الإيمان إلى الكفر يشبه الآفة تصيب المخ والقلب فتذهب بالحياة ، فإن لم يمت المصاب بعقله وقلبه ، فهو فى حكم الميت لا ينتفع بشىء . وكذلك الذى يقع فى ظلمات الكفر بعد أن هدى إلى نور الإيمان ، تفسد روحه ويظلم قلبه ، فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية ، ولا يعطى شيئاً من أحكام المسلمين الظاهرة ، فيخسر الدنيا والآخرة » !(١١٤) .

إن ديننا قد جعل ويجعل « النظر العقلى » الأصل الأول من أصوله .. وقدم هذا « النظر العقلى » على « ظاهر الشرع » ، إذا لاح تعارض بينهما ، لا يمكن أن تعرض للعقلاء ـ إذا هم عقلوه حق العقل ـ حاجة عقلية إلى « الردة والإلحاد » .. « إن أول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى ، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة ، وقاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه ؟ .

بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ،

---

(١١٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٤ ص ٥٨١ ، ٥٨٢ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ .

ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن ، فهوناج . فاية سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة ؟ .

كذلك اتفق أهل الملة الإسلامية ، إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه ، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أُخذ بما دل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول ، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه ، والطريق الثانية : تأويل النقل ، مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل .

وبهذا الأصل ، الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ مُهِّدَتْ بين يدى العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد ، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا ؟ .. وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسعهم هذا الفضاء ؟ ! . إن لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء بأجرامها وأبعادها ! .. »(١١٥)

---

(١١٥) المصدر السابق . جـ ٣ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

فهل بعد هذا الذى قدمنا .. والذى اقتبسناه من عبارات الإمام محمد عبده ـ بقية من شبهة على مقولة المتغربين ، أسرى الغزو الفكرى ، الزاعمة ضرورة « حق الردة والإلحاد » ، للعقل المفكر والمتفلسف فى إطار عالم الإسلام ؟ ! .

لقد رأينا أغلب الذين ضلوا عن سبيل الله فألحدوا ، فى الواقع الإسلامي المعاصر ـ وهم قلة نادرة فى أمتنا ـ رأيناهم أكثر الناس جهلاً بالإسلام .. ورأينا صفوفهم قد خلت من أهل الفكر والاجتهاد والتأمل والنظر الفلسفى .. فكان إلحاد « المثقفين » منهم « تقليداً » لمفكرى الغرب ، الذين تتلمذوا عليهم دون غيرهم ، عندما رأوا الإسلام ـ الذى لم يقرأوه ! ـ وكأنه المسيحية الغربية كما رآها « أئمتهم وأسلافهم » الغربيون .. يستوى فى ذلك « الليبراليون » و« الشموليون » ، من هؤلاء الماديين الملحدين ! .. أما إلحاد « عامتهم » ، من أشباه المتعلمين وأنصاف المثقفين ، فهو الحاد « تقليد » أو « مجون » و« تحلل من التكاليف » .. قلدوا فيه « متثقفيهم » ـ الذين قلدوا بدورهم مفكرى الغرب الماديين ـ « حذوك النعل بالنعل » ، دونما اجتهاد من أحدهم أو خلق وإبداع ! .

فلا الإسلام بمقيم أمام العقل عقبة تبرر الإلحاد .. ولا الذين الحدوا قد خبروه حتى تكون لهم حجة فى استعارة هذه الآفة الغربية إلى عالم الإسلام والمسلمين ! .. ولكنه الغزو

الفكرى الذى جاءنا به الغرب فاحتل به عقل هذه القلة من المتغربين ! .

* * *

لقد سبقت إشارتنا إلى تميز الحضارة الغربية بالطابع المادى الإلحادى .. وإلى وقوفها بالتدين ــ حتى عند المؤمنين فيها ــ غالباً ــ عند حدود « الشكل » و« الطقوس » .. بل واختزال هذا التدين الشكلى إلى ساعة من الأسبوع ، وفى حدود العلاقة الفردية .. فوقعت الحياة كلها ، فى تلك الحضارة ، فكراً وممارسة بعيداً عن « عمق » التدين و« شموله » .. فهل يريد المتغربون ، أسرى الغزو الفكرى ، فرض هذه الخصوصية الحضارية الغربية .. على حضارتنا العربية الإسلامية ، متوهمين أنها « مشترك إنسانى عام » ؟ ! .

لقد اقمنا الدليل ــ بل الأدلة ــ على أنها ليست من « المشترك الإنسانى العام » .

ولقد سبقت إشارتنا إلى دور الحضارة الغربية فى إفساد العقيدة المسيحية ، عندما أخرجتها ، بالفكر الهلينى ، عن بساطة التوحيد .. فكانت سبباً فى إفلاس الكنائس الشرقية وعجزها عن إشباع الحاجات الروحية للإنسان الشرقى ، الأمر الذى ملأ فراغه وجبر نقصه نقاء وبساطة عقيدة التوحيد فى الإسلام .. فهل يريد المتغربون ، أسرى الغزو

الفكرى ، بتبنيهم « نموذج التدين الشكلى » فى الحضارة الغربية ، وإشاعته بين ظهرانينا ، أن يفسدوا بالتغريب الحديث هذا على المسلمين « عمق » تدينهم و« شموله » ـ كخاصية حضارية إسلامية ـ كما أفسد التغريب القديم ، بالهلينية ، توحيد المسيحية الشرقية القديم ؟! .

وهل ينطلى ذلك الإفساد على « العقل » المسلم حتى ولو سموه « حقاً » من حقوق الإنسان ؟؟! .

* * *

بقى أن نقول : إن بعض المذاهب والكنائس المسيحية الشرقية ، التى اجتذبتها وطغت على « مُثلها » فكرية التغريب ، والتى ، لذلك ، ضمرت فى رسالتها مساحة الإشباع الروحى لأبنائها ، فغدت تحتجزهم فى كنفها ـ كيلا يفروا إلى الإسلام ـ « بالرباط الطائفى » ، بعد أن عز رباط « الإشباع الروحى » .. إن بعض هذه المذاهب وكنائسها ، تتبنى موقف التغريب المدافع عن « الردة » كحق من حقوق الإنسان .. لا لأنها مخلصة لمذهب الغرب من هذا الموقف .. وإنما كحل « انتهازى » لمشكلات داخلية تعانى منها نظمها وقوانينها الخاصة .. ذلك أن « الجمود المذهبي » الموروث لدى هذه الكنائس يحول بين قوانينها فى الأسرة ـ الأحوال الشخصية ـ وبين توفير الحلول الواقعية لما يعترض الأسرة من مشكلات .. وخاصة فى قضايا « الطلاق » و« تعدد الزوجات » .. ولذلك

لجأ ويلجأ نفر من أبناء هذه الكنائس إلى « الإعلان الصورى » عن دخولهم الإسلام ، طلبا للخروج من مآزق وقيود قوانينهم الكنسية فى الزواج والطلاق .. حتى إذا قضوا من ذلك الوطر عادوا إلى كنيستهم من جديد ! .

وأمام هذه المشكلة وبسببها يحتدم الجدل المكتوم ؟ ! بين علماء الإسلام وبين كهنة هذه الكنائس حول قانون « الردة » وحدّه منذ سنوات .. فعلماء الإسلام يريدون تقنين « الردة » لإقامة حدها على من يرجع عن الإسلام بعد إعلانه الدخول فيه .. وكهنة هذه الكنائس يخشون ذلك كى لا يكون فرار أبنائهم من كنيستهم فراراً دائماً ومؤبداً ... فهم ليسوا فى الحقيقة مع « الارتداد » عن الدين ، لكنهم « ينتفعون » من بقاء حد الردة دون تقنين وبعيداً عن الإعمال والتطبيق ! .

والأمر الذى لا مراء فيه ، أن صيانة التدين عن العبث هو مطلب وموقف يجب أن لا يكون موضوعاً لخلاف بين كل المتدينين من كل الديانات .. وحل هذا المشكل كامن فى ضرورة تطوير هذه المذاهب غير المسلمة لقوانين الأحوال الشخصية الخاصة بأبنائها ، كى لا يكون العبث بالتنقل بين الأديان هو الباب الوحيد أمامهم للخروج من مشكلاتهم الأسرية التى تمسك منهم بالخناق .. وإذا كان هذا اللون من الانتقال بين الأديان لا يعد ـ فى حقيقته ـ « ردة » ، لأن صاحبه لم يغير

ـ فى الحقيقة ـ معتقده الديني .. فإنه داخل فى إطار « العبث » والاستهزاء بالمقدسات ، التى يجب أن تصان عن العبث والاستهزاء .. « فالتعزير » الرادع يجب أن يكون جزاء هؤلاء العابثين .. والتطوير لقوانين الأسرة فى هذه المذاهب المسيحية ، هو الحل الجذرى الذى يحرر موقف أبنائها من هذه المواقف غير اللائقة بمطلق المتدينين بأى دين من الأديان .. وغير لائق بهؤلاء الذين « ينتفعون.» هذا الانتفاع الانتهازى من هذا العبث ، أن يغلفوا موقفهم اللا مبدىء هذا بغلاف « التغريب » الذى يزعم أن « الردة » حق من حقوق الإنسان ! .

أى النماذج هو التحرير للمرأة ؟؟

فى تاريخنا الحضارى ، منذ ظهر الإسلام وحتى عصرنا الراهن ، يستطيع الراصدون لموقف المجتمع وفكره السائد من « المرأة » ، التمييز بين مراحل ثلاث .. لكل منها خيوطها العريضة وقسماتها المتميزة ، التى تعطيها نوعاً من « التميز » ، ولا نقول « الاستقلال »... فهى متداخلة تداخل مراحل الحضارة الواحدة عبر التاريخ .. ثم إن عموم هذه الخيوط والقسمات ، التى تميز المرحلة ، كل أقاليم الأمة وأوطانها ، وجميع بيئاتها وطبقاتها ، هو الآخر أمر غير مطلق ولا عام .. بل يحتاج إلى تفصيل وضبط وتدقيق شديد .

وإذا كان الأمر ـ فى مقامنا هذا ـ ليس من مقاصده التفصيل لموقف المجتمعات العربية الإسلامية من المرأة ، وإنما هو الرصد للملامح العامة ، وصولاً إلى تحديد « هويتنا » الحضارية فى هذه القضية ، لاكتشاف أى الشعارات والأفكار فى الساحة المعاصرة هى الوافية حقاً بتحقيق التحرير العربى الإسلامى للمرأة العربية المسلمة ؟ .. وأيها هى « الغزو الفكرى التغريبى » المتخفى تحت شعارات « التحرير » ؟ .. إذا كان هذا هو الهدف المحدد لهذه الصفحات ، فإننا نستطيع أن نلمح ونميز المعالم

الرئيسية لموقف المجتمع من « المرأة » ، عبر هذه المراحل الثلاث ، على النحو التالى :

* * *

١ ـ فى المرحلة الأولى ، التى تبدأ بظهور الإسلام .. والتى تمتد عبر الخلافة الراشدة ، والدولة الأموية ، إلى نهاية العصر العباسى الأول .. أى إلى حقبة سيطرة العسكر المماليك على الدولة العباسية ، وظهور آثار هذه « العسكرة » فى الفكر والقيم والأعراف .. فى هذه المرحلة الأولى أنجزت حضارتنا الجوهر الحقيقي لتحرير المرأة العربية المسلمة ، وكان هذا التحرير عميق الجذور ، وشاملاً لمختلف الميادين .

ونحن نستطيع أن نكثف ونجمل ونوجز فلسفة الإسلام فى تحرير المرأة ، تلك التى وضعت فى الممارسة والتطبيق ، فى شعار : « **المرأة هى الشق المكمل للرجل ، والمساوى له** » !

لقد نظر الإسلام إلى المرأة كإنسانة انثى ، وإلى الرجل كإنسان ذكر .. فهناك تمايز فى الطبيعة ، اقتضته حكمة خلق الله الناس من ذكر وانثى ، ليكون التكامل شوق كل منهما وسعادته .. وحتى لا يكون التماثل والتطابق داعية الملل والنفور .. ثم ليكون هذا التكامل سبيلاً لبقاء النوع بحراً هادراً ، على الرغم من تبخر القطرات المتمثل فى انتهاء أعمار الأفراد ! .

فالمساواة فى الإنسانية ، تضمن وتتضمن المساواة الكاملة والتامة فى كامل الحقوق والواجبات ، وفى الجزاء والثمرات .. وأما تمايز الطبائع ، فلقد نظر الإسلام إليه كنعمة .. لأنه فضلاً عن دوره فى حفظ النوع ، فإنه يمثل - لدى الفطر السليمة - جوهر امتياز كل من الرجل والمرأة به يفخر ويعتز ويتيه كل منهما ، وبفقدانه - ولو بالتهمة والإدعاء - يكون الغم والهم والتأذى ! .. فلا الرجل بمتقبل أن يوصف بالأنوثة ، ولا بما يشبهها - التخنث - .. ولا المرأة بمتقبلة أن توصف بالرجولة ، ولا بما يشبهها - الاسترجال - .. ولن يُقْدم أحدهما ، فضلاً عن أن يسعد ، بالاقتران بما يماثله أو يشبهه فى الطبيعة ، لأنه سيفتقد « المكمل » والتكامل ، وسيعيش حياة التنافر .. وباختصار ستفتقد الحياة سرها ، ومصدر نمائها : ازدواج كل زوجين اثنين ، « بتكامل التمايز » ، المحقق سعادة الشقين المتمايزين طبيعة المتساويين ، إنسانية ، فى الحقوق والواجبات - التى يحددها التمايز والمساواة كليهما ! .

تلك هى الفلسفة المتميزة التى اعتمدها الإسلام إطاراً لتحرير المرأة والرجل جميعاً ، كشقين متمايزين ومتكاملين .. وهى الغاية التى جاهد المسلمون لوضعها فى الممارسة والتطبيق ، بمختلف ميادين الحياة .. والتى نجحوا فى وعيها

وممارستها فى حدود نجاح « الواقع » عندما يستلهم « المثال » ؟ ! .

● لقد كانت المرأة الفذة - خديجة بنت خويلد [٦٨ - ٣ ق . هـ ٥٥٦ - ٦٢٠ م] - زوج النبي ﷺ هى كل المجتمع الأول الذى صدق بالدعوة وآمن بالإسلام وناصر الأمة الوليدة فى مواجهة الشرك والقهر والحصار .. بل لقد كانت هذه المرأة ، الشامخة البطولة ، العقل الراجح واليد الحانية التى ثبتت روح النبي وأذهبت عنه الروع الذى تملكه عندما فاجأه الروح الأمين للمرة الأولى ، فى غار حراء .. لقد زَمَّلته بيدها الحانية حتى هدات رعشته .. فلما أفضى إليها بالنبأ : « إنى أرى ضوءاً ، وأسمع صوتاً . وإنى أخشى أن يكون بى جن ! » تزامل عقلها وحنانها فى تثبيت جنان النبي ، فقالت له : « لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبد الله ! . إنك لتصل الرحم ، وتقرى الضيف ، وتحمل الكَلّ ، وتعين على نوائب الدهر . والله لا يخزيك الله أبدا .. » ؟! .

ثم انطلقت به إلى الحبر : ورقة بن نوفل [١٢ ق . هـ ٦١١ م] ، ليصدق على هذا الذى نهضت به فى تثبيت أولى دعائم الإسلام ! .

وتوالت مواقفها وجلائل أعمالها فى بناء هذا الصرح الوليد .. فلما انتقلت إلى جوار ربها ، أوجز النبي تقييم دورها

فى الدعوة عندما سمى عام وفاتها « عام الحزن » ! .. لكنها كانت قد فتحت للمرأة العربية المسلمة الباب .. باب صناعة التاريخ ، أمجد تاريخ ! .

● و« بالعقبة » .. فى ليلة من ليالى موسم الحج ، فى السنة التى سبقت عام الهجرة .. عقدت « الجمعية التأسيسية » للدولة العربية الإسلامية الأولى .. وبايع المؤسسون .. من قادة الأوس والخزرج .. رسول الله ﷺ على إقامة هذه الدولة .. وكان الذين أبرموا هذا « العقد : السياسي ـ الاجتماعى ـ الحربى » ـ الحقيقي ـ خمس وسبعون ، منهم امرأتان ، هما « أم عمارة ، نسيبة بنت كعب الأنصارية [١٣ هـ ٦٣٤ م] » ، وأم منيع ، أسماء بنت عمرو بن عدى الأنصارية .. بايعتا رسول الله ﷺ مع الرجال ، وعلى قدم المساواة ، لأن الإسلام أعطاهما ـ وللمرأة بإطلاق ـ « الولاية السياسية » ، لا كحق من الحقوق ، يصح التنازل عنه ، وإنما كواجب شرعى وفريضة إلهية .. حصلت عليها المرأة العربية المسلمة ، ومارستها ، عندما شاركت فى تأسيس الدولة منذ ذلك التاريخ ! .

● وفى ليلة الهجرة ، كانت أسماء بنت أبى بكر [٢٧ ق . هـ ـ ٧٣ هـ ـ ٥٩٧ ـ ٦٩٢ م] ممثلة للمرأة العربية المسلمة فى التخطيط والتنفيذ ، سراً للرحلة المحورية التى توقف عليها

مستقبل الإسلام والمسلمين .. هجرة الرسول الكريم وأبيها الصديق من مكة إلى المدينة سراً :

فلما هاجرت أسماء إلى المدينة ، كانت حياتها ـ كغيرها من نساء ذلك المجتمع ـ تجسيداً لفلسفة الإسلام فى « تحرير المرأة » : الحشمة الجميلة التى تصون الجمال عن الابتذال .. تعلمتها من رسول الله ﷺ عندما قال لها : إن المرأة إذا نضجت ـ بلغت المحيض ـ لابد وأن تستر ما عدا الوجه والكفين ، بثياب لا تشف عما تحتها بالرقة ، ولا تصف محاسن الجسد بالضيق .. والحفاظ على مشاعر الزوج والصيانة لعهده وعرضه وسيرته ـ حتى ولو كان شديد الغيرة ، كالزبير بن العوام [٢٨ ق . هـ ـ ٣٦هـ ـ ٥٩٦ ـ ٦٥٦ م] زوج أسماء ! ـ .. لقد كانت عائدة يوماً من الأرض التى تمارس زراعتها ، سيراً على أقدامها ، فعرض عليها رسول الله ﷺ أن تركب خلفه على راحلته ، فاعتذرت لنبي الله ، لأن زوجها شديد الغيرة عليها .. وهى لا تريد أن تؤذى مشاعره حتى بمجاورة رسول الله ﷺ ؟ ! .

عاشت أسماء ـ ككل نساء ذلك المجتمع ، فى تلك الحقبة من تاريخنا الحضارى ، تزرع الأرض ، وترعى المنزل ، وتصنع الرجال ، وتداوى الجرحىٰ ، بل وتقاتل قتال الأبطال ، عندما يتطلب الأمر ذلك فى الكثير من الغزوات .. وفوق كل ذلك ، وقبله ، ومعه : كانت « السكن .. والمودة ..

والحنان » .. أى الشق المكمل للرجولة ، فى إطار المساواة التى توالت بالحديث عنها آيات القرآن الكريم بين المؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات .

والذين يقرأون « موسوعات الأعلام » فى علم التراجم بحضارتنا العربية الإسلامية .. بدءاً من [كتاب الطبقات الكبير] لابن سعد [١٦٨ ـ ٢٣٠ هـ ٧٨٤ ـ ٨٤٥ م] ومروراً بكتاب [أسد الغابة فى معرفة الصحابة] لابن الأثير [٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ ١١٦٠ ـ ١٢٣٣ م] وانتهاء بكتاب [أعلام النساء] للمؤرخ المعاصر محمد رضا كحالة .. يدركون « كم » أعلام النساء ، و« القدر » الذى نهضن به فى بناء هذا الطور من أطوار حضارتنا العربية الإسلامية ، وفقاً لمعيار فلسفة الإسلام المتميزة فى تحرير المرأة : « إنها الشق المكمل والمساوى للرجل » ! .

لقد كانت عائشة ، أم المؤمنين [٩ ق . هـ ـ ٥٨ هـ ٦١٣ ـ ٦٧٨ م] رضى الله عنها ، تروى الحديث ، وتفتى فى الدين ، وتشير فى السياسة ، وتنهض بنصيبها فى الصراع السياسي السلمى ، والمسلح .. وكانت القلب الحانى واليد الرقيقة التى صنعت للنبي القائد « الواحة » و« السكن » الذى يجد فيه شق الأنوثة وعطف المرأة ومودة الجنس اللطيف ! .. فجمعت إلى ولاية الدين والدنيا الولاية على

القلب ، سلطاناً اختصها به الله .. وكذلك كانت أسماء بنت أبى بكر ، ترعى عواطف زوجها وتتعهدها ، حتى ولو كانت غيرة شديدة ، وتزرع الأرض ، وتقاتل ، وتدفع بابنها عبد الله ابن الزبير [١ ـ ٧٣ هـ ـ ٦٢٢ ـ ٦٩٣ م] إلى بطولة الاستشهاد ، وتواجه طغيان الحجاج بن يوسف الثقفى [٤٠ ـ ٩٥ هـ ـ ٦٦٠ ـ ٧١٤ م] وتلملم بقايا عظام ابنها من على خشبة صليبه ، لتواريها التراب ، فى صلابة الفولاذ ؟ ! .

كذلك ، وعلى هذا النحو ، أطلق « التحرير الإسلامى » طاقات المرأة العربية المسلمة ، فأبدعت « كإنسان ـ أنثى » فى كل الميادين ، وفقاً لهذه الطبيعة وذلك المعيار .

* * *

٢ ـ فلما فتح الله على المسلمين البلاد ، وبلغت حدود الدولة الإسلامية ما بين « غانة » ـ فى غربى أفريقيا ـ و« فرغانة » ـ فى أقصى الشمال الشرقى من آسيا ـ ومن جنوبى خط الاستواء ، إلى حوض نهر الفولجا ، فى الشمال ، ومن « ملقة » الأندلسية فى الغرب ، إلى سميتها الفلبينية فى الشرق .. لما حدث ذلك ، دخلت المرأة المسلمة ـ ويا سبحان الله ! ـ فى طور جديد .

لقد جلبت هذه الفتوحات على المجتمع العربى ثراء مادياً شغل القوة الضاربة للدولة ـ العرب ـ بالترف ونعومة الحياة عن خشونة الجند وبساطة حياة

المناضلين .. ومع هذا الثراء المادى كانت مواكب السبايا والإماء من فاتنات الفرس والروم والديلم والشركس ، وكل الأجناس التى فتحت بلادها .. فامتلأت المدن ـ بخاصة ـ وقصور الأغنياء ـ تحديداً ـ بنوع جديد من « المرأة » تحترف « الإغراء » ، ولا تجد لها زورق نجاة من الإهمال والغرق فى البحر الزاخر بأمثالها إلا « كيد النساء » وطرائق الفتنة وحبائل الشهوات .. ووجد هذا « الواقع » الجديد انعكاساته وأحدث تأثيراته فى آداب الأمة وفنونها ، وفى صورة المرأة « ومثالها » ، فطمست معالم فلسفة الإسلام فى تحرير المرأة إلى حد كبير .

وبعد أن كان توجه الإسلام ، كثورة تحريرية ، هو إلى تصفية بقايا نظام العبودية والاسترقاق ، « بالتدرج الثورى » ، وفق خطة متعاقبة الحلقات : إغلاق الصنابير التى تمد « حوض الرق » بالجديد ـ الفقر ـ الدين ـ الربا ـ الغارات الحربية ـ الخ .. الخ .. وتوسيع مصب هذا « الحوض » ، بالعتق فى الكفارات والذنوب ، وتقرباً إلى الله ، وبالمساواة التى جعلت الاسترقاق عبئاً اقتصادياً على مالك الرقيق ! .. الخ .. الخ .. بعد هذا التوجه الإسلامى ، انعكس اتجاه الريح ، فامتلأت المدن بجيوش الرقيق ، وغصت قصور

السراة والحكام والقادة بالسرارى والإماء ، فران على البوتقة التى تقدح زناد فكر الأمة وتلون مثلها طارىء جديد وغريب ! .

وعندما أصاب الترف العرب ـ قوة الإسلام الضاربة وجيش دولته الفتى ـ بأمراض الدّعة والركون إلى الملذات .. التمست « الدولة » قوتها الضاربة من الجند الترك المماليك .. الذين لم يلبثوا ، بعد أن تضخمت مؤسستهم العسكرية ، أن غدوا مالكى الأمر ، والقابضين على أزمة الأمور ، منذ عصر المتوكل العباسى [٢٠٦ ـ ٢٤٧ هـ ٨٢١ ـ ٨٦١ م] وعبر دول المماليك : البحرية [٦٤٨ ـ ٧٨٤ هـ . ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ م] والبرجية . [٧٨٤ ـ ٩٢٢ هـ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ م] ودولة الترك العثمانيين [٦٩٩ ـ ١٣٤٢ هـ ١٢٩٩ ـ ١٩٢٤ م] .

وككل دول ونظم ومجتمعات « العسكر ـ الفرسان » ، الذين يسكنون ظهور الجياد أكثر مما يسكنون منازلهم والذين يعيشون فى المعسكرات أكثر مما يعيشون فى بيوتهم .. كان حجب المرأة عن واقع الحياة خارج المنزل ، والنظر إليها كأداة متعة ولهو وزينة منزل ودمية فراش وسقط متاع ، هى القيم التى سادت مدننا فى تلك الحقبة ، والتى انعكست فى الآداب والفنون والحكم والأمثال بذلك التاريخ .

ويكفى أن تقارن بين حديث القرآن عن مساواة المرأة للرجل،

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (١١٦)

وصورة المرأة فى صدر الإسلام ، عندما بايعت النبي ﷺ مثل الرجال ، على أن تنهض فى بناء المجتمع والحضارة بكل ما تستطيع .. ووفق الحديث الذى ترويه الصحابية أميمة بنت رقيقة : « جئت النبي ﷺ فى نسوة نبايعه ، فقال لنا : فيما استطعتن وأطقتن »(١١٧) .. والنماذج التى أشرنا إليها .. يكفى أن تقارن ذلك بصورة المرأة فى [ألف ليلة وليلة] ؟ ! .. عندما جسدت « كيد النساء » و« مصائد الرجال » و« حبائل الشهوات » .. وانعكاس ذلك فى الآداب ، نثراً وشعراً ومأثورات .

فأين صورة أم عمارة ، نسيبة بنت كعب الأنصارية ، يوم أحد ، عندما صمدت تدافع عن الرسول ، بعد فرار الكثيرين ، حتى لقد ملأت الجراح جسدها .. وفى يوم اليمامة ـ ضد مسيلمة الكذاب ـ عندما قطعت يدها ـ قطعها مسيلمة ـ

---

(١١٦) البقرة : ٢٢٨ .

(١١٧) رواه ابن ماجة .

وأصيبت بأحد عشر جرحاً .. بعد استشهاد ابنها ؟ .. وصورة « غزالة » [٧٧هـ ـ ٦٩٦ م] التى قادت ثورة الخوارج وحربهم فى العراق ، وفر منها الحجاج بن يوسف ؟ .

لقد قال فيها الشاعر :

أقامت غزالة سوق الضراب
لأهل العراقين شهرا قميطا ![118]

وعير آخر الحجاج عندما فر من لقائها ، فقال :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة
ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى ؟
بل كان قلبك فى جناحى طائر !

أين صورة المرأة هذه ، تلك التى صنعها « تحرير الإسلام » ، وصنعتها هى بهذا التحرير الإسلامى .. من صورتها فى [ألف ليلة وليلة] ؟ .. ومن وصف شاعر حقبة التراجع لدورها الجديد ، فى قوله :

كتب القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جر الذيول!

لقد غدت المرأة ـ لدى هذه الشريحة من حكام الدولة وسراة المدن ـ « عورة » يسترها « حريم » القصور طوال

---

(١١٨) قميطا ، اى كاملاً وتاما .

حياتها .. بل لقد قال البعض إن ساترها الطبيعي هو « القبر » !

ولـم ار نـعمـة شملـت كـريمـاً
كنـعمـة عـورة سـتـرت بقبـر !

وقال آخر :

ومن غاية المجـد والمكرمـات
بقاء البنين ومـوت البنات !

بل لقد رأينا هذه النظرة تجد طريقها إلى فكر إمام جليل مثل ابن قيم الجوزية [٦٩١ ـ ٧٥١ هـ ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠ م] فيتحدث ـ فى العصر المملوكى ـ عن مكان المرأة ، فيقول : « إنها تحت أسر الرجل » ؟!(١١٩) .

صحيح إن هذه « البلوى » لم تعم الأمة بأسرها .. فلقد ظلت المرأة فى القرى تفلح الأرض وترعى المنزل ، وتسهم مع الرجل فى حمل عبء الحياة .. لكن سراة القرى وأعيانها قلدوا سراة المدن وحكامها .. وسادت ـ حتى فى القرى ـ الأفكار التى انتقصت من قدر المرأة ومكانتها ، والممارسات التى حملتها من المظالم أكثر مما تحمل الرجال ! .

---

(١١٩) نص عبارة ابن القيم : « .. فإن السيد قاهر لمملوكه ، حاكم عليه ، مالك له ، والزوج قاهر لزوجته. حاكم عليها ، وهى تحت سلطانه وحكمه شبه الأسير » ! . انظر [اعلام الموقعين] جـ ٢ ص ١٠٦ طبعة ـ دار الجيل ـ بيروت عام ١٩٧٣ م .

تلك كانت الملامح الرئيسية لتراجع « التحرير الإسلامى للمرأة » ، فى حقبة تراجعنا الحضارى ، إن فى الفلسفة أو فى الممارسات .

* * *

٣ ـ فلما جاء عصرنا الحديث ، واشرأبت الأعناق وطمحت العقول إلى طى صفحة التخلف والتراجع والجمود فى كتاب المرأة العربية والمسلمة .. وجدنا أنفسنا ، ومازلنا نجدها ، أمام مذهبين متميزين فى فلسفة « تحرير المرأة العربية والمسلمة » .

١ ـ مذهب تيار التجديد الديني والبعث الحضارى وإحياء الأصالة العربية الإسلامية .. الداعى إلى طى صفحة « الوافد التركى المملوكى » ، وجعل المرأة المعاصرة : الامتداد المتطور لسالفتها فى حقبة ازدهارنا الحضارى الأولى .

٢ ـ ومذهب انصار « الغزو الفكرى التغريبي » ، الداعى إلى طى صفحات حضارتنا العربية الإسلامية جميعها ، لنبدأ فى قضية « تحرير المرأة » من حيث انتهى فكر الحضارة الغربية وتطبيقها ، بدعوى أن مذهب الغرب هذا ، ونموذجه فى هذا « التحرير » ، هو من « المشترك الإنسانى العام » وليس من « الخصوصية الحضارية » التى تتمايز فيها الحضارات .

وتلك ، لعمرى ! قضية تحتاج إلى نظر أكيد من العقل الرشيد ! .

كثيرون لا يعرفون أن تاريخ الحضارة الغربية فى « التفكير » و« الدعوة » لحقوق المرأة ، هو تاريخها الحديث .. فقبل القرن الثامن عشر والتاسع عشر لم يكن لذلك الأمر ذكر فى عالم الحضارة الغربية بإطلاق .

ولا يظنن أحد أن حال المرأة الغربية فى العصور الوسطى لحضارتها كان كحال المرأة العربية الإسلامية فى عصور تراجعنا المملوكية العثمانية .. فالفوارق بينهما جذرية وشاسعة لا تقبل المقارنة أو التشبيه .. فما أنجزه الإسلام من تحرير للمرأة العربية والمسلمه منذ ظهور الإسلام استمر أغلبه قائماً فى الريف والبداوة والأحياء الشعبية .. وحتى الشريحة التى قبعت فى حريم قصور السراة والحكام والأمراء والاجناد فإنها لم تحرم من كل الحقوق التى منحتها إياها شريعة الإسلام .. فالذمة المالية المستقلة ، وحق الملكية ، والتصرف فيها ، ظلت قائمة دون انتقاص .. وكذلك أحكام الشريعة فى الولاية على الأبناء ، وغيرها من الحقوق المتعلقة بالميراث ، وبالاعفاء من تبعات الإنفاق المالى فى البيوت .. الخ .

اما فى الحضارة الغربية ، فإن المرأة لم تكن شيئاً مذكوراً على الإطلاق .. كانت شبه منبوذة ، ينظر إليها على انها ناقصة الجسم والعقل والوجدان ، لا حق لها ولا نصيب فى العلم ، أو

الحرية ، أو الملكية ، أو التعامل المالى ، أو الولاية على أبنائها وحضانتهم ، حتى إذا مات والدهم فى حياتها ! .. بل لقد نظروا إليها ، بناء على لاهوت الكنيسة .. ، باعتبارها جسداً بلا « روح » وزعموا أن ما بداخلها هو « شيطان » ؟! .

تلك كانت حال المرأة الغربية ، حتى العصر الحديث ، عندما بدأت « فكرة » و« دعوة » حقوق المرأة هناك فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وإذا كان هذا هو تاريخ « تفكير » الغرب و« دعوته » لتحرير المرأة .. فإن هذا « الفكر » وهذه « الدعوة » لم ينتصرا ، فيتجسدا فى دساتير الغرب وقوانينه إلا فى القرن العشرين ! .

وبسبب من اقتران أفكار تحرير المرأة الغربية بالفكرية الراسمالية للثورة الصناعية ، فلقد اتخذت تلك الدعوة ذات الطابع والروح اللذين طبعا نهضة الغرب وإحياءه فى العصر الحديث .. الطابع المادى لحضارة الغرب ، والنظرة الراسمالية للمرأة ، باعتبارها سلعة فى سوق العمل الراسمالي ، وسلعة فى سوق الإغراء .. كما تميز مفهوم حريتها وتحررها بما تميزت به « الحرية » فى الحضارة العلمانية الغربية ، من الانفلات الذى لا تلزمه شريعة إلهية ، ولا يلتزم بـ « قيم » الدين ! .. فتميزت

لذلك مفاهيم تحرير المرأة هناك بما تميزت به الحضارة الغربية عن حضارتنا العربية الإسلامية من خصوصيات .

فإذا كانت فلسفة « التحرير الإسلامى للمرأة » قد انطلقت من تحديد مكانتها بالنسبة للرجل ، باعتبارهما « شقان متكاملان ومتساويان » .. فلقد انطلقت فلسفة الغرب فى تحريرها من مقولة « النِّدِّيَّة » القائمة على « التماثل » بينهما .. فطمحت المرأة الغربية إلى أن تكون مساوية للرجل ، منكرة ومستنكرة تمييز الطبيعة بينهما ، فكان حلولها محل الرجل ، واقتحامها كل ميادين عمله الشاق ، و« استرجال » المرأة « انتصارات » توهمت انها قد حققتها فى ميدان التحرير !.

وإذا كان « التحرير الإسلامى » للمرأة ، لم يجد فى « قوامة » الرجل على زوجه ماينافى هذا التحرير ، لأن هذه « القوامة » هى درجة فى سلم القيادة استحقها الرجل لتميز طبيعته فى ميادين بعينها ، دون أن تعنى هذه القوامة الانتقاص من مبدأ المساواة .. وبعبارة الإمام محمد عبده ، عند تفسيره للآية الكريمة :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾(١٢٠)

« فإن المراد بالقيام هنا هو الرياسة التى يتصرف فيها المرءوس بإرادته واختياره ، وليس معناها أن يكون المرءوس مقهوراً مسلوب الإرادة لا يعمل عملاً إلا ما يوجهه إليه رئيسه ، فإن كون الشخص قيماً على آخر هو عبارة عن إرشاده والمراقبة عليه فى تنفيذ ما يرشده إليه ، أى ملاحظته فى أعماله وتربيته .. »(١٢١) ..

فالقرآن الكريم قد قرن هذه « القوامة » بكامل المساواة الإنسانية بين النساء والرجال ، وذلك فى قوله سبحانه :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾(١٢٢)

وعن هذه المثلية فى الحقوق والواجبات يقول الإمام محمد عبده فى تفسيره لصدر هذه الآية

﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ : « هذه كلمة جليلة جداً ، جمعت على إيجازها ، ما لا يؤدى بالتفصيل إلا فى سفر

---

(١٢٠) النساء ٣٤ .

(١٢١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٥ ص ٢٠٨ .

(١٢٢) البقرة : ٢٢٨ .

كبير ، فهى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق ، إلا أمراً واحداً عبر عنه بقوله : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ ... حتى قال ابن عباس : إنى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى لهذه الآية : وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها ، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة ، وأنهما أكفاء ، فما من عمل تعمله المرأة إلا وللرجل عمل يقابله لها ، وإن لم يكن مثله فى شخصه ، فهو مثله فى جنسه ، فهما متماثلان فى الحقوق والأعمال ، كما أنهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل .. »[١٢٣] .

كذلك فإن قوامة الرجل على المرأة ، المؤسسة على تميز طبيعته فى ميادين بعينها ، يقابلها ، ولا شك وبمنطق فطرة الله ، قوامة للمرأة فى الميادين التى تميزها فيها طبيعتها .. فإذا كانت القيادة له فيما له به خبرة وجلد من الميادين ، فإنها الراعية والقائدة فى ميادين العاطفة والأنوثة والحنو ، وإبداع واحة السكن الذى يلطف غلظة الحياة وقسوتها !

---

(١٢٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٤ ص ٦٣٠ .

وإذا كان « الراعى » هو « القائد ، والقيم » ، فإن الإسلام لم يحرم المرأة من القيادة والقوامة ، ولكنه حدد لها ميادينها ، المتفقة مع طبيعتها المتميزة ، كما صنع ذلك مع قوامة الرجال سواء بسواء .. ففى حديث الرسول ﷺ نقرأ عن « الرعاية والقيادة والقوامة » ، قوله عليه السلام : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راع عليهم ، وهو مسئول عنهم . والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم . والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، وهى مسئولة عنهم . وعبد الرجل راع على بيت سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »(١٢٤) ..

فالقيادة والقوامة ليست وقفاً على الرجال ، وإنما هى مرتبطة بتميز الطبيعة وتميز ميادينها .. لأن فلسفة « التحرير الإسلامى » للمرأة قد راعت تمايز التكوين الطبيعي فى إطار المساواة الإنسانية تحقيقاً لتكامل الذكر والأنثى ، ابتغاء لسعادتهما جميعاً ! .

أما فلسفة « التحرير الغربى » للمرأة ، فإنها اعتمدت « النِّدِّية » ، فجعلت معركة الأنثى ضد الذكر .. وظنت أن تحررها كامن فى « استرجالها » ، فقادتها إلى حال القط الذى قلد أسداً ، حتى حرم من ميزات القط دون أن

---

(١٢٤) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد

يكتسب ميزات الأسود ، متناسية ان فلسفة التكامل تقتضى التنوع بين المتكاملين .

وإذا كانت « الوسطية الإسلامية » ـ وهى الخصيصة العظمى لحضارتنا العربية الإسلامية ـ قد وضعت حرية الإنسان ، رجلاً أو امرأة ، فرداً كان أو أمةً ، فى مكانها وسط إطار الشريعة الإلهية .. فجعلت « الحرية » ملتزمة ومحكومة بثوابت الشريعة ومقاصدها وحدودها .. فإن الطابع العلمانى ـ الفاصل بين الدين والدولة ، والمستبعد للدين من فلسفات العلوم ومناهج الفكر ـ قد أطلق العنان لحرية الإنسان الغربى ، فانطبعت بهذا الإطلاق فلسفة « التحرير الغربى » للمرأة الغربية .. فهى حرة فى ابتذال الجسد وعرض مفاتنه على الجميع .. وحرة فى إشاعة الجنس وتعميم اللذة ، طالما تم ذلك بالرضا لا بالاغتصاب ! .

لقد نشأت هذه الفلسفة « للتحرير الغربى » للمرأة الغربية ، كجزئية من جزئيات النهضة الرأسمالية الغربية ، ذات الطابع الليبرالى والروح العلمانية ، فحملت خصوصيات الحضارة الغربية ، فى الطابع المادى ، وعبادة اللذة ، وانفلات الحرية من مقاصد الشريعة الإلهية وحدودها .. كما حملت ذلك « الوهم » الذى أغرى المرأة « بالاسترجال » ، فشقيت منها الروح والجسد جميعاً ، الأمر الذى لم يحقق لها جوهر الحرية وحقيقة التحرير ! .

فهى ، إذن ، « خصوصية حضارية غربية » ، تلك الصورة التى يبشر بها أسرى الغزو الفكرى التغريبي لحرية المرأة .. وليست أبدا ، من قبيل ما هو « مشترك إنسانى عام » .

* * *

هكذا ... وبعد هذه الرحلة عبر ميادين الفكر الذى بشرت وتبشر به « النخبة » المتغربة ، ومقارنته بنظيره فى حضارتنا العربية الإسلامية .. وضحت لكل ذى سمع وبصر وفؤاد الحدود الفاصلة بين ما هو :

● مشترك إنسانى عام ، لا يتمايز ولا يختلف باختلاف الحضارات والقوميات والمذاهب والمعتقدات .. ويدخل فى ذلك كل علوم المادة والطبيعة والتجريب ، وحقائقها وقوانينها .. وكثير من التجارب الإنسانية المجردة من الفلسفات .. والعديد من ثمرات الخبرات الإنسانية فى المؤسسات والوسائل والسبل ، التى سلكتها الأمم فى عمارة الكون وتنمية الثروات .

● وخصوصيات حضارية ، تتمايز بتمايز الحضارات ذات الفلسفات والمثل المتمايزة .. ويدخل فى ذلك كثير من العلوم الإنسانية ، التى تتمايز بتمايز موضوع بحثها : النفس الإنسانية المتميزة بالفلسفة والمعتقد والمواريث المكونة ومعطيات الإقليم وثمرات المحيط الذى تعيش فيه .

وإذا كان « المشترك الإنسانى العام » هو أشبه ما يكون « بالهواء » الذى لا يعرف ولا يعترف بالحدود الفاصلة بين القوميات والحضارات .. فإن « الخصوصيات الحضارية » ، هى أشبه ما تكون « بالجيش » ، الذى لا يصح أن يعبر الحدود الحضارية إلا عندما تثبت الحاجة إليه ، ويتم الاستدعاء له ، وبالحجم الذى هو مطلوب ليفيد ؟! .. فهنا ، لابد من العرض على المعايير الحضارية والموازين الحاكمة للهوية القومية ، ليتبين ما هو دعم للذات وتنمية لاستقلاليتها وتميزها ، من ذلك الذى يمثل المسخ والنسخ والتشويه لهذه الذات .

تلك هى « شهادة الفكر » على ما هو من المشترك الإنسانى العام ... وما هو من الخصوصيات الحضارية فى عطاء الحضارات الإنسانية وإبداعها .

* * *

والآن .... ماذا عن « شهادة التاريخ » فى هـذا الموضوع ؟ ! ..

شهادة التاريخ
على
قانون التفاعل الحضارى

التفاعل الحضارى

بيننا وبين : الفرس .. والروم .. والهنود .. واليونان

وغير « شهادة الفكر » ـ التى قدمنا أدلتها وبراهينها ـ على تميز ما هو « مشترك إنسانى عام عن ما هو « خصوصية حضارية » فى الفكر الإنسانى .. فإن هناك « شهادة التاريخ » على أن اللقاء والتفاعل الذى عرفه التاريخ بين الحضارات العريقة ، المالكة لما هو « مشترك » ولما هو « خاص » ، قد تم وفق هذا القانون ، وحكمه هذا التمييز .. فالتقاء الحضارات ـ وهو مَعْلَمْ من معالم التاريخ الحضارى للإنسانية ـ وتفاعل هذه الحضارات ، عندما تلتقى ، هو قَدَرٌ لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه .. لكنه قد تم دائماً وأبدا وفق هذا القانون الحاكم : التمييز بين ما هو مشترك إنسانى عام ، تفتح له الأبواب والنوافذ ، بل ويطلبه العقلاء ويجدون السعى فى تحصيله .. وبين ما هو خصوصية حضارية ، يدققون ـ فى حذر ـ قبل استلهامه وتمثله ، ويعرضونه على معايير حضارتهم لفرز ما يقبل منه ويُتمثَّل ، من ذلك الذى يرفضونه ، لما فيه من تناقض مع هويتهم الحضارية ، وقيمهم الاعتقادية ، وأصولهم التى تكون ما يشبه « البصمة » للشخصية الحضارية والقومية ، التى هى مناط التميز ، رغم التطور والتفاعل الذى تمارسه هذه الشخصية مع الآخرين .

ونحن إذا شئنا أن نضرب بعض الأمثلة على التقاء الحضارات وتفاعلها ، والذى عمل خلاله هذا القانون ، فإن لدينا مثالين شهيرين ، وأيضاً وثيقا الصلة بموضوع هذا الحديث .

أولهما : لقاء حضارتنا العربية الإسلامية ، إبان نهضتها وإزدهارها ، بالحضارات الفارسية .. والهندية .. واليونانية ..

وثانيهما : لقاء الحضارة الغربية ، إبان نهضتها ، بحضارتنا العربية الإسلامية .

على أى نحو وفى أى المجالات كان الاستلهام ؟

.. وعلى أى نحو وفى أى المجالات كان الحذر والرفض للغزو الفكرى ؟ ..

إنها « **شهادة التاريخ** » على عمل هذا القانون .. تدعم « **شهادة الفكر** » التى قدمناها فيما سبق من صفحات .

● ليس هناك شك فى أن الفتح العربى للامبراطورية الفارسية ، ودخول الفرس ـ بمواريثهم الحضارية الفنية ـ فى إطار الدولة الإسلامية ، قد أتاح أوسع الفرص لتفاعل حضارى واسع وعميق وخلاق بين الحضارة الفارسية وبين الفكر الإسلامى ، الذى كان النواة التى تتبلور من حولها الحضارة العربية الإسلامية الجديدة .. ولقد زاد من فرص

هذا التفاعل ما بلغه العنصر الفارسى ، حامل الميراث الحضارى الفارسى ، من مواقع مؤثرة فى دوائر الفكر والسلطة ، فى دولة الخلافة ، وخاصة العباسية منها .. وما بلغه العلماء ، من ذوى الأصول الفارسية ، بميدان الفكر من جودة فى الإبداع وتنوع فى ميادين العطاء .

لكن الراصد لهذا التفاعل بين الفكر الإسلامى ، إبان تبلور حضارته ، وبين الميراث الفارسى الوافد والطارىء بعد الفتوحات ، يستطيع أن يميز بين ما « قُبِـل » وبين ما « رُفِض » ، أو ووجه بالمعارضة والمقاومة من هذا الميراث .

لقد فُتِحَتْ فارس على عهد الراشد الثانى عمر ابن الخطاب .. وكذلك فتحت الأودية الزراعية للأنهار الكبرى فى الدولة الإسلامية : النيل ، وبردى ، ودجلة ، والفرات .. ولم يتردد عمر بن الخطاب فى تبنى النظام الفارسى فى ضريبة الأرض الزراعية ، والذى كان يسمى « وضائع كسرى » ، وظل سائدا ومعمولا به حتى عدل فى ظل الدولة العباسية .. فهنا تم استلهام تجربة حضارية وخبرة قومية فى طرق تقدير الضريبة على الأرض الزراعية .

لكن العرب كانوا حذرين كل الحذر ، وشديدى الرفض والمقاومة لكل ما هو « خصوصية حضارية » فارسية تتعارض مع معايير الإسلام وجوهر معتقداته ، وخصائصه الحضارية

المتميزة .. لقد رفضت الخلافة الإسلامية ـ وهى نمط متميز فى نظم الحكم ـ ما تميزت به مواريث الحضارة الفارسية فى نظام الحكم وفلسفته السياسية ، التى كانت ترى رأس الدولة ـ كسرى ـ إبنا للإله « أهورا ـ مزدا » ، يحكم باسمه ، ونيابة عنه ، زاعما أن لقانونه وتنفيذه قداسة الإله والدين .. كذلك رفضت حضارتنا الإسلامية ميراث الفرس فى « النظام الطبقى المغلق » ، لتعارضه الجذرى مع فلسفة الإسلام فى المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات .. والذين يقرأون مصنفات علماء الإسلام فى « الملل والنحل » وصراعهم الفكرى مع الفرق والمذاهب غير الإسلامية ، يدركون المقاومة الباسلة التى ووجهت بها مذاهب الفرس وعقائدهم وفلسفاتهم من قبل حضارتنا العربية الإسلامية .. فالمجوسية والزرادشتية .. ومذاهب مثل المانوية « الثنوية » بفرقها المتعددة .. تحتل معارضتها صفحات كثيرة فى عشرات المجلدات التى تصدت للوافد الضار والمرفوض .. وكذلك صنع المتكلمون والفلاسفة المسلمون مع « الغنوصية » التى كانت ثمرة هلينية فى تربة التصوف والعرفان الشرقى ، اتجهت إلى تحصيل المعرفة بالذوق والحدس ، وليس بالعقل أو الحواس ..[١٢٥] ..

---

(١٢٥) انظر فى تفصيل ذلك : [الملل والنحل] للشهرستانى . و[الفصل فى الملل والاهواء والنحل] لابن حزم وكتابنا [رسائل العدل والتوحيد] ـ تحقيق ودراسة ـ وكتابنا [المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية] .

فعلى حين فتحت الأبواب للتجارب الإنسانية العملية ، ولعلوم التمدن العملى .. كان الحذر ، بل والمقاومة للفلسفات والمعتقدات المخالفة لمعاييرنا الحضارية ، إن فى السياسة أو فى الاجتماع أو فى الدين أو فى الفلسفات .

● وكذلك كان حال حضارتنا عندما فتحت الشام ومصر وبلاد الشمال الأفريقى ، ذات الميراث البيزنطى .. ففى الوقت الذى تبنى فيه عمر بن الخطاب « تدوين الدواوين » ـ وهو خبرة إدارية بيزنطية .. وسعت الدولة الأموية ـ ممثلة فى أميرها خالد بن يزيد [٩٠ هـ ـ ٧٠٨ م] إلى « مدرسة الاسكندرية » فبدأت حركة الترجمة للعلوم الطبيعية والتجريبية وفنون التمدن العملى ، والتى سميت بـ « علوم الصنعة » .. **فى ذات الوقت الذى تبنت فيه حضارتنا هذا اللون من المعارف والعلوم والتجارب الإنسانية ، كانت حربها ضد « الغنوصية » خاصة ، والهلينية فى الفلسفة والعقائد والتصورات بوجه عام ، وكذلك معارضتها لعقائد ومذاهب المسيحية ، التى أخرجتها الروح الهلينية عن نقاء عقيدة التوحيد .. كان ذلك « شهادة » تاريخ التفاعل الحضارى على عمل قانون التمييز بين ما هو « خصوصية حضارية » وما هو « مشترك إنسانى عام » .. فالباب مفتوح « لعلوم الصنعة » ، موصد أمام « شريعة الرومان » ؟! .**

● ومع الحضارة الهندية ، عندما التقت حضارتنا الإسلامية بمواريث الهندوس ، عمل ، كذلك ، هذا القانون .

فالبيرونى [٣٦٢ ـ ٤٤٠ هـ ٩٧٣ ـ ١٠٤٨ م] الذى نهض بمهام وأعباء « البعثة العلمية » ، عندما عاش بالهند أربعين عاماً ، عقب الفتح الغزنوى لبعض أقاليمها ، والذى درس تاريخ الهند وتراثها وحضارتها دراسة العبقرى المتفرد ..

البيرونى هذا ، يعلمنا ـ دون أن يعرض مباشرة لقضيتنا هذه كيف ميز أسلافنا فى تراث الهند ، مثلا بين « الحساب الهندى » و« الفلك » ، فأخذوهما وطوروهما ـ وكذلك صنعوا مع غيرهما من علوم الطب والأعشاب الدوائية .. إلخ ـ **كيف ميزوا بين هذه العلوم الطبيعية والعملية والتجريبية ، التى أخذوها وطوروها ، وبين ديانات الهند ومذاهبها وفلسفاتها ، التى رفضوها ، لتعارضها مع التوحيد الإسلامى ، ومع إلهية المصدر الدينى فى الإسلام ، كديانة سماوية نزل بها الوحى على الرسول ، عليه الصلاة والسلام**[١٢٦] .

* * *

---

(١٢٦) انظر للبيرونى : [تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة] تحقيق سخاو . طبعة لندن ١٨٨٧ م .

● وإذا كان الخلاف غير وارد ، أو غير مبرر ، مع هذه الحقائق التى قدمناها عن عمل « قانـون التفاعـل الحضارى » ، فى التقاء حضارتنا العربية الإسلامية بمواريث الفرس والروم والهنود .. فإن خلافا وجدلا لابد وأن يثور عندما نقول : إن أسلافنا قد أعملوا هذا القانون ، على هذا النحو ، عندما انفتحوا وتفاعلوا ـ على النحو المعروف ـ مع تراث اليونان .. ذلك أن ترجمة العرب للفلسفة اليونانية ، واحتفاءهم بهذه الفلسفة ، والمنزلة التى بلغها فلاسفتها ـ وخاصة أرسطو [٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م] وأفلاطون [٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م] ـ فى التراث الفلسفى لحضارتنا .. كل ذلك لابد وأن يثار كاعتراض على قولنا إن التبنى والاستلهام قد وقف عند علوم الصنعة : الطبيعية ، والعملية ، والتجريبية .. وإن الحذر والمعارضة والرفض قد جابهت الإنسانيات ـ والفلسفة فى مقدمتها .. ولذلك فلابد من وقفة متأنية ، نختبر فيها جدية هذا الاعتراض وصدق مضمونه ، لنرى وجه الحق فى هذا الموضوع .

وبالطبع ، فليس هناك خلاف على أن العرب قد سعوا إلى ترجمة العلوم الطبيعية اليونانية ، آخذين إياها من مصادرها الشرقية ـ أساساً ـ فى البلاد التى فتحوها .. فترجموا تراث اليونان فى الطب والكيمياء والهندسة والرياضيات والميكانيكا (الحيل) والزراعة والمناظر والحساب والمنطق .. وغيرها من

العلوم الطبيعية والعملية والتجريبية ، ثم أضافوا إليها إبداعهم الذى شهد به المنصفون من علماء الغرب وأساتذة الاستشراق .

كذلك ، لا خلاف على أن هناك ميادين فى المعتقدات والإنسانيات اليونانية قد نفر منها العرب فضربوا عنها صفحا ولم يترجموها ، ولا حتى للمتخصصين من العلماء .. وذلك مثل عقائد الوثنية اليونانية وأساطير آلهتها .. وآداب اليونان وفنونها .

إذن ، مبدأ التمييز قائم ، وبه وعليه يشهد تاريخ التفاعل بيننا وبين حضارة اليونان لكن علامة الاستفهام تظل خاصة بحقل الفلسفة .. لماذا أعطى العرب هذا الوزن الكبير لفلسفة « اليونان » ترجمة وشرحا ، حتى تضخمت آثارها فى تراثنا الحضارى ؟! ..

وعلى هذا السؤال المشروع ، نجيب الإجابة التى تؤكد صدق واطراد « قانون التفاعل الحضارى » الذى ميز ، دائماً وأبدا ، بين ما هو « خصوصية حضارية » وبين ما هو « مشترك إنسانى عام » .

● لقد كانت المواجهة الأولى بين خصوصيتنا الحضارية وبين الخصوصية اليونانية عندما واجه الإسلام النمط الهلّينى فى النظر والتفكير ، والتى كانت « الغنوصية » أبرز مذاهبه فى

نظريات المعرفة .. كانت الهلينية ـ كما وجدها العرب فى البلاد التى فتحوها ـ هى « اليونانية الشرقية » التى امتزج فيها الفكر الفلسفى اليونانى بصوفية الشرق وروحانيته ، ومع هذه الهلينية كانت أولى معارك الإسلام الفكرية .

والحقيقة التى يجهلها الكثيرون ، هى أن المسلمين الذين ابدعوا « عقلانيتهم الإسلامية » المتميزة ، وعلم الكلام الإسلامى ، الممثل لفلسفة الإسلام المتميزة . منذ النصف الثانى من القرن الهجرى الأول ، وقبل ترجمة اليونانيات .. هؤلاء المسلمون قد اتجهوا إلى ترجمة الفلسفة اليونانية ، وترجمة عقلانية ارسطو ، اولاً وبالتحديد لا ليتخذوا منها فلسفة لهم وللإسلام ، وإنما ليردوا بها ـ كسلاح يونانى ـ على الهلينية ـ وثمرتها الغنوصية ـ التى هى تاثيرات يونانية مزجت بصوفية الشرق وروحانية الشرقيين .. فانصار الغنوصية كانوا ـ كمتغربى زماننا ـ اثرا يونانيا فى الشرق ، وامتدادا شرقيا لفكرية اليونان .. فعمد علماؤنا واعلامنا إلى ترجمة العقلانية اليونانية ليردوا بها على انصار اليونان ، وكانهم ارادوا ان يقولوا لهم : إذا كنتم لا تحترمون إلا ما هو وافد ومستورد ويونانى الصنع ، فها نحن نجابهكم بارسطو ، المعلم الاول عند اليونان ، وأبرز عقولهم الفلسفية بإطلاق !.. نجابهكم بالعقلانية اليونانية ،

نقضا لغنوصية الأفلاطونية المحدثة اليونانية ، استخداما للأسلحة التى تحترمون وتعظمون ؟!

ولنا على هذا التحليل أكثر من دليل ..

١ ـ كانت الهلينية ، و« الغنوصية ـ الباطنية » ، هى « تغريب » ذلك العصر ، « والغزو الفكرى » الذى أصاب به الغرب اليونانى الشرق منذ انتصار الاسكندر الأكبر [٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق . م] على الدولة الفارسية [٣٣٣ ق . م] وبنائه امبراطوريته الشرقية .. ولقد غبشت هذه الهلينية توحيد المسيحية الشرقية الأولى .. فلما ظهر الإسلام خاضت ضده المعارك ، فى البلاد التى فتحها المسلمون .. لكن الإسلام ، بعد أن بلور عقلانيته المتميزة ، تقدم فاستعان بالعقلانية الأرسطية فى نضاله ضد الهلينية والغنوص .. فكانت ـ كما أشرنا ـ ترجمة الفلسفة اليونانية استعانة بحقيقة الفكر اليونانى على هزيمة صورته الشرقية المهجنة .. وبسلاح معترف به من الغنوصيين ؟!

وعلى هذه الحقيقة يشهد شاهد من أهلها ، هو المستشرق الألمانى بكر (كارل هينرش) Becker, G . H [١٨٧٦ ـ ١٩٣٩ م] عندما يقول : « إننا نرى كفاح المسيحية من أجل استقلالها وتوكيد ذاتها بإزاء الروح اليونانية المجسدة فى « الغنوص » ، يتكرر من جديد فى الإسلام فى القرون الأولى تحت أسماء أخرى : فكما كانت المسيحية الأولى معادية

للروح الهلينية ، كان الإسلام فى الصدر الأول على العموم معاديا هو الآخر للروح الهلينية .. والميزة الرئيسية للقرآن هى أنه كان يؤثر تأثيراً مضاداً للروح الهلينية فى عصر تغلغلت فيه الهلينية . وفى اللحظة التى تخطى فيها الإسلام حدود مهده الأول ، بدأ الصراع والتصادم .. إن المانوية والزرادشتية كانتا ، بالنسبة للإسلام عدوتين خطيرتين كالمسيحية . وإن « غنوص » المانوية والمذاهب الشبيهة بها كانت خطرة على الإسلام خطراً مباشراً . لذلك نرى أن أول مدرسةٍ كلامية فى الإسلام ، ونعنى بها المعتزلة ، قد استفادت بعضا من أصولها ومسائل بحثها عن طريق كفاحها ضد المانوية . وفى **كل هذه الألوان من الكفاح تكونت جبهة كفاح فريدة فى بابها ، فالدولة والمذهب الدينى الرسمى يسيران هنا ، كما يسيران فى كل مكان ، جنبا إلى جنب وفى صف واحد ، لكنهما فى كفاحهما ضد « الغنوص » الذى لا يعترف لأحد بسلطان ، يهيبان بالروح اليونانية الحقيقية ـ [الفلسفة اليونانية] كى تساعدهما .. لقد كان الغنوص يحارب الإسلام دينيا وسياسيا ، وفى هذا النضال استعان الإسلام بالفلسفة اليونانية ، وعنى بإيجاد عالم من العلوم الدينية العقلية .. فكأن الإسلام الرسمى قد تحالف إذاً مع التفكير اليونانى والفلسفة اليونانية ضد « الغنوص » الذى كان خليطاً من المذاهب القائمة على**

النظر والمنطق ،وعلى مذاهب الخلاص . ومن هنا نستطيع أن نفسر حماسة الخليفة المأمون للعمل على ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين إلى العربية . وقد اعتاد الناس أن يفسروا هذا حتى الآن بإرجاعه إلى ميل المأمون إلى العلم وحبه له . لكن ، إذا كانت الرغبة في ترجمة كتب الأطباء القدماء قد نشأت عما اشتهرت به المدارس الطبية الكبرى من حاجة عملية إلى هذه الكتب فلعل ترجمة كتب أرسطو أن تكون قد نشأت ، بالضرورة ، عن حاجة عملية كذلك . وإلا فإنه إذا كانت المسألة مسألة حماسة للعلم ورغبة خالصة في تحصيله فحسب ، لكان هو ميروس أو أصحاب المآسى من بين من ترجمت كتبهم أيضاً ، لكن الواقع هو أن الناس لم يحفلوا بها ، ولم يشعروا بحاجة ما إليها[١٢٧] .. » .

تلك شهادة المستشرق الألمانى « بكر » على أن ترجمة الفلسفة اليونانية ـ والاهتمام بعقلانية أرسطو خاصة ـ لم تكن عن رغبة في جعلها فلسفة الإسلام والمسلمين ، وإنما كانت استعانة بالعقلانية اليونانية الصريحة على هزيمة الغزو الفكرى اليونانى ، كما تمثل في خليط الهلينية والغنوص ! .

---

(١٢٧)بكر [وارث ووارث] بحث منشور بكتاب [التراث اليونانى في الحضارة الإسلامية] ص ٧ ـ ٩ ، ١١ . ترجمة د . عبد الرحمن بدوى . طبعة القاهرة عام ١٩٦٥ م .

وبقدر الأهمية المحورية لهذه الحقيقة التاريخية ، فإنها تستحق وقفة متأنية تجلو حقيقتها كامل الجلاء .

إن « الغنوصية » ـ كمذهب باطنى عرفانى ـ كانت قائمة على إنكار « الخصوصية الحضارية » ـ مثلها فى ذلك مثل « الغزو الفكرى التغريبي » الحديث والمعاصر ـ ذلك أنها قد جمعت ، بالتلفيق ، خليطاً « يونانياً غربياً » و« إسرائيلياً وفارسياً شرقيا » ، ثم مزجته مزجاً شديداً ومحكماً .. ولكن دون أن تستطيع إخفاء الملامح الأصلية لأصولها الثلاثة :

أ ـ **الأفكار القبالية** : المتمثلة فى الديانة الشعبية الإسرائيلية .. بما فيها من سرية التعاليم .. والرموز الخفية فى التوراة .. والقول بإله تصدر عنه الأرواح المدبرة للكون .. ورمزية الأعداد والحروف .. والحديث عن الإنسان باعتباره « العالم الأصغر » ، الذى جاء على صورة « العالم الأكبر » .

ب ـ **الأفلاطونية الحديثة** : كما تمثلت فى مذهب أفلوطين [٢٠٤ ـ ٢٧٠ م] .. بما تمثله من نزعة توفيقية بين الآراء الفلسفية المختلفة .. وكما تمثلت وتبلورت فى « مدرسة الأسكندرية » من القرن الثالث إلى القرن السادس الميلادى .

جـ ـ **الديانات والمذاهب الفارسية** : كما تمثلت فى مانوية « مانى » ـ [القرن الثالث الميلادى] ـ .. تلك التى حاولت التوفيق بين المسيحية وبين الزرادشتية .. وقالت بثنائية النور والظلمة ، إلهين للخير والشر ... وكما تمثلت فى المزدكية ـ إحدى فرق المانوية .

تلك هى أصول « الغنوصية » ، كمذهب تلفيقي ، يجعل عقيدته أسراراً يضن بها على غير أهلها ، ويسمو بها على عامة المؤمنين ، وعلى العقيدة الرسمية ، ويمزج الدين بالفلسفة ـ بمعناها اليونانى المثالى ـ ويعتمد فى تصور الذات الإلهية على نظرية « الفيض والصدور » .. الأمر الذى جعله مأوى للمعتقدات السرية والخفية ، بل والملحدة أحياناً .. ![١٢٨]

وكما يقول « ماسينيون » Massignon,l [١٨٨٣ ـ ١٩٦٢ م] فإن أصول « الغنوصية » فى المرحلة التى تصدت فيها لمحاربة المسيحية الأولى ـ حتى غبشت توحيدها ـ كانت « سامرية ـ يونانية » .. أي أن الإسرائيليات مع الوافد اليونانى ، قد مثلا أصول « الغنوصية » فى مرحلتها المسيحية .. أما فى مرحلتها الإسلامية ، التى تصدت لمحاولة إفساد عقائد الإسلام ، وتجريد حضارته من خصوصيتها الإسلامية ، فإن أصولها قد كانت ـ إلى جانب الوافد اليونانى ـ « مانوية ، أعنى آرامية وإيرانية .. »[١٢٩]

---

(١٢٨) انظر معانى هذه المصطلحات فى [المعجم الفلسفى] وضع مجمع اللغة العربية ـ القاهرة عام ١٩٧٩ م .

(١٢٩) ماسينيون [سلمان الفارسى والبواكير الروحية للإسلام فى إيران] بحث منشور فى كتاب [شخصيات قلقة فى الإسلام] ص ١١ . ترجمة د. عبد الرحمن بدوى . طبعة القاهرة عام ١٩٦٤ م .

وإذا كان الإسلام ، كما آمن به أهل السنة والجماعة ، قد تصدى لفكرية « الغنوص » ورفضها .. وإذا كانت مؤلفات علم الكلام الإسلامى ، ومصنفات « الملل والأهواء والنحل » زاخرة بالتفنيد لمقولات الغنوصيين وآرائهم ـ وخاصة ما كتبه المعتزلة والتيار العقلانى الإسلامى فى هذا المقام ـ فإن العديد من المذاهب الشاذة ، وأفكارها المغالية ، قد مثلت ، فى تراثنا ، آثار « الغزو الفكرى » « الهلينى ـ الغنوصى » ، وبصمات النجاح التى حققها هذا الغزو فى صراعه ضد نقاء الفكرية الإسلامية ، والخصوصية الحضارية لحضارتنا العربية الإسلامية . وعلى سبيل المثال :

● ـ **فالإسماعيلية** : ـ بفروعها ، وفرقها ـ قد مثلت نموذجاً لهذا الغزو الفكرى الغنوصى فى تراث الإسلام .

فإذا كانت صورة الرسول ﷺ فى القرآن الكريم ، وفى السنة الفعلية التى جسدت حياته بين الناس ، هى صورة « البشر ـ الذي يوحى إليه » .. وهى الصورة التى ألح القرآن على تأكيدها ليزيل بها تراث الغنوصية والباطنية فى الخوارق المادية التى لازمت ذات الرسل فى هذا الفكر غير العقلانى ..

فقال القرآن فى مواجهة هذا الفكر، تفنيداً له :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾(١٣٠)

وهذه الصورة القرآنية لحقيقة الرسول، هى التى نراها فى سلوك النبي، وفى أحاديثه التى أفاضت فى تبيان وتفصيل هذا المعنى القرآنى، من مثل قوله لمن ارتعد فى حضرته : « **هوِّن عليك، فلست بملك ولا جبار، وإنما أنا ابن امرأة من قريش تاكل القديد** »!(١٣١)

وإذا كانت صورة « الإمام » فى الإسلام هى صورة « الخليفة »، الذى تختاره الأمة ـ بواسطة أهل الاختيار ـ

---

(١٣٠) الإسراء : ٨٩ ـ ٩٣.

(١٣١) فى ابى داود وابن ماجة، قول رسول الله ﷺ : « إن الله جعلنى عبداً كريماً، ولم يجعلنى جباراً عنيداً ».

بالشورى ، وتبايعه على أن ينفذ الشريعة ، تحت سمعها وبصرها ورقابتها وحسابها .. فهو نائب عنها ، وهى مصدر سلطاته .. ولها عليه حق العزل إن هو عجز أو انحرف عن حدود ونطاق التفويض .

إذا كانت هذه هى صورة النبي والإمام فى فكر الإسلام ، فلقد قدم الغنوص ، من خلال فكر الإسماعيلية ، وبعض فرق الإمامية ، للنبي وللأئمة صورة باطنية مليئة بالأسرار ومحملة بالخوارق ، ومثقلة بالخرافات التى تباعد بينها وبين عقلانية الإسلام .. فعندهم أن الأئمة ، ومعهم النبي ، قد وجدوا قبل خلق الدنيا ، وقبل خلق آدم .. وأن حقيقتهم النورانية قد انطبعت فى عرش الرحمن من يومئذ .. وأن الله قد طلب من الملائكة السجود لجواهرهم عندما وضعت فى ظهر آدم ، فلهم ـ لا لآدم ـ كان طلب السجود ! .. « فحين خلق الله آدم وضع فى ظهره محمداً وعلياً وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين ، على صورة جواهر منيرة أرسلت نورها فى جميع أنحاء العالمين العلوى والسفلى . ولهذه الجواهر الموضوعة فى جسم آدم كان السجود الذى أمر الله الملائكة به ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ، وحينئذ أمر الله آدم أن يرتفع ببصره إلى ذروة العرش ، فرأى آدم كيف انطبعت صور أنوار أشباح محمد

وآل البيت فى العرش ، كما ينطبع وجه الإنسان فى المرآة الصافية ! .. »[١٣٢]

تلك هى صورة الغنوص الباطنى ، اللاعقلانية ، انتشرت فى كثير من مذاهب الإمامية ، وبخاصة الإسماعيلية منهم ، ولازالت تحتل لها ركناً في هذه المذاهب حتى يومنا هذا .. حتى ليقول أبرز قادتهم المعاصرين فى هذه القضية ما نصه : « إن ثبوت الولاية والحاكمية للإمام لا تعنى تجرده عن منزلته التى هى له عند الله ، ولا تجعله مثل من عداه من الحكام .

فإن للإمام مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون - [؟ !] - وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل -[؟ !]- وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم والأئمة كانوا قبل هذا العالم ، انواراً ، فجعلهم الله بعرشه محدقين ، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله .. » ![١٣٣] .

---

(١٣٢) جولد تسيهر [العناصر الافلاطونية المحدثة والغنوصية فى الحديث] . بحث منشور فى كتاب [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] ص ٢٢٦ .

(١٣٣) آية الله الخميني [الحكومة الإسلامية] ص ٥٢ . طبعة القاهرة عام ١٩٧٩ م .

وفى « الغنوص ـ الإسماعيلي » تأكيد لهذا الوجود المحمدى السابق على الخلق ، من خلال مقولتهم التى تزعم أن الحقيقة المحمدية هى التى تجلت فى صور الأنبياء والرسل المختلفة .. فليست هناك تعددية فى الرسل ، وإنما التعددية فقط « فى المظهر الخارجى ، أما فى الحقيقة ، فإنه رسول واحد ، بعث إلى العالمين فى أزمنة مختلفة وفى مظاهر جسمانية متباينة .. » ! .. وهذه المقولة ـ كما يقول جولد تسيهر Goldziher,y [١٨٥٠ ـ ١٩٢١ م] : « ترجع فى أصلها إلى الغنوصية المسيحية ، أى إلى الفكرة التى عبرت عنها المواعظ المنسوبة إلى القديس كليمانس ، فقالت ـ [الموعظة رقم ١٨ ـ فقرة ١٣] ـ : « ليس ثمة غير نبي صادق واحد ، هو إنسان خلقه الله وزوده بروح القدس ، يمر خلال عصور العالم من البدء بأسماء وصور متغيرة .. » ![١٣٤]

وانطلاقاً من هذا « الغنوص ـ الإسماعيلي » ، كان نفى « البابية » و« البهائية » عقيدة ختام النبوة والرسالة بمحمد ﷺ عندما زعموا استمرارية تجلى الحقيقة النبوية ، فى صورة « الباب » ، ثم « البهاء » .. فقال « الباب » عن نفسه : « كنت في يوم نوح نوحاً .. وفى يوم إبراهيم إبراهيم . وفى يوم موسى موسى . وفى يوم عيسى عيسى . وفى يوم محمد

---

(١٣٤) جولد تسيهر . المرجع السابق . ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

محمداً . وفى يوم على علياً . ولأكونن فى يوم من يظهره الله من يظهره الله . وفى يوم من يظهره من بعد من يظهره الله من بعد ... إلى آخر الذى لا آخر له مثل أول الذى لا أول له . كنت فى كل ظهور حجة الله على العالمين .. »[١٣٥] !

فهذا « الغنوص ـ الباطنى ـ اللاعقلانى » ، مازال قائماً ـ معبراً عن الغزو الفكرى الهلينى ـ حتى يومنا هذا .. بدأ من مصدره : « نظرية الصدور فى الأفلاطونية المحدثة » ، وحتى أحدث طبعات « التجليات » البابية والبهائية ؟ ! .

ولذلك ، فلم يكن غريباً أن تكون رحى الصراع الفكرى الأكبر فى علم الكلام الإسلامى ـ فلسفة الأمة ـ قائمة ومنتصبة بين فرسان العقلانية الإسلامية ، المعتزلة ، وبين الإمامية بفرقها وفروعها ، في مبحث الإمامة على وجه الخصوص .. وأن يكون تركيز المعتزلة ضد الفرق الغنوصية الفارسية ، وثمراتها من متصوفة الباطنية ، دعاة « وحدة الوجود » ، كالحلاج [٣٠٩ هـ ـ ٩٢٢ م] وأضرابه .. كما لم يكن غريباً أن يستعين المسلمون بالعقلانية اليونانية ، فى صورتها الأرسطية ، لمجابهة الغنوص ذى الجذر اليونانى ! .

● ـ **السهروردى** : ويأتى السهروردى المتصوف ، شهاب الدين [٥٤٩ ـ ٥٨٧ هـ ـ ١١٥٤ ـ ١١٩١ م] ليعلن

---

(١٣٥) المرجع السابق . ص ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

فى صراحة وشجاعة عن مصادر هذا الغنوص الإسماعيلي ، الذى كان مذهبه فى التصوف تجسيداً له .. فأصحابه وسلفه « هم حكماء وأنبياء الفرس واليونان ، يتجاور فى سلسلتهم : زرادشت وأفلاطون .. وأفلاطون هو الاستمرار لزرادشت .. والحلاج مسلوك فى هذه السلسلة .. التى يأتى السهروردى حلقة من حلقاتها .. وعنده أن « نبي إيران زرادشت هو القائم على هذا التداخل الدينى بين اليونان وإيران .. » .. أما الكتاب المقدس لهذا « الدين ـ الغنوصى » ، فهو مزيج من « محاورات أفلاطون » ، و« الكتب المستورة » ، و« الوحى الكلدانى » ! ..

لقد أعلن السهروردى عن مصادر هذا الغنوص .. وأكد بموقفه وإبداعه الغنوصى الحقيقة التى نلح على إبرازها ، وهى **أن ترجمة الفلسفة العقلانية الأرسطية كانت مددا من السلاح الذى استخدمه المسلمون فى محاربة هذا الغنوص الباطنى** .. « ففكرة النور ، التى أوحت بها إلى السهروردى النبوة الإيرانية القديمة » كانت الرد الصوفى الذى واجه به الفلسفة العقلانية .. قدمها ـ فكرة النور ومذهبه ـ « فى مقابل الطبيعيات السماوية عند أرسطو ، معبراً عن نفسه بلغة علم الملائكة فى إيران القديمة ! » .. كما يقول المستشرق الحجة فى

فكر السهروردى هنرى كوربان Hernrey Corbin[١٣٦]

ولذلك ، فلم يكن غريباً أن يخوض السهروردى معركة نقد العقلانية اليونانية ، التى استعان بها الإسلام فى محاربة هذا الغنوص .. فنرى من بين كتبه كتاباً مثل : [كشف القبائح اليونانية ورشف النصائح الإيمانية] ، وكتابه الذى يؤول فيه القرآن كى يشهد « للذوق ـ الباطنى ـ الصوفى ـ الغنوصى » ضد « البرهان العقلى » ، وهو الكتاب الذى أسماه : [أدلة العيان على البرهان فى الرد على الفلاسفة بالقرآن] ![١٣٧] .

وبسبب من مكان الديانات والمذاهب الفارسية فى هذا الخليط الهلينى ، الذى تجسد فى هذه الغنوصية ، فلقد ذهبت الحركات الفكرية التى تبنت هذا الوافد المناهض لخصوصية الإسلام وحضارته ، ذهبت لتعلى من مقام الفرس ، ولتضع لهم مكاناً متميزاً وممتازاً فى « الإسلام الغنوصى » الذى تصورته وبشرت به .. فلم تقف عند الغلو الذى أحاطت به آل البيت ، بسبب زواج الإمام الحسين بن على بن

---

(١٣٦) انظر هنرى كوربان [السهروردى المقتول مؤسس المذهب الإشراقى] ص ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ١٣٢ ، بحث منشور فى كتاب [شخصيات قلقة فى الإسلام] ـ مرجع سابق ـ .

(١٣٧) جولد تسيهر [موقف اهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل] ص ١٢٩ ، ١٣٠ بحث منشور فى كتاب [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] ترجمة د . عبد الرحمن بدوى ـ طبعة القاهرة عام ١٩٦٥ م .

أبى طالب ، رضى الله عنهما ، من « الشهبانو » ، ابنة يزدجرد [٦٣٢ ـ ٦٥٠ م] ملك الفرس المهزوم .. وإنما صنعوا ، بغنوصهم الباطنى ، لسلمان الفارسى [٣٦ هـ ـ ٦٥٦ م] رضى الله عنه ، مقاماً لم يقل به أحد من الذين استخدموا العقل أو التزموا النقل فى فهم الإسلام ؟! .

فسلمان « عند الإسماعيلية هو الذى حمل القرآن كله إلى محمد ﷺ ـ وإن جبريل لم يكن إلا الإسم الذى أطلق على سلمان ، بوصفه حامل هذه الرسالة الإلهية ـ [؟ !] ـ .. والأحاديث التى يستعينون بها فى هذا موضوعة » ـ كما يقول ماسينيون ـ ... وهم ينطلقون فى مقولتهم هذه من الأسرار الغنوصية الباطنية التى جعلها الغنوصيون لحرف « السين » !

وإذا كان جبريل هو « روح التنزيل » ، فإن سلمان ، عندهم ، هو « روح التأويل » ، « التى تفتح لنا معنى الكتاب » وروح التأويل ـ سلمان ـ عندهم ـ أعلى من روح التنزيل ـ جبريل ـ ! لأنها « روح الأمر » الواردة فى القرآن ، وهى نوع من الفيض الإلهى الذى يحقق تدريجياً مقاصد الله الخفية ، وسلمان أحد وسائلها .. وهو عندهم

« السبب » المراد فى الآية القرآنية:

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾(١٣٨)

وهكذا ـ كما يقول ماسينيون : « اتخذ سلمان فى الغنوص الشيعى صورته النهائية فهو الحلقة المفقودة الضرورية بين محمد وعلى .. » !(١٣٩)

● ـ **والفاطمية الإسماعيلية** : سارت على هذا الدرب ، وكانت فرقة من تيار الغنوص الذى تبنى هذه « الصورة الهلينية » للإسلام ، « فكانت الآراء الغنوصية مادة خصبة انتفع بها الفاطميون فى دعوتهم .. »(١٤٠)

● ـ **وإخوان الصفا** : كانوا هم أيضاً فصيلاً صنع من هذا « التلفيق » الغنوصى تصوره للإسلام .. فلقد نقلوا الأفلاطونية المحدثة إلى مجالات الحياة السياسية والاجتماعية ، واخترعوا الأحاديث النبوية « التى صُوِّر النبي فيها بصورة ترجمان للأفكار الأفلاطونية المحدثة والغنوصية » .. كما يقول جولد تسيهر .. (١٤١)

---

(١٣٨) الحج : ١٥ .

(١٣٩) ماسينيون [سلمان الفارسى والبواكير الروحية للإسلام فى إيران] ص ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ـ مرجع سابق ـ .

(١٤٠) كارل هينرش [تراث الأوائل فى الشرق والغرب] . ص ١٠ ـ مرجع سابق ـ .

(١٤١) جولد تسيهر [العناصر الأفلاطونية المحدثة والغنوصية فى الحديث] ص ٢١٩ ـ بحث منشور فى كتاب [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] ـ مرجع سابق ـ .

● ـ **والقرامطة** : كانوا فصيلاً من فصائل هذا الموكب الغنوصى الإسماعيلى .. فلقد تبنوا الصورة الإمامية للخلافة والإمامة .. وقالوا بما قالت به الغنوصية من « نسبية الأديان » ![١٤٢] .

● ـ **ومتصوفة « وحدة الوجود »** : بدءاً من الحلاج ، الذى رفض عقلانية المعتزلة ، ووسائلهم فى الاستدلال والحجاج ، ووقف عند القياس اليونانى .. وقال بوحدة الوجود .. وبالعرفان الغنوصى سبيلاً للاتحاد بالله والفناء فيه[١٤٣] .. وكذلك الحال عند محيى الدين بن عربى [٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ ١١٦٥ ـ ١٢٤٠ م] المهندس الأكبر لنظرية وحدة الوجود الغنوصية [١٤٤] .. إلى كل الفرق الغنوصية التى تبنت مذهب الغنوص فى نظرية « الإنسان الكامل » [١٤٥] .

---

(١٤٢) هنرى كوربان [السهروردى المقتول مؤسس المذهب الإشراقى] ص ١٣١ ـ مرجع سابق ـ

(١٤٣) ماسينيون [المنحنى الشخصى لحياة الحلاج شهيد الصوفية فى الإسلام] ص ٦٧ . بحث منشور فى كتاب [شخصيات قلقة فى الإسلام] ـ مرجع سابق ـ

(١٤٤) نيكلسون [التصوف] ص ٣٢٨ . بحث منشور فى كتاب [تراث الإسلام] ترجمة جرجيس فتح الله . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ م

(١٤٥) كارل هينرش [تراث الأوائل فى الشرق والعرب] ص ١٣ . بحث منشور فى كتاب [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] ـ مرجع سابق ـ .

على هذا النحو ، وإلى هذا الحد ـ الذى ضربنا له الأمثلة ـ بلغ « الغزو الفكرى » الذى قذف به الغرب اليونانى الشرق الإسلامى .. وهو الغزو الذى بدأ ـ كما أشرنا من قبل ـ منذ انتصار الاسكندر المقدونى على الدولة الفارسية ، وتكوين امبراطوريته الشرقية ، تلك الامبراطورية التى سادت فيها الفكرية الهلينية ، كما تمثلت فى مدرسة الأسكندرية ، منذ القرن الثالث الميلادى ، والتى لفقت ما بين : إسرائيليات الديانة الشعبية الإسرائيلية .. وديانة الفرس ومذاهبها .. والأفلاطونية المحدثة .. وتجسدت فى « الغنوص ـ الباطنى » الذى يعتمد « العرفان ـ والذوق » سبيلاً للمعرفة ، بدلاً من العقل والنقل .

وبعد أن خاضت هذه الغنوصية معركتها ضد المسيحية الأولى ، ونجحت فى « تغبيش » نقاء عقيدة التوحيد فيها .. حاولت ذلك مع الإسلام .. فكان أن تصدى التيار العقلانى الإسلامى لمذاهبها ومقولاتها ونظرياتها بعلم الكلام الإسلامى .. فلما أعرضت المذاهب الغنوصية عن الاحتكام للعقلانية الإسلامية المتميزة ، بسبب من هيمنة الوافد اليونانى ـ الأفلاطونية المحدثة ـ على فكريتها ، وبسبب من علو مقام الفكر اليونانى فى هذا المناخ الهلينى ، اتجه المدافعون عن الإسلام إلى ترجمة الفلسفة العقلية اليونانية ، ليردوا بها على هذه النزعة الغنوصية اليونانية .. فكان

الاهتمام الأكبر بعقلانية أرسطو سبيلاً لمواجهة الخطر الأكبر فى هذا الغزو الفكرى ، ولم يكن تبنياً لهذا النمط العقلانى المتناقض مع خصوصيتنا العقلانية التى آخت ما بين العقل والنقل فى فلسفتنا الإسلامية ـ علم الكلام ـ .. ويشهد على ذلك ، أيضاً ، اتجاه حركة الترجمة الإسلامية ، بعد ذلك ، لترجمة أفلاطون [٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م] لما لتدينه ـ المكتسب من الشرق ـ من أثر فى « تدين العقلانية الأرسطية » ، بالتوفيق بينهما ، على النحو الذى حاوله فلاسفة الإسلام ، كى لا تفضى العقلانية الأرسطية الخالصة إلى الإخلال بالتوازن ، لحساب النزعة المادية والإلحاد !

تلك هى « الشهادة » الأولى على « المعنى والسبب » اللذين لأجلهما ترجم المسلمون فلسفة اليونان .

٢ ـ وشهادة ثانية تبلغ فى هذا الموضوع مبلغ « الوثيقة » عندما يكتبها « خبير ـ صانع » للحدث الذى « يوثقه » و« يشهد فيه » !

فالشيخ الرئيس ابن سينا [٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ٩٨٠ـ ١٠٣٧ م] كان أول من أفرد لعرض وشرح الفلسفة المشائية اليونانية موسوعته الضخمة [الشفاء] .. ولقد شهد هو نفسه ، بأنه قد عرض هذه الفلسفة وقدمها وشرحها ، لا لأنها الفلسفة الحقة ، وإنما لمكانتها عند المشائين الذين

لا يستعينون بغيرها ولا يألفون سواها .. وأنه لذلك ، وحتى لا يظن المحققون تبنية لمقولاتها ، قد وضع فى ثنايا عرضه بكتابى [الشفاء] و[اللواحق] إضافات لو فطن إليها المدققون لرأوا فيها الفلسفة الحقيقية للشرقيين ، المتميزة عن الفلسفة المغربية ـ [اليونانية] ـ . وأنه لم يكتف بهذه الإضافات ، التى تكفى المدققين ، ذوى الفطنة ، فى إدراك هذه الحقيقة ، حقيقة تميز أمتنا فى فلسفتها عن اليونان ، وإنما عمد أيضاً ، إلى إفراد فلسفتنا بكتاب خاص ، هو كتاب [الحكمة المشرقية] ـ أو [الفلسفة المشرقية] ـ بسط فيه ، صراحة ، معارضة فلسفتنا للفسلفة اليونانية ، وعلى الأخص فى الإلهيات

بل لقد نبه ابن سينا على هذه الحقيقة صراحة فى مقدمة الكتاب الذى بسط فيه الفلسفة المشائية اليونانية ـ[الشفاء] ـ .. فقال فى هذا التقديم : « **ولى كتاب غير هذين الكتابين** ـ [« الشفاء » و« اللواحق »] ـ **أوردت فيه الفلسفة على ما هى بالطبع ، وعلى ما يوجه الرأى الصريح الذى لا يراعى فيه جانب الشركاء فى الصناعة ، ولا يتقى فيه من شق عصاهم ما يتقى فى غيره ، وهو كتابى فى « الفلسفة المشرقية » . واما هذا الكتاب** ـ [« الشفاء »] ـ **فاكثر بسطا ، واشد فع الشركاء من**

المشائين مساعدة . ومن أراد الحق الذى لا مجمجة[١٤٦] فيه ، فعليه بطلب ذلك الكتاب - [« الفلسفة المشرقية »] - ومن أراد الحق على طريق فيه ترض ما إلى الشركاء ، وتبسط كثير ، وتلويح بما لو فطن له استغنى عن الكتاب الآخر ، فعليه بهذا الكتاب -[« الشفاء »] - .. »[١٤٧]

فمن أراد الحق فى الفلسفة على ما هى عليه بالطبع ، فإن طلبته - كما يقول ابن سينا - ليس كتاب [الشفاء] ، لأن فلسفة اليونان ليست هى الحق فى هذا الموضوع ! .

وفيما بقى لنا من تراث ابن سينا ، هناك كتابه [منطق المشرقيين] أو [كتاب المشرقيين] ، والذى يغلب على الظن أنه قطعة من كتابه الذى نبه عليه [حكمة المشرقيين] ، يسوق فى مقدمته حديثاً ، ينهض « كالوثيقة الفكرية التاريخية » فى هذا الموضوع البالغ الأهمية - موضوع تميز فلسفتنا عن الفلسفة اليونانية - وبشهادة من بلغ فى عرض الفلسفة اليونانية درجة « الشيخ الرئيس » ! .. يقول ابن سينا :

---

(١٤٦) اى لا غموض فيه ولا إبهام .

(١٤٧) نلينو [محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية] بحث منشور بالمرجع السابق ص ٢٧٧ ، هامش (١) » .

« نزعت الهمة بنا إلى أن نجمع كلاماً فيما اختلف أهل البحث فيه ، لا نلتفت فيه لفت عصبية أو هوى أو عادة أو إلْف ، ولا نبالى من مفارقة تظهر منا لما أَلِفَهُ متعلمو كتب اليونانيين إلْفًا عن غفلة وقلة فهم ولما سُمع منا فى كتب الّفناها للعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين ، الظانين ان الله لم يهد إلا إياهم ، ولم يُنل رحمته سواهم .

[سنفعل هذا][148] ، مع الاعتراف منا بفضل أفضل سلفهم[149] فى تنبهه لما نام عنه ذووه وأستاذوه، من تمييزه أقسام العلوم بعضها عن بعض ، وفى ترتيبه العلوم خيراً مما رتبوه ، وفى إدراكه الحق فى كثير من الأشياء ، وفى تفطنه لأصول صحيحة سرية فى أكثر العلوم ، وفى إطْلاعه [عامة] الناس على ما بينها فيه السلف وأهل بلاده ، وذلك أقصى ما يقدر عليه إنسان يكون أول من مد يديه إلى تمييز مخلوط ، وتهذيب مُفْسَد ، ويحق على من بعده أن يلموا شعثه ، ويرموا ثلما يجدونه فيما بناه ، ويفرعوا أصولا أعطاها ، فما قدر من بعده [أرسطو] على أن يفرغ نفسه عن عهدة ماورثه منه وذهب عمره فى تفهم ما أحسن فيه والتعصب لبعض ما فرط من تقصيره ، فهو مشغول عمره بما سلف ، ليس له مهلة

---

(١٤٨) ما بين المعقوفتين [ ] من تعليقات وشروح « نلينو » .

(١٤٩) يعنى أرسطو .

يراجع فيها عقله ، ولو وجدها ما استحل أن يضع ما قاله الأولون موضع المفتقر إلى مزيد عليه أو إصلاح له أوتنقيح إياه .

وأما نحن ، فسهل علينا التفهم لما قالوه أول ما اشتغلنا به ، ولا يبعد أن يكون قد وقع إلينا من غير جهة اليونانيين علوم ، وكان الزمان الذى اشتغلنا فيه بذلك ريعان الحداثة ، ووجدنا من توفيق الله ما قصّر علينا بسببه مدة التفطن لما أُورثوه . ثم قابلنا جميع ذلك بالنمط من العلم الذى يسميه اليونانيون « المنطق » ـ ولا يبعد أن يكون له عند المشرقيين اسم غيره ـ حرفاً حرفاً ، فوقفنا على ما تقابل ـ [أى ما يتفق معه] ـ وعلى ما عصى ـ [أى ما اختلف وإياه] ـ . **وطلبنا لكل شيء وجهه ، فحق ما حق وزاف ما زاف** ـ [أى وكانت نتيجة هذا أن بان ما هو حق وما هو زائف] .

ولما كان المشتغلون بالعلم شديدي الاعتزاء إلى المشائين من اليونانيين ، كرهنا شق العصا ومخالفة الجمهور ، فانحزنا إليهم وتعصبنا للمشائين إذ كانوا أولى فرقهم ـ [فرق اليونانيين ؟] ـ بالتعصب لهم . واكملنا ما ارادوه وقصروا فيه ولم يبلغوا اربهم منه ، واغضينا عما تخبطوا فيه ، وجعلنا له وجهاً ومخرجاً ، ونحن بدخلته شاعرون ، وعلى ظله واقفون . فإن جاهرنا بمخالفتهم ، ففى الذى لم يمكن الصبر عليه ، واما الكثير

فقد غطيناه باغطية التغافل ..... ولكنكم اصحابنا ، تعلمون حالنا فى أول امرنا وآخره ، وطول المدة التى بين حكمنا الأول والثانى ، وإذا وجدنا صورتنا هذه ، فبالحرى ان نثق باكثر ما قضيناه ، وحكمنا به واستدركناه ، ولا سيما فى الأشياء التى هى الأغراض الكبرى ، والغايات القصوى التى اعتبرناها وتعقبناها مثين من المرات ، ولما كانت الصورة هذه ، والقضية على هذه الجملة ، احببنا أن نجمع كتاباً يحتوى على أمهات العلم الحق الذى استنبطه من نظر كثيراً ، وفكر ملياً ، ولم يكن من جودة الحدس بعيداً .

وما جمعنا هذا الكتاب لنظهره إلا لأنفسنا ـ اعنى الذين يقومون منا مقام أنفسنا ـ وأما العامة من مزاولى هذا الشأن ، فقد أعطيناهم فى « كتاب الشفاء » ما هو كثير لهم وفوق حاجتهم ، وسنعطيهم فى « اللواحق » ما يصلح لهم زيادة على ما أخذوه . وعلى كل حال فالاستعانة بالله وحده .. »[١٥٠] .

---

(١٥٠) المرجع السابق . ص ٢٧٨ ـ ٢٨٢

تلك هى « وثيقة » الشيخ الرئيس ، ابن سينا ، تحمل « شهادة خبير » ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾[١٥١] .. شهادة خبير بالفلسفة اليونانية ، وبالفلسفة المشرقية .. عرضهما عرض واقف على الخلاف المميز بينهما « فى الأغراض الكبرى والغايات القصوى » .

وهو فى هذه « الوثيقة ـ الشاهدة » يحدد :

أ ـ إنه مع فضل أرسطو ، وإضافاته بالنسبة لمن سبقه ، فإن فى بنائه الفكرى والفلسفى أخطاء وثغرات .

ب ـ وأن الذين أتوا بعده ، بدلاً من أن يطوروا فكره ، ويعالجوا نواقصه ، ويرمموا ثغراته ، جمدوا عند مقولاته ، وقدسوا كل ميراثه ! .. وتحاشوا حتى إصلاح الأخطاء التى أدركوها ! .

جـ ـ وأن ابن سينا لما استوعب فلسفة اليونان ، منذ وقت مبكر فى حياته العلمية ، عرضها على المنطق ـ معيار العلم والنظر ـ فتبين له ما فيها من حق وما فيها من زيف .

د ـ وبسبب من تعلق المشتغلين بالعلم بالفلسفة المشائية اليونانية ، والفهم لها وحدها ، واستنامتهم لمقولاتها ، فلقد عرضها لهم ـ فى [كتاب الشفا] ـ مع إضافات ، وبعض

---

(١٥١) فاطر : ١٤

انتقادات ـ يدركها أهل الدرجة العليا من الاختصاص ـ لكنه تغافل عامداً عن نقد أغلب ما تخبط فيه اليونان ـ اللهم إلا فيما لم يصبر على السكوت عنه من مواطن الخلاف ـ ! .

هـ ـ وبعد هذا الموقف الأول ، وجد من الأوفق أن يتخذ موقفاً ثانياً .. فكتب كتابه [فلسفة المشرقيين] ، الذى عرض فيه خلاف فلسفتنا مع الفلسفة اليونانية فيما هو « خصوصية حضارية شرقية » فى الفلسفة ، مركزاً على « الأغراض الكبرى والغايات القصوى » ، بعد أن راجع مسائلها مئين المرات ! .. قاصداً أن يكون هذا الكتاب مرجعاً للخاصة ، كما أن [الشفاء] و[اللواحق] هى مراجع « العامة » من المفتونين بالفلسفة اليونانية ، فى غفلة وقلة فهم ! .

نعم .. إنها « شهادة » تبلغ فى الدقة والعمق مبلغ « الوثيقة » ، عندما يكتبها « خبير ـ صانع » للحدث الذى « يوثقه » و« يشهد فيه » !

ولقد شهد الذين وعوا دلالة هذه الشهادة لابن سينا بما لها ، فى موضوعنا ، من الدلالات .. فقال روجربيكون Rogeri Bacon [١٢١٤ ـ ١٢٩٤ م] : « إن ابن سينا ـ وهو أحد كبار مقلدى أرسطو ، وعارضى مذهبه ، والمتمم لفلسفته ـ بحسب ما كان فى استطاعته ـ قد ألف [كتاب الشفاء] حسب المذهب السائد عند المشائين ، الذين هم شيعة

أرسطو .. كما **الف [كتاب الفلسفة المشرقية] بحسب الحقيقة الخالصة فى الفلسفة** ، تلك الحقيقة التى لا تخشى طعنات رماح المعترضين ! »(١٥٢) .

أما « نلينو » Nallino,Carlo [١٨٧٢ ـ ١٩٣٨ م] فإنه يستخلص من هذه الحقيقة نتائجها فيقول : « إن من المستحسن دائماً أن تتخذ [الحكمة المشرقية] أساساً فى كل عرض لمذهب ابن سينا ، بدلاً من أن يتخذ [الشفاء] أو مختصره [النجاة] ، فعلى هذا النحو يمكن عرض **الفكر الحقيقي لهذا الفيلسوف الكبير** عرضاً أحسن وأدق »(١٥٣) .

فالفلسفة الحقيقية لابن سينا ليست فلسفة اليونان ـ وإنما هى فلسفة المشرقيين وحكمة الإسلام « المتميزة » عن فلسفة اليونان « فى الأغراض الكبرى والغايات القصوى » .. على حد عبارة الشيخ الرئيس ! .

٣ ـ ثم يأتى الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل [٤٩٤ ـ ٥٨١ هـ ١١٠٠ ـ ١١٨٥ هـ] فى مقدمة رائعته الفلسفية غير المسبوقة [حى بن يقظان] ، ليؤكد هذه الحقيقة .. حقيقة أن فلسفة الإسلام ليست هى فلسفة

---

(١٥٢) المرجع السابق . ص ٢٧٧ ، هامش [٢] ، .

(١٥٣) المرجع السابق . ص ٢٩٠ .

اليونان .. بل ويعيد نشر شهادة ابن سينا ، عنواناً على تبنيه لمضمونها .. فيخاطب مُخاطبهُ قائلاً : « سألت ، أيها الأخ الكريم الصفى .. أن ابث إليك ما أمكننى بثه من أسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها الشيخ الرئيس أبو على ابن سينا .. » .

فيعلن ابن طفيل ، بهذه العبارة ، على أن طلب الحديث عن الحكمة المشرقية ، وإبراز تميزنا الفلسفى ، كان من القضايا التى تشغل العقل الفلسفى الإسلامى ، والتى تدور حولها الأسئلة والأجوبة ، وتخصص للإجابة عن فحواها الصفحات .

ثم يستطرد ابن طفيل فيستدل على القضية بإيجاز شهادة ابن سينا ، فيقول : « وأما كتب أرسطو طاليس ، فقد تكفل الشيخ أبو على بالتعبير عما فيها ، وجرى على مذهبه ، وسلك طريق فلسفته فى [كتاب الشفاء] . وصرح فى أول الكتاب بأن الحق عنده غير ذلك ، وأنه إنما ألف ذلك الكتاب على مذهب المشائين ، وأن من أراد الحق الذى لا جمجمة فيه ، فعليه بكتابه [الفلسفة المشرقية] ... » .

ثم يقدم ابن طفيل شهادته ، كثمرة لقراءته كتب أرسطو ، ولقراءته عرضها فى [كتاب الشفاء] لابن سينا . فيؤكد أن لابن سينا فى [الشفاء] « إضافات » هى من إبداعه ، ولا تتفق مع آراء أرسطو ، وأنها لا تظهر إلا لأهل الفطنة من

ذوى الاختصاص ... ثم يعيد ذكر رأى ابن سينا ، القائل إن من أراد الكمال ، بواسطة الفلسفة ، فسبيله ليست فلسفة اليونان ، وإنما فلسفة المشرقيين .. يقول ابن طفيل : « .. ومن عنى بقراءة [كتاب الشفاء] ، وبقراءة كتب أرسطو طاليس ، ظهر له فى أكثر الأمور أنها تتفق ، وإن كان فى كتاب « الشفاء » أشياء لم تبلغ إلينا عن أرسطو . وإذا أخذ جميع ما تعطيه كتب أرسطو وكتاب « الشفاء » على ظاهره ، دون أن يتفطن لسره وباطنه ، لم يوصل به إلى الكمال ، حسبما نبه عليه الشيخ أبو على فى كتاب « الشفاء » .. » (١٥٤)

٤ ـ أما مؤرخ الحكمة ، والحكماء ، ابن أبى أصيبعة [٥٩٦ ـ ٦٦٨ هـ ـ ١٢٠٠ ـ ١٢٧٠ م] فإنه يخبرنا عن اسم كتاب مفقود لابن سينا ، عنوانه [كتاب الإنصاف] ـ « عشرون مجلدة » ـ ويقول إنه ميّز فيه بين فلسفة « المشرقيين » وبين فلسفة « المغربيين » ! .. « شرح فيه جميع كتب أرسطو طاليس ، وأنصف فيه بين المشرقيين والمغربيين .. » (١٥٥) .

---

(١٥٤) المرجع السابق . ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨.

(١٥٥) المرجع السابق . ص ٢٧٨ .

٥ ـ وغير هذه « الشهادات » ، التى اقتفى أصحابها أثر ابن سينا ، واستدلوا بأدلته .. نجد هذا الموقف ، الذى يميز فلسفة الإسلام عن فلسفة اليونان ، لما لكل منهما من « خصوصيات حضارية » ، يتكرر لدى الكثير من أعلام فلسفتنا ، والذين خبروا منهم فلسفة اليونان على وجه الخصوص .

ففخر الدين الرازى [٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ ـ ١١٥٠ ـ ١٢١٠ م] ينهض بإبراز معارضة الفلسفة الإسلامية للفلسفة اليونانية .. والفلسفة « المشرقية » ـ الإسلامية ـ عنده هى إبداع المسلمين فى علم الكلام ، المعبر عن « خصوصيتنا الحضارية » فى الفلسفة .. أما الفلسفة « المغربية » ـ اليونانية ـ فهى « أفكار المشائين اليونانيين ، وخصوصاً طريقتهم فى بحث المسائل ، ومن قلدهم وسار فى أثرهم من المسلمين .. »(١٥٦)

٦ ـ أما أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨ م] فإن إبداعه كله « وثيقة » شاهدة فى هذا الموضوع .

لقد أنجز ابن رشد أضخم مشروع عربى لتقديم فلسفة اليونان إلى العقل العربى والمسلم . وقدم لأعمال أرسطو

---

(١٥٦) المرجع السابق . ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

الشروح ـ الكبرى .. والمتوسطة .. والموجزة ـ وصحح الأخطاء ، وضبط المصطلحات ، وحدد المفاهيم ، وحرر المقولات .. ورعت الدولة مشروعه هذا ، كما ترعى الأمم والدول العريقة ـ فى زماننا ـ المشاريع الثقافية والعلمية الكبرى التى تتيح لأبنائها الاطلاع على الحضارات الأخرى والتفاعل وإياها .

ولهذا الإنجاز الرشدى العملاق ، فى شرح أعمال حكيم اليونان أرسطو ، استحق ابن رشد ، على النطاق العالمى ، لقب « الشارح الأكبر » ... ولقد حدثنا ابن رشد عن مكانة أرسطو فى الفكر « الإنسانى اليونانى » ، وكيف بلغ هذا الحكيم « أقصى ما وقفت عليه العقول الإنسانية » ! .. فشابه فى هذا التقييم قول ابن سينا عن أرسطو : « إنه صنع أقصى ما يقدر عليه إنسان يكون أول من مد يده إلى تمييز مخلوط أو تهذيب مفسد » ! .

لكن ابن رشد ، لم يقف عند حدود « الشارح »لأرسطو » ولا كان « المتبنى لكامل مقولات فلسفة اليونان » .. ففى شروحه ذاتها إضافات وانتقادات ، لم يغلفها ، كما صنع ابن سينا ، وإنما برزت للعيان ، من حيث الحجم والوضوح .. **وفى هذه الإضافات الرشدية تتجلى خصوصيات الفلسفة الإسلامية ، عندما يبدعها ابن رشد المسلم ، المتكلم ، القاضى ، والفقيه** .. ففى مسائل جوهرية وكثيرة تبرز

خصوصيتنا الفلسفية ، المتميزة عن الفلسفة الأرسطية .. وفى مقدمة هذه المسائل :

أ ـ تصور ابن رشد للذات الإلهية .. وهو إبداع « رشدى ـ إسلامى » لا علاقة له بالفلسفة اليونانية .

ب ـ تصوره لمعضلة وحدة الوجود ، العقلية والمادية .

جـ ـ تصوره لعالم الصور .

د ـ تصوره المنهجى للتوفيق بين الحكمة والشريعة .. وهو إبداع إسلامى ، غير وارد فى الإطار اليونانى .

هـ ـ تصوره لقضية الحرية الإنسانية ، والجبر والاختيار .. ومكانة الإنسان فى الكون .

و ـ نظريته فى المعرفة .. والعلم الإنسانى ، والعلم الإلهى .

ز ـ منهجه فى تقسيم الناس إلى مراتب .. ليست طبقية ، لا بالمعنى اليونانى ولا بالمعنى الاقتصادى .

ح ـ رؤيته لمكانة المرأة فى المجتمع .(١٥٧)

لقد اختلفت هذه المقولات الأساسية فى الإبداع الرشدى ، عن نظيرتها فى الإبداع الأرسطى ، لأن الإبداع الرشدى كان إسلامياً ، لم يقف عند « منتهى ما وقفت

---

(١٥٧) انظر كتبنا [المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد] طبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ عام ١٩٨٣ م و[مسلمون ثوار] ـ فصل ابن رشد ـ طبعة دار الشروق ـ القاهرة ـ عام ١٩٨٧ م . ومقدمة تحقيقنا لكتاب ابن رشد [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] طبعة دار المعارف ـ القاهرة ـ عام ١٩٨٣ م .

عليه العقول الإنسانية » ـ كأرسطو والفلسفة اليونانية ـ وإنما أضاف إلى ذلك ، في تزامل ومؤاخاة ، حقائق الشريعة الإلهية التى نزل بها الوحى على رسول الإسلام ﷺ .

وإذا كانت شروح ابن رشد على أعمال أرسطو قد اشتملت ـ فى استفاضة ووضوح ـ على ملامح هذه « الخصوصية الحضارية الإسلامية » فى الفلسفة ، فإن مصادر الإبداع الرشدى الخالصة هى الموطن الطبيعي الذى يجب أن نلتمس فيه « الرشدية الإسلامية » ، المعبرة عن خصوصيتنا الحضارية .. فابن رشد : المتكلم ، والقاضى ، والفقيه ، وفيلسوف الإسلام ، تلتمس حقائق إبداعه فى « مؤلفاته » ، لأنها « إبداع خالص » ، وليست مجرد « إضافات » فى ثنايا « الشروح » .

إن « منهج » ابن رشد ، الذى صاغه فى كتابه الفذ [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] هو إبداع إسلامى متميز ، بل ومختلف تماماً ، عن منهج اليونان الذين أبدعوا فلسفتهم فى إطار لا يعرف الوحى ولا الشريعة ، فلم يحتكم إلا إلى البرهان العقلى .

وإن كتاب ابن رشد [الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة] هو الإبداع الرشدى فى الصورة المناسبة لجمهور الناس .

أما كتابه [تهافت التهافت] فهو مستودع فلسفة الإسلام ، كما تصورها ابن رشد ، على النحو المناسب لأهل الاختصاص .

ففى هذه الكتب الثلاثة ، نجد ابن رشد « المتكلم » ، أى « « الفيلسوف الإسلامى » ـ وليس « الشارح » .. كما نجد فيها خصوصيتنا الحضارية ، فى الفلسفة ، التى تميزت بها حضارتنا عن حضارة اليونان .

فهو ، إذن ، إبداع شاهد ـ من خلال هذا الصرح ـ على القضية التى نعقد لها هذه الصفحات .. وهو « شهادة إبداع » على أن **الانفتاح على الحضارات الأخرى ، وفقه مقولاتها ، والتبحر فى بحارها ، والعناية بعلومها وفنونها ، كاهلها أو اكثر ، لا يعنى إغفال الفروق بين ما هو « خصوصية حضارية » وما هو « مشترك إنسانى عام » .. لأن الوعى بهذه الفروق هو سبيل الأمن وطوق النجاة من الوقوع فى أسر « الغزو الفكرى » الذى سقط فى أغلاله دعاة « الهلينية » قديماً ، وأنصار « التغريب » ، فى عصرنا الحديث** ! .

تلك هى حقيقة صفحات تفاعلنا الحضارى مع مواريث الفرس .. والروم .. والهند .. واليونان .

التفاعـــل الحضـــارى

بين الغرب وحضارتنا العربية الإسلامية

وعندما كان الغرب بسبيل نهضته ، التى أخرجته من عصوره الوسطى والمظلمة ، وانفتحت قوى هذه النهضة على حضارتنا العربية الإسلامية ، وجدنا ذات القانون عاملاً ذات العمل .. فكان التمييز بين ما هو « مشترك إنسانى عام » ، فتبنوه ، وانطلقوا منه ، وأضافوا إليه إبداعهم الحضارى السملاق .. وبين ما هو « خصوصية حضارية » للعرب والمسلمين ، وقفوا منه موقف الحذر والشك ، والرفض والعداء ، بعد أن عرضوه على « خصوصيتهم الحضارية » التى ميزت الحضارة الغربية وطبعتها بما ميزها منذ تراثها اليونانى وحتى عصرها الحديث .

لقد أقبل الغرب بنهم على امتلاك رصيد الحضارة العربية الإسلامية من العلوم الطبيعية .. علوم المادة وظواهرها وخصائصها .. علوم التمدن المدنى والعملى .. من مثل علوم : الطب ، والصيدلة ، وقواعد النظافة العامة والخاصة ، وعلوم الزراعة والنباتات ، والحيوان ، وفنون وعلوم الحرف والصناعات ، والتجارة ، والمواصلات ، ووسائل الاتصال ، وفنون القتال واستحكامات الحرب ، وطبقات الأرض وأنواعها - [الجيولوجيا] - ، والمعادن ، والبصريات والمناظر ،

والكيمياء ، والفلك ، والرياضيات ، من جبر وهندسة ، وحساب ـ بفروعه ـ ، والميكانيكا ـ [الحيل] ـ ، والجغرافيا ، والرحلات ، وعلوم البحار والملاحة فيها .. الخ .. الخ .. الخ .

كذلك أخذ الغرب عن علمائنا وحضارتنا الإبداع فى « المنهج التجريبى » ، الذى تجاوزنا به نطاق « القياس الأرسطى » إلى الملاحظة والاستقراء والتجريب .. فكان ثورة إنسانية فى صناعة الفكر نقلت العلوم والمعارف إلى « كيف جديد » .

لقد اخذوا ما سبق ان اخذناه نحن عن اسلافهم اليونان ، وغيرهم من الفرس والهنود ، وما اخذناه عن مدرسة الإسكندرية من « علوم الصنعة » ، مضافاً إليه إبداع حضارتنا ونقدها وإضافاتها إلى هذا الموروث .. فلقد كان ذلك جميعه من « المشترك الإنسانى العام » .

اما فيما هو « خصوصية حضارية » عربية إسلامية ، مما يتصل بالإنسانيات الإسلامية سياسة واجتماعاً واقتصاداً وفلسفة وانماطاً خاصة فى الذوق والسلوك والقيم والمثل والأعراف .. الخ .. الخ .. فكل ذلك قد تحفظ عليه الغرب الناهض ، وذلك حتى يكون انفتاحه على حضارتنا ، كافلاً إضافة مصادر القوة ، وحافظاً ـ فى ذات الوقت ـ على حضارته هويتها و« بصمتها »

وخصوصيتها التى تميزت بها عن غيرها من الحضارات .

لقد اجمعت واجتمعت تيارات فكر النهضة الغربية على رفض ابرز خصائص حضارتنا العربية الإسلامية .. خصيصة « التوحيد » .. وخصيصة « الوسطية » .. وخصيصة « التدين » ـ بالمعنى الشامل والعميق .. أى انهم قد رفضوا هويتنا الحضارية ، كى يحفظوا لحضارتهم الناهضة هويتها .

ورفض هذه الهوية الإسلامية . هو الذى ميز الحضارة الغربية الحديثة بطابعها الأصيل : الطابع المادى .. وتبنى « الثنائية ـ الانشطارية » فى الكثير من القضايا والسمات ، التى اهتدت فيها حضارتنا ـ بالوسطية ـ إلى « التوازن ـ التوحيدي » .

● لم ياخذوا توفيق حضارتنا ما بين « الحكمة » و « الشريعة » .. فتميزت حضارتهم بالثنائية التى اخرجت التدين من إطار العقل ، كما اخرجت الدنيا والدولة وعلوم التمدن من إطار الدين .. والتى قسمت الفلسفة والفلاسفة إلى « ماديين » و« مثاليين » ، بثنائية « الفكر » و« المادة » .

● ولم ياخذوا خصوصيتنا الحضارية فى علاقة « الدين » بـ « الدولة » .. فكانت « علمانيتهم » فصلاً للدين عن الدولة ، وتحريراً لعلوم الدنيا من الروح

الإيمانية .. فى مقابل « الكهانة » التى سبق والغت الطابع المدنى المتطور للدولة والدنيا وعلومهما لحساب « المقدس ـ الثابت » .

● ولم ياخذوا خصوصيتنا فى التوفيق بين « الفرد » و« المجموع » .. فكانت « ليبراليتهم » انحيازاً للفرد ، بإطلاق ، ضد المجموع ، بإطلاق .. وعلى عكس ذلك تماماً كانت « شموليتهم » .. حدث ذلك فى « الفكر السياسي » ، وايضاً فى « الاقتصاد والمال » .

● ولم ياخذوا بخصوصيتنا الحضارية التى ربطت الأعمال بالحكمة منها .. والوسائل بأخلاقية الغايات المبتغاة من ورائها .. والدنيا كلها بدار الحساب والجزاء .. فكان اهتمامهم باللذة والشهوة واللحظة .. وكانت سياستهم ـ الميكيافيلية ـ : « فن الممكن من الواقع » ، بصرف النظر عن الأخلاق .. على حين كانت السياسة عندنا هى « الأعمال التى يكون الناس معها اقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد » ! .

● ولم ياخذوا خصوصيتنا التى وازنت بين « سيادة الله » و« سلطان الأمة » فى سياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران .. لأن حضارتهم قد جعلت الإنسان « سيد الكون » فأطلقت ديمقراطيتها العنان لسلطة

الشعب من كل إطار ديني وقيد سماوى ، حتى ليجوز للأمة فيها أن تحل الحرام ـ وتحرم الحلال على حين وازنت خصوصيتنا الحضارية بين سيادة الله وحاكميته » ـ المتمثلة في مقاصد الشريعة الإلهية وحدودها ـ وبين سلطان الامة وسلطاتها ـ المتمثلة فى حريتها المحكومة بإطار الشريعة ومقاصدها .. لأن حضارتنا قد تميزت عن حضارتهم في تحديدها لمكانة الإنسان في الكون . فهو ليس « سيد الكون » ، وإنما هو « سيد فيه .. وخليفة » عن سيده ، سبحانه وتعالى ! .

● ولم ياخذوا خصوصية نظام الخلافة الإسلامى ، الذى يكون فيه الحاكم الأعلى نائباً عن الامة وحاكماً مدنياً ، لكنه منفذ لمقاصد الشريعة .. اى سائس للدنيا ـ دون علمانية تتجاهل الدين ـ وحارس للدين ـ دون كهانة تقدس المدنى وتثبت وتجمد المتغيرات ! .

نعم .. لقد عمل القانون الذى حكم التقاء الحضارات العريقة وتفاعلها عبر التاريخ .. عمل أيضاً ـ وكان لا بدله أن يعمل ـ عندما انفتحت أوروبا ، إبان نهضتها الحضارية ، على حضارتنا العربية الإسلامية .. وكما أخذ عمر بن الخطاب من الرومان « تدوين الدواوين »ورفض شريعتهم المتمثلة ف قوانين « يوستنيان الأول » [٤٨٣ ـ ٥٦٥ م] لتميزها عن شريعة الإسلام .. كذلك أخذ الغرب عنا ، إبان نهضته ، علوم

التمدن المدنى والعملى ، دون أن يأخذ شريعتنا الإسلامية قانونا يحكم ويضبط مجتمعاته وشعوبه .. لتميزها عن شريعته - القانون الرومانى - بمقاصدها الدينية الثابتة وإطارها الإلهى ، وعلاقتها الوثيقة بدين الإسلام .. فهما نمطان فى الشريعة والقانون متمايزان تمايز الخصوصيات التى ترسم الحدود للحضارات ! وصدق المستشرق « دافيد دى سانتيلا » David de Sautillana [١٨٤٥ - ١٩٣١ م] عندما قال : « .. **عبثا نحاول أن نجد أصولاً واحدة تلتقى فيها الشريعتان الشرقية والغربية (الإسلامية والرومانية) كما استقر الرأى على ذلك . إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادىء الثابتة لا يمكن إرجاعها او نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا ، لأنها شريعة دينية تغاير افكارنا اصلاً** .. »(١٥٨) .

هكذا عمل « قانون التفاعل الحضارى » فتم التمييز بين ما هو « مشترك إنسانى عام » وبين ما هو « خصوصية حضارية » . تكوّن « الهوية » و« البصمة » و« الشخصية » لكل حضارة من الحضارات .

وحيثما كان الإطار « طبيعياً » للتفاعل الحضارى ، كان الطابع الصحى هو مناخ عمل هذا القانون لأن

---

(١٥٨) [القانون والمجتمع] ص ٤٣١ مرجع سابق .

« الغزو الفكرى » وليد « القسر » و« القهر » يبدأ بهما ، ثم تاتى ـ بعد احتلال العقل ـ مرحلة التقليد والتبعية من المقهورين ، أسرى هذا الغزو الفكرى ، للغزاة القاهرين .. حدث ذلك ايضاً ودائماً ، عبر التاريخ .. عندما فرض الإغريق والرومان « الهلينية » على الشرق بعد غزوة الاسكندر الأكبر .. وعندما فرض الغرب الاستعمارى « فكرية التغريب » على الأمم التى ابتليت باستعماره فى عصرنا الحديث !

* * *

وإذا كان يحلو لبعض أنصار التغريب ، من أسرى الغزو الفكرى ومروجى سلعه الفكرية ، محاولة افتعال « الاستثناء » فى القاعدة التى أوضحنا التزام قانون التفاعل الحضارى لحدودها .. بالحديث عن الدور الذى لعبه فكر الفيلسوف العربى المسلم أبو الوليد بن رشد فى النهضة الغربية الحديثة ، زاعمين أن « **فلسفة ابن رشد** » قد تبناها الغرب ، وأقام عليها بنيان نهضته أو بعض بنيانها .. بل ويزعمون أن ابن رشد الفيلسوف المسلم قد « بعث حيا » فى الغرب ، بينما « قبر ميتا » فى بلاد الإسلام ! .

إذا كان يحلو لهذا البعض ترديد هذه المقولة .. فإننا ، كما بددنا مقولة تبنى حضارتنا للفلسفة اليونانية ، إبان نهضتنا ، نبادر فنبدد مقولة تبنى الغرب لفلسفة ابن رشد الإسلامية إبان نهضته الحديثة .. وذلك حتى لا تبقى ثغرة واحدة

للتشكيك فى استقامة وعموم هذا القانون الحاكم لتفاعل الحضارات .

إن الغرب الناهض ، لم ياخذ ابن رشد « الفيلسوف المسلم » بل رفض هذا الجانب من فيلسوفنا ، واصدر ضده قرارات الحرمان والتحريم من المجامع الكنسية ، لتلتزم بتطبيقها الجامعات .. لكنه اخذ ابن رشد « الشارح الأكبر لأرسطو » .. اى انه اخذ منه : التراث اليونانى الغربى ، ورفض خصوصية حضارة الإسلام !

فإذا كان الغرب قد تبنى ما عرف فى عصر نهضته بـ « الرشدية اللاتينية » فإننا نضيف : أن هذه **« الرشدية اللاتينية »** ، التى قبلها الغرب ، هى شروح ابن رشد على أرسطو ، حكيم اليونان ، أما إبداع ابن رشد ، الفيلسوف المسلم ، والمتكلم ، والقاضى ، والفقيه ، والذى تمثل ـ بحقل الفلسفة ـ فى مؤلفاته [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] و[تهافت التهافت] و[مناهج الأدلة] .. والتى يجب أن نسميها « **الرشدية الإسلامية** » ، فإن الغرب قد رفضها ، بل وناصبها العداء .. لقد فصلوا ابن رشد إلى شطرين ، فأخذوا الشطر الذى هو تراثهم وخصوصيتهم الحضارية ، ورفضوا الشطر الإسلامى ، الممثل لخصوصيتنا الفلسفية الإسلامية .. وكما يقول « الفريد جيوم » : « فإن علينا أن نضع حدا فاصلا بين ابن رشد كفيلسوف ، وابن

رشد كشارح لأرسطو »[١٥٩] .. وإذا كان الغرب قد رفض، منذ البداية، « الرشدية الإسلامية »، كما تمثلت في « مؤلفات » ابن رشد الإبداعية .. فإنه قد فصل، أيضاً « إضافاته » التي تخللت شروحه على أعمال أرسطو .. ونهض بهذه المهمة القديس توما الأكويني » [١٢٢٥ - ١٢٧٤ م] .. « فبعد أن أوغلت تعاليم ابن رشد، التي تضمنتها إضافاته على الشروح، في الفكر المسيحي، طوال قرون متعددة، ونفذت عميقاً حتى أصبحت خطراً على تعاليم الكنيسة .. جاء القديس توما الأكويني وفصل أرسطو عن شارحه، ونقد التفاسير العربية لفلسفة أرسطو .. »[١٦٠] .. ولذلك رأينا الجامعات الغربية تتبنى ار سطو، في ذات الوقت الذي تحرم فيه فكر ابن رشد، وتحكم بالكفر على ٢١٩ مسألة تمثل إضافاته على الشروح التي قدمها لأعمال حكيم اليونان[١٦١] ..

فكما أن نهضتنا القديمة لم تتخذ الفلسفة اليونانية فلسفة للأمة، على الرغم من ترجمتها ودراستها، على النحو الذي يعرفه الجميع .. فكذلك كان حال النهضة الغربية الحديثة مع

---

(١٥٩) جيوم [الفلسفة وعلم الكلام] ص ٢٩٤ . بحث منشور ضمن كتاب [تراث الإسلام] - مرجع سابق -

(١٦٠) المرجع السابق . ص ٣٦٠ .

(١٦١) المرجع السابق . ص ٢٩٤ .

فلسفتنا الإسلامية حتى فى صورتها الرشدية ، لأن فلسفة الأمة ـ أية أمة عريقة ذات تراث غنى ـ هى واحدة من أخص « خصوصياتها الحضارية » ، وليست من « المشترك الإنسانى العام » الذى هو مشاع بين الأمم والقوميات والحضارات .

بل إننا نستطيع أن نضيف إلى هذه الحقائق الساطعة القاطعة ، حقيقة أخرى هامة وبالغة الدلالة فى قضيتنا .. تتعلق بمغزى ترجمة الغرب ، إبان نهضته لما ترجم من الكتابات الفلسفية لحجة الإسلام الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م] .. ذلك أن بعضا من أسرى الغزو الفكرى التغريبى قد يرى فى ترجمة الغزالى إلى اللاتينية ـ وهو ليس شارحا لفلسفة اليونان ، بل من نقادها ـ شبهة على تبنى الغرب ، إبان نهضته لفلسفتنا الإسلامية .. على حين أن الحق فى هذا الأمر هو على النقيض من هذه الرؤية تماماً !

لقد ألمحنا إلى جزع الكنيسة الغربية من « العقلانية الإسلامية » التى تمثلت فى إضافات ابن رشد على شروحه لأعمال أرسطو ـ وهى « عقلانية إسلامية » ، وليست « عقلانية يونانية » ! فذهبت هذه الكنيسة الغربية فى بحثها عن أسلحة المقاومة لهذه « الرشدية الإسلامية » إلى حد الاستعانة بـ « صوفية الغزالى » لمحاربة « عقلانية ابن رشد » ؟ ! .. فلم تكن ترجمات الغزالى مقصودا منها

تبنيه ، وإنما كان المراد محاربة المفتونين بابن رشد ـ من اللاتين ـ بسلاح مصنوع بذات الحضارة التى بها يفتتنون !

وهنا نتذكر ـ وَنُذَكر ـ بذات القانون وذات الحقائق التى سقناها عندما تحدثنا عن مغزى ترجمة العرب المسلمين لعقلانية أرسطو اليونانية .. لقد كانت الغنوصية اللاعقلانية هى الخطر الذى حاربت الهلينية به الإسلام ، فاستعان الإسلام ـ بعد أن أبدع لأمته عقلانيتها المتميزة ـ بالعقلانية الأرسطية ، ليهزم الغنوصية ، وليصرف المفتونين بكل ما هو يونانى عن الهلينية والغنوص ، بسلاح مصنوع ببلاد اليونان ، التى هم بإبداعها مفتونون !

أما فى حالة الغرب وكنيسته ، فلقد كانت العقلانية الإسلامية الرشدية هى الخطر الذى اقتحم عليها معاقل اللاهوت ـ فسعت إلى « صوفية الغزالى » تحارب بها « عقلانية ابن رشد » .. ليس حبا فى الغزالى ، ولا تبنيا لفلسفته ـ فذلك لم يحدث ـ وإنما كضرورة من ضرورات الصراع بين الأنساق الفكرية والمذاهب والتيارات .

ويشهد على ذلك ، أيضاً نوعية ما اختاروه من الغزالى ـ وهو « الظاهرة المتنوعة » بحكم تطوره الفكرى وغنى تجربته العلمية ـ .. فلقد أخذوا منه ما رأوه معينا لهم على التصدى

للخطر الأعظم الذى اقتحم عليهم دوائر الفكر : العقلانية الإسلامية ، كما تمثلت فى إبداع وإضافات أبى الوليد !

وبقيت لحضارتهم الغربية خصوصيتها الفلسفية .. رغم ما ترجموه للغزالى ، حجة الإسلام .. كما بقيت لحضارتنا خصوصيتها الفلسفية .. رغم ترجمتنا لأرسطو ، حكيم اليونان !

فلقد تم جميع ذلك فى مناخ صحى لتفاعل حضارى طبيعى .. فكان العمل لقانون التفاعل الحضارى حرا وخلاقا .. فازدهرت الحضارات الناهضة عندما استلهمت « المشترك الإنسانى العام » وحافظت على تميزها وطابعها بتنمية مالها من « خصوصية » فى السمات والقسمات .

إنه « تفاعل حضارى » طبيعى وخلاق .. وليس غزواً فكرياً يفرضه القاهرون على الأسرى المقهورين والمقلدين !

وأخيـــــرا ..

فحتى لا « يغبش » الغـزو الفكـرى التغـريبى خصوصيتنا الحضارية ، فيمسخ وينسخ ويشوه هويتنا العربية الإسلامية ، فتكون تبعيتنا الحضارية للغرب « القيد الفكرى » الذى يؤيد ، بل ويؤبد تبعيتنا له فى السياسة والأمن والاقتصاد .

وحتى لا تقودنا هذه التبعية الحضارية إلى المازق الذي قادت الحضارة الغربية إنسانها إلى طريقه المسدود ، عندما حققت له القوة الغاشمة والوفرة المادية ، وافقرته فى الروحانيات .. والمثل .. فاصبح عبدا للآنية ، واللذة والشهوة .. فاقدا للتوازن ، الذى هو شرط ـ بل حقيقة ـ سعادة الإنسان فى هذه الحياة .

وحتى لا يكون مصير إسلامنا ـ وهو جوهر هويتنا الحضارية كمصير التوحيد المسيحى الأول ، الذى « غبشه » الغزو الفكرى الهلينى بالغنوصية الباطنية .. فيتحول إسلامنا ـ بالتغريب ـ إلى « كهانة بابوية » تقدس المدنى وتجمد المتغير .. أو علمانية تجرد الدولة والدنيا وعلومها من إطار الشريعة وروح الإيمان .. وتتحول عروبتنا إلى عصبية عرقية جاهلية .. وتتحول المراة العربية المسلمة إلى « غانية رومانسية » أو « مسترجلة

اسبرطية » أو « صورة غلاف وإعلان سلعة راسمالية » أو « جارية مملوكية » .. وحتى لا تذبل فينا رغبة الإبداع ، عندما يرضى ليبراليونا بليبرالية الغرب ، وشموليونا بشمولية الغرب ، وتقدميونا بتقدمية الغرب ، ورجعيونا برجعية الغرب ، فنقنع بدونية المستهلكين لسلع الفكر والمادة معا !

حتى لا يحدث لنا ذلك ، علينا أن نميز فى تفاعلنا مع الحضارة الغربية بين ما هو « خصوصية حضارية » وما هو « مشترك إنسانى عام » .. فتلك بداهة الفكر ومنطقه ، وهذه هى شهادته .. وايضاً شهادة التاريخ عندما سجل عمل قانون التفاعل بين الحضارات .

● قرانا هذه الشهادة التاريخية فى حقبة تفاعلنا ، قديماً ، مع حضارات الفرس والهند واليونان .

● وقرأناها فى حقبة تفاعل الحضارة الغربية الحديثة مع حضارتنا العربية الإسلامية .

● بل وقرأناها ، ايضاً فى صفحة نهضتنا الحديثة ، التى عاجلها الاستعمار ، عندما سلكت بلادنا سبيل النهضة ، على عهد محمد على باشا الكبير [١١٨٤ ـ ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩ م] فذهبت كل بعثاتنا العلمية إلى الغرب لتتعلم العلوم العملية والطبيعية، مثل : ١ ـ الفنون الحربية والإدارة العسكرية ٢ ـ والملاحة والفنون البحرية ٣ ـ والهندسة

الحربية ٤ ـ والمدفعية ٥ ـ وصنع الأسلحة وصب المدافع ٦ ـ وبناء السفن ٧ ـ وهندسة الرى ٨ ـ والميكانيكا ٩ ـ والطباعة والحفر ١٠ ـ والزراعة ١١ ـ والتاريخ الطبيعى والمعادن ١٢ ـ والكيمياء ١٣ ـ والطب والجراحة ١٤ ـ وفن إدارة الماكينات ١٥ ـ وفن المعمار ١٦ ـ ورسم الخرائط ١٧ ـ والترجمة ١٨ ـ والإدارة ١٩ ـ والدبلوماسية ٢٠ ـ والصياغة والجواهر ٢١ ـ والغزل والنسيج والصباغة وتجهيز الأقمشة ٢٢ ـ والسراجة ٢٣ ـ وصناعة الجلود والأحذية ٢٤ ـ وصباغة الأختام وتصنيع الشمع ٢٥ ـ وصناعة النقش والدهان ٢٦ ـ وصناعة الساعات ٢٧ ـ وصناعة الصينى والفخار ٢٨ ـ وصناعة التنجيد والفراشة ٢٩ ـ واللغات ٣٠ ـ وعلم توازن القوى والآلات ٣١ ـ والطبوغرافيا ٣٢ ـ والتحصينات ٣٣ ـ وفن معدن الفحم ٣٤ ـ وصناعة الحرير ٣٥ ـ وصناعة الورق(١٦٢).. وغيرها من « **العلوم الطبيعية وتطبيقاتها** » .. بينما لم يذهب مبعوث واحد إلى الغرب لدراسة العلوم الإنسانية أو الاجتماعية أو الفلسفية ، التى تتصل مناهجها ومثلها

---

(١٦٢) انظر عبد الرحمن الرافعى [عصر محمد على] ص ٤٦٤ ـ ٤٧٣ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢ ـ ٤٨٩ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ . طبعة القاهرة عام ١٩٥١ م وعمر طوسون [البعثات العلمية فى عهد محمد على وعباس وسعيد] ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢١٩ ، ١١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، طبعة القاهرة عام ١٩٣٤ وانظر [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] جـ ٢ ص ٢١ ، ٢٢ دراسة وتحقيق . د . محمد عمارة . طبعة بيروت عام ١٩٧٣ م .

بخصوصية الحضارة الغربية فى الطابع « المادى ـ العلمانى » [١٦٣] .. وليس كما صنع بنا الغزو الفكرى ، عندما ذهب ويذهب مبعوثونا يدرسون علوم الشريعة والحقيقة والفلسفة والآداب والفنون وغيرها بمناهج الغرب ، وعلى أيدى المستشرقين !

لقد كتب رائد فكر تلك النهضة ، رفاعة رافع الطهطاوى [١٢١٦ ـ ١٢٩٠ ـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م] ينبه على ضرورة التمييز فى الفكر الغربى ، بين « المفيد » و« الضار » ، فقال : علينا أن نأخذ عن أوروبا « المعارف البشرية المدنية .. والعلوم الحكمية العملية » أما روح حضارتهم وفلسفاتهم ، فإنها مليئة « بالحشوات الضلالية ، المخالفة لسائر الكتب السماوية .. » [١٦٤] ؟!

فتلك صفحة من صفحات نهضتنا الحديثة ـ وإن طواها الغزو الاستعمارى ، إلا ان تأملها ، واستخلاص دلالاتها فى موضوعنا ، لابد وأن يفتح لنا السبيل إلى الكلمة الحق والموقف العادل فى هذا الموضوع .

* * *

إن الانغلاق الحضارى ـ فضلًا عن استحالته

---

(١٦٣) انظر كتابنا [العلمانية ونهضتنا الحديثة] ص ١١٧ ـ ١٣٣ . طبعة القاهرة ١٩٨٦ م .

(١٦٤) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] جـ ١ ص ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ١١٤ ، ١١٥ .

العملية ـ هو أقصر الطرق لذبول الذين يفرضون على حضاراتهم أسوار العزلة والانغلاق ..

والتبعية الحضارية ، قاتلة للإبداع ، ومفضية ، هى الأخرى إلى الذبول ، الذى يقنع أصحابه بتقليد القردة وتبعية العبيد والضعفاء .

وليس كالتمييز بين ما هو « خصوصية حضارية » ـ فنحافظ عليها ـ وما هو « مشترك إنسانى عام » فنسعى لامتلاكه والتفوق فيه ، سبيلاً للنهضة الحضارية المستقلة التى تحقق للأمة مكانا لائقا فى « منتدى الحضارات العريقة » وإسهاما خلاقاً فى تنمية الفكر الإنسانى العام ..

لقد قال رسولنا ﷺ : « الحكمة : الإصابة فى غير النبوة »(١٦٥) .. وقال : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن »(١٦٦) أنّى وجدها فهو أحق بها .. لكنه نهى ، ﷺ ، عن التقليد [التشبه] ـ الذى يمسخ الذات .. فقال : « من تشبه بقوم فهو منهم »(١٦٧) وقال : ليس منا من تشبه بغيرنا .. »(١٦٨) ..

---

(١٦٥) رواه البخارى .
(١٦٦) رواه الترمذى وابن ماجة .
(١٦٧) رواه أبو داود والإمام أحمد .
(١٦٨) رواه الترمذى .

واستنكر صنيع المتشبهين بالجاهلية ، فقال : أو بصنع الجاهلية تَشَبَّهُون ؟! (١٦٩)

كذلك قال فقهاؤنا : « إن شريعة من قبلنا شريعة لنا ، مالم تنسخ » .

وقال الكندى الفيلسوف [٢٦٠ هـ ـ ٨٧٣ م] : « خليق بنا أن لا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها » .

وكذلك قال ابن رشد : « إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك .. سواء أكان مشاركا لنا فى الملة أو غير مشارك ، **فإن كان كله صوابا قبلناه منهم ، وإن كان فيه ماليس بصواب نبّهنا عليه** » . (١٧٠)

أما جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م] فإنه هو القائل : « **إن ابا العلم وامه هو الدليل ، والدليل ليس أرسطو بالذات ولا جاليليو بالذات .. والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل .. والتمدن الأوروبى ، هو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشا فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى .. ولا ملجىء للشرقى في بدايته ان يقف موقف الأوروبى فى نهايته ..**

---

(١٦٩) رواه ابن ماجة .

(١٧٠) [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٢٦ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة عام ١٩٨٣ م .

ولابد من التمسك ببعض الاصول التى كان عليها آباء الشرقيين واسلافهم .. اما المقلدون ، فإنهم يشوهون وجه الامة ، ويضيعون ثروتها ، ويحطون من شانها .. إنهم المنافذ لجيوش الغزاة ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون لهم الابواب .» (١٧١)

* * *

لقد خلق الله ، سبحانه وتعالى ، الإنسان « ذكراً » و« أنثى » .. فالإنسانية « مشترك عام » و « الذكورة » و « الأنوثة » « خصوصية » لكل من الذكر والأنثى .. تلك هى « القاعدة » و « الطبيعة » .. لكن الشذوذ يأتي بالهجين ، المفتقر إلى وضوح القاعدة والطبيعة ، فيسميه فقهاؤنا وعلماؤنا بـ « الخنثى المشكل » لأنه ليس بالذكر ولا هو بالأنثى .

وكذلك الحال فى الثقافات والحضارات .. بينها « المشترك الإنسانى » الجامع .. وفى كل منها ما هو « خاص » .. فطوبى للذين يعون هذه الحقيقة ، فلا يطغى عليهم « شذوذ الانغلاق » ، ولا يقعون أسرى « الغزو الفكرى » ، الذى يحول ضحيته إلى « مشكل ثقافى » .. لا « هوية » تعرفه ، ولا « بصمة » تميزه عن الآخرين !

---

(١٧١) [الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى] ص ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٥٢٣ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة عام ١٩٦٨ م .

وفى الختام .. فإننا ننبه على ضرورة التمييز بين هذا الموقف الذى التزمناه ، والذى ندعو إليه ونزكيه .. عندما نميز بين « المشترك الإنسانى العام » وبين « الخصوصية الحضارية » .. وموقف أولئك الذين لا يرون فى الحضارات الأخرى إلا ما هو موضوع للنقد ، بل والهجاء !

ذلك أن نقدنا لما ننتقد من سمات الحضارة الغربية ، ورفضنا لما نرفض من قسماتها ، هو نقد لصلاحيته كى يكون من سماتنا الحضارية ، ورفض لاستعارته وتبنيه كى يكون من قسمات شخصيتنا القومية .. أما عن مدى صلاحيته فى بيئته الغربية فتلك مهمة الغربيين وليست المهمة التى تعنينا ، بالدرجة الأولى ، فنحمل همومها الفكرية فقد تكون الكثير من السمات والقسمات والأفكار والقيم « خصوصيات حضارية غربية » ، ملائمة للغرب ، نشأت ونمت هناك النشأة الطبيعية .. لكنها بالنسبة لنا تمثل النشاز والجسم المقحم بالقسر على طبيعة إنساننا العربى والمسلم وخصوصيتنا الحضارية العربية الإسلامية .

فالذين يتصورون الحضارة الغربية شرا مطلقا ، هم أبعد ما يكونون عن التزام المنهج العلمى فى التفكير .

والذين يتصورون أن حضارتنا ، بكل سماتها ومكوناتها ، خير خالص ، إنما ينظرون فى « الفكر » وإلى « الواقع » بعيون « الرومانسيين الحالمين » !

والذين يحسبون إمكانية الاكتفاء الذاتى ، فى الميدان الحضارى ، هم أبعد ما يكونون عن « فقه الواقع » المعاصر ، واستكناه شهادات الفكر وشهادات التاريخ .

والذين يدعون إلى تبنى « النموذج الغربى » فى الحضارة ـ فى مشروع نهضتنا التى نحاولها ـ هم إما جاهلون بقانون التمايز الحضارى .. وقانون التفاعل بين الحضارات .. أو خبثاء ـ ولا نقول عملاء .. تدعوهم الكراهية للإسلام ـ باعتباره جوهر الذاتية الحضارية المميزة للعرب والمسلمين ـ إلى تبنى « التغريب » بديلاً للإسلام الذى يكرهون ؟!

فلا « الإنغلاق » أو « العداء » الحضارى ، بالموقف اللائق بالعقلاء .

ولا « التبعية » الحضارية ، بمفيدة ، أو ملائمة لمن يمتلكون « بصمة » حضارية تميزهم عن الآخرين .

وإنما هو « التفاعل الحضارى » مع كل الحضارات .. مع إدراك مواطن وميادين « المشترك الإنسانى العام » الذى هو ميراث كل بنى الإنسان .. ومواطن وميادين « الخصوصية الحضارية » التى تحفظ على الحضارة العريقة ذاتيتها وهويتها كى لا تذوب فى الآخرين ؟

د. محمد عمارة

المصـــــادر

- القرآن الكريم .
- كتب الســـنة .

[صحيح البخارى] طبعة دار الشعب القاهرة .

[صحيح مسلم] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

[سنن الترمذى] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

[سنن النسائى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

[سنن ابى داود] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

[سنن ابن ماجة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

[سنن الدارمى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

[مسند الإمام أحمد] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .

[الموطأ] ـ للإمام مالك ـ طبعة دار الشعب القاهرة .

* * *

ابن الأثير :

[أسد الغابة فى معرفة الصحابة] طبعة دار الشعب . القاهرة .

[الكامل فى التاريخ] طبعة القاهرة .

ابن حزم :

[الفصل فى الملل والأهواء والنحل] طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .

[رسائل ابن حزم] طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م .

ابن خلدون :

[المقدمة] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

ابن رشد (ابو الوليد) :

[فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

[تهافت التهافت] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م .

[مناهج الأدلة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

[بداية المجتهد ونهاية المقتصد] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤ م .

ابن عساكر :

[تهذيب تاريخ ابن عساكر] طبعة دمشق .

ابن القيم :

[أعلام الموقعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

ارنولد (سير . توماس) :

[الدعوة إلى الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

الأفغانى (جمال الدين) :

[الأعمال الكاملة] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

الإيجي - والجرجانى :

[شرح المواقف] طبعة القاهرة سنة ١٣١١ هـ .

بكـــر :

[وارث ووارث] بحث منشور بكتاب [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

البيرونى :

[تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة] طبعة لندن سنة ١٨٨٧ م .

التهانوى :

[كشاف اصطلاحات الفنون] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

التيفاشى :

[أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

الجاحظ :

[كتاب الحيوان] طبعة القاهرة - الثانية .

الجرجانى :

[التعريفات] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

جولد تسيهر :

[العناصر الافلاطونية المحدثة والغنوصية فى الحديث] بحث منشور بكتاب [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

[موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل] بحث منشور بكتاب [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

جيوم :

[الفلسفة وعلم الكلام] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف أرنولد ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

الحسن البصرى ـ وآخرين :

[رسائل العدل والتوحيد] طبعة دار الشروق ـ القاهرة سنة ١٩٨٧ م .

الخزاعى ابو الحسن :

[تخريج الدلالات السمعية] منشور ضمن كتاب [نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية] طبعة بيروت ـ دار الكتاب العربى .

الخومينى :

[الحكومة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

دافيدبالدوس :

[النشرة الإخبارية لمنظمة العفو الدولية] يونيو سنة ١٩٨٧ م [دراسة عن أحكام الإعدام فى أمريكا] .

سانتيلا :

[القانون والمجتمع] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف أرنولد ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

شفيق غربال ـ إشراف :
[الموسوعة العربية الميسرة] طبعة القاهرة .
الشهرستانى :
[الملل والنحل] طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .
[نهاية الإقدام فى علم الكلام] طبعة جيوم ـ مصورة ـ بدون تاريخ أو مكان الطبع .
الطهطاوى (رفاعة) :
[الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .
عبد الجبار بن احمد (القاضى) :
[فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م .
على عبد الرازق :
[الإسلام وأصول الحكم] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .
على فهمي خشيم (دكتور) :
[الجبائيان : ابو على وابو هاشم] طبعة طرابلس ـ ليبيا ـ سنة ١٩٦٨ م .
الغزالى (ابو حامد) :
[الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .
فؤاد افرام البستانى ـ إدارة :
[دائرة المعارف] طبعة بيروت .

الفيروز آبادى :
[القاموس المحيط] طبعة بيروت سنة ١٩٨٦ م .
القرطبى :
[الجامع لأحكام القرآن] طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة .
كوربان ، هنرى :
[السهروردى المقتول مؤسس المذهب الإشراقى] بحث منشور بكتاب [شخصيات قلقة فى الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
ماسينيون :
[سلمان الفارسى والبواكير الروحية للإسلام فى إيران] بحث منشور بكتاب [شخصيات قلقة فى الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
[المنحنى الشخصى لحياة الحلاج شهيد الصوفية فى الإسلام] بحث منشور بكتاب [شخصيات قلقة فى الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
الماوردى :
[أدب القاضى] طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م .
مجمع اللغة العربية - القاهرة :
[المعجم الفلسفى] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
[المعجم الكبير] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

محمد احمد خلف الله (دكتور) :
[النص والاجتهاد والحكم فى الإسلام] بحث منشور بمجلة [العربى] الكويت ـ عدد يونيو سنة ١٩٨٤ م .

محمد حميد الله الحيدر آبادى (دكتور) :
[مجموعة الوثائق السياسية ـ للعهد النبوى والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

محمد عبده (الأستاذ الإمام) :
[الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

محمد عمارة (دكتور) :
[العلمانية ونهضتنا الحديثة] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م . [مسلمون ثوار] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م .

[الإسلام والعروبة] طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .

[الإسلام والسلطة الدينية] طبعة القاهـرة سنة ١٩٧٩ م .

[العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م .

[الإسلام وحقوق الإنسان] طبعة الكويت سنة ١٩٨٥ م .

[الأمة العربية وقضية الوحدة] طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .

[المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

محمد فؤاد عبد الباقى :
[المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب . القاهرة .
النسفى :
[مدارك التنزيل وحقائق التأويل] طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ .
نلينو :
[محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية] بحث منشور بكتاب [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
النويرى :
[نهاية الأرب فى فنون الأدب] طبعة القاهرة .
نيكلسون :
[التصوف] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] بإشراف أرنولد .
هينرش (كارل) : [تراث الأوائل فى الشرق والغرب] بحث منشور بكتاب [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
وينسنك (أ . ى) وآخرين :
[المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ليدن سنة ١٩٣٦ ـ سنة ١٩٦٩ م .

الفهـــرس

الصـــفحة

الصـــفحة

رقم الايداع ٨٨/٥٠٧٦

الترقيم الدولى . ٥ ـ ٢٥٠ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة ٨٠ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩٠ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت ص ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الغلاف للفنان حلمى التونى

الغزو الفكرى

وهم أم حقيقة

● وهل عالمنا المعاصر [illegible] وطن حضارى واحد وحضارة عالمية واحدة؟ [illegible] أم أن هناك تعددية فى الحضارات [illegible] وخصوصيات حضارية [illegible] إلى جانب [illegible] المشترك [illegible] الفكرى الإنسانى [illegible]

[illegible]

للإجابة عن هذه التساؤلات [illegible] يصدر هذا الكتاب [illegible] ليسهم فى حسم واحدة من أخطر القضايا التى يحتدم من حولها الصراع فى وطن العروبة وعالم الإسلام!